ألفريد سانت

كما في القاموس

رواية



ترجمة: وليد نبهان

آفاق


ألفريد سانت
كما
في القاموس
رواية
ترجمة: وليد نبهان
آفاق

كما في القاموس

ألفريد سانت

- المؤلف: ألفريد سانت
- العنوان: كما في القاموس - رواية
- ترجمة: وليد ثبهان
- الطبعة: الأولى 2023
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:
٢٠٢٢ / ١٧٠٣٤
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 348 - 0

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

ألفريد سانت

كما في القاموس

رواية

ترجمة

وليد نبهان

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

سانت، ألفريد

كما في القاموس - ألفريد سانت - رواية

ترجمة: وليد نبهان

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2023

336 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 17034 / 2022

الترقيم الدولي 0 - 348 - 765 - 977 - 978

1 - روايات

2 - العنوان

Bhal f'Dizzjunarju

By: Alfred Sant

تم تمويل ترجمة ونشر هذا الكتاب من قبل المجلس الوطني للكتاب في مالطا

حقوق الترجمة © وليد نبهان

كُتب باللغة المالطية من قبل ألفريد سانت

جميع الحقوق محفوظة

© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved

© **Afaq** *Publishing House* **2023**

إلى فرانس

- 1 -

«منذ أن كنت صغيرًا، تعلقت بالكتابة. لماذا؟ لا أدري. حتى قبل أن أتعلم الأبجدية، كنت أشاهد والدي يكتب وأردت أن أفعل مثله. لا أذكر كيف انتهى أحد الدفاتر القديمة إلى حوزتي، كان فارغًا باستثناء أول صفحتين. أمضيت ساعات طويلة، أو هكذا أستحضرها اليوم كساعات طويلة، أكتب وأخربش في تلك الصفحات الفارغة. لم أكن أدري ما الذي كنت أكتبه، لكنني أتذكر أنني كنت حريصًا على أن تكون كتابتي أنيقة ونظيفة».

أنجلو دي بونو. مايو 2009. «بلا أجندة»، برنامج تلفزيوني

كانوا ثلاثة: أنجلو ونيكي وصديقتهما ابنة الجيران. كان اسمها ماريلا، أو ربما أنتونيلا. كانت شقية مثلهما أو ربما تفوقهما شقاوة، ومستعدة دائمًا لمشاركتهما في كل ما يفعلانه. كانت تُجاري نيكي وتُنفذ كل ما يقوله أنجلو. كانت منجذبة بقوة إلى نيكي كما يفعل عادة الأولاد الصغار. كانت معجبة به ومهتمة بكل ما يقوله أو يفعله، وتلاحظ كيف كان يتغير عندما يلتفت إلى أخيه الكبير. تُرى أين انتهى المطاف بماريلا أو أنتونيلا؟

كانوا يلتقون في الحديقة الخلفية للمنزل، كي يلعبوا ويتذمروا من الواجبات المدرسية التي لم تكن تسمح لهم باللعب كما يشاءون في تلك الحديقة المنسية حيث يمكنهم ابتكار الكثير من المغامرات. ذات مرة، خطر في ذهن أنجلو الذي كان يحب الدراسة خلافًا لما كان يقول، لأنه كان يحب الكتابة، أن يُنظم احتجاجًا ضد هموم المدرسة وواجباتها. في تلك الآونة، كانت الأخبار التلفزيونية مليئة بالتظاهرات والاحتجاجات ضد كل شيء. قال أنجلو:

- لماذا لا نقوم نحن أيضًا بالاحتجاج؟

اتفقوا على أن ينفذوا احتجاجهم في اليوم التالي. كان على ثلاثتهم إحضار أسوأ كتاب أو دفتر واجبات منزلية وإحراقه. ثم تنبه أنجلو بفطنته الشديدة أنهم إن قاموا بذلك، فسوف ينبعث الدخان وقد يتنبه والده ويأتي لتوبيخهم. وماذا لو خرجت النيران عن السيطرة والتهمت إحدى الأشجار؟! بالتأكيد سوف يحضر والده الذي لم يكن يهتم قَط بالحديقة، ويضع حدًّا لتلك المغامرة في الحال.

وكما كان متوقعًا، اتفق معهما على أنه بدلًا من إحراق الكتب، من الأفضل دفنها. وهذا ما حدث عندما التقوا في اليوم التالي. توجه ثلاثتهم من المنزل الخالي إلى الحديقة، لأن والد أنجلو ونيكي كان في العمل، ووالدتهما ربما في أحد المحافل الدينية. أنجلو في المقدمة، وماريلا أو أنتونيلا في المنتصف، ونيكي في المؤخرة، حاملين الكتب التي سيدفنونها بوقار جليل. قبل بدء الطقوس، أصر أنجلو على تفحص الكتب التي أحضرها الآخران.

لم يعترض على ما أحضره نيكي، فقد جلب كتاب الرياضيات الذي درسه في العام الماضي. أما ماريلا، فقد أربكته قليلًا، لأنها أحضرت كتابين، أحدهما كبير مليء بأحرف الأبجدية والألوان والصور، والآخر مسطح وسميك.

سألها:

- ما هذه؟

فأخبرته أن أحدهما كان الكتاب الذي تعلمت منه الأبجدية عندما كانت صغيرة، والآخر كان قاموسًا قديمًا لوالدها عندما كان تلميذًا. شعر أنجلو بالريبة حول ما كانوا مقدمين عليه. سأله نيكي:

- وماذا أحضرت أنت؟

- أحضرت كتاب التربية المسيحية الذي تعلمناه في العام الماضي.

اتجهوا إلى الحفرة التي حفرها الولدان تحت شجرة الليمون العجوز المثقلة بالليمون الأخضر اليانع. أنجلو أولًا، ونيكي خلفه، وأخيرًا ماريلا. ألقوا قرابينهم في الحفرة. وبنفس الترتيب، أمسكوا بالمجرفة وبدأوا في إهالة التراب في الحفرة في طقوس احتفالية.

في تلك الليلة أمطرت بغزارة. أنجلو لم يتمكن من النوم. صوت اصطدام المطر بأغصان الأشجار كان يتسلل من الحديقة إلى غرفته. لا بد أن التربة تحت شجرة الليمون قد غرقت بالماء. تُرى ماذا حدث لتلك الكتب التي دفنوها؟ لم يكن مهتمًّا بكتابَي الرياضيات والتربية المسيحية اللذين ألقى بهما هو وأخوه نيكي في الحفرة. لكنه ظل يفكر بالكتابين اللذين ضحت بهما ماريلا؛ كتاب الأبجدية الملون وقاموس والدها. في تلك الليلة لم يغمض له جفن.

في الصباح التالي قبل ذهابه إلى المدرسة، هرع إلى الحديقة، جرف الوحل من تحت الليمونة حتى انكشفت الكتب التي دفنوها في اليوم السابق. لم تكن مياه الأمطار قد تسللت إليها بعد. التقط كتابَي ماريلا من الحفرة ووضعهما جانبًا على مقعد خشبي. عندما عاد إلى الداخل، وبَّخته أمه قبل

مغادرتهما إلى المدرسة عندما لاحظت أن حذاءه مليء بالطين، وأنه قد ملأ المنزل بالوحل.

أشياء عتيقة

معظم الأثاث كان قد تمت إزالته من الحجرة الرئيسة، لذلك كانت الغرفتان في الجزء الخلفي من المنزل مكتظتين بالأشياء العتيقة. نيكي فتح على الفور النوافذ المطلة على الحديقة. ضوء النهار البارد والصافي أظهر لهم أن الفوضى كانت أكبر مما كانوا يتوقعون.

قال أنجلو:

- ظلت تجمع وتكدس الأشياء حتى النهاية.

سألت دينيس مستغربة:

- هل لهذه الأشياء أي قيمة؟

كانت تعلم، مثل الباقين، أن أمهما قبل أن تمرض كانت مولعة بشراء التماثيل والمرايا والكثير من الخردوات من جميع الأحجام والأشكال. كانت تعتقد أن حماتها على مر السنين كانت تكدس هذه الأشياء في غرفة المعيشة حيث تعيش وتستقبل الضيوف. لم تكن تعلم أنه بالإضافة إلى تلك الحجرة، كانت هناك حجرة أخرى كبيرة مليئة بهذه الأشياء.

انفجر نيكي ضاحكًا.

- ليس من الصعب العثور على تاجر خردوات لأخذ كل هذه الأشياء!

ثم قال بجدية:

- من يدري مدى حزنها -عندما كان عقلها حاضرًا- عندما كانت تفكر في مصير هذه الأشياء بعد رحيلها؟!

نيكي لم يكن على ما يرام. كان عليه أن يحضر هذا الموقف المؤلم مع مورين. على الأقل هذا ما اتفقت عليه مع دينيس. لكن مورين لم تحضر هذا الصباح. نيكي أخبرهما أنها استيقظت متوعكة قليلًا. أصبح عصبيًّا بطريقة غريبة عندما بدأوا في نقل التماثيل قرب باب الغرفة الأولى.

سأل أنجلو:

- كيف سنعلم إن كان هناك شيء ذو قيمة في كل هذا؟ وما كل هذا الغبار؟!

تماثيل كبيرة وصغيرة للسيدة العذراء ورضيعها، وملائكة وخراف وخيول وغيرها من الحيوانات، ورعاة وحوريات وأعمدة بأطوال مختلفة، ومرايا ومزهريات وخزائن وصناديق صغيرة وزخارف تُعلق على الجدران أو تُوضع على المناضد، مصنوعة من الخشب الأبيض والماهوجني، أو من الفخار والسيراميك والحديد أو القصدير والرخام، أنجلو واصل تذمره من كثرة الغبار، رغم أنه كان أقل مما قد يتوقعه المرء. دينيس شكَّت فيما أخبرها به أنجلو ونيكي؛ يبدو أن والدتهما ظلت حتى النهاية تعتني بمجموعتها كلها بقدر استطاعتها، وليس فقط تلك التي كانت تحتفظ بها في غرفة المعيشة حيث تستقبل ضيوفها، بل حتى تلك المكدسة في هذا المتحف! يبدو أنها ظلت تبذل قصارى جهدها حتى النهاية لإبقائها في حالة جيدة. لو لم تكن تفعل ذلك، لشاهدوا أضعافًا من طبقات الغبار من حولهم.

قال أنجلو:

- يمكننا إحضار أحدهم ليخبرنا إن كان هناك شيء ذو قيمة، لكن ليس عليك أن تكون خبيرًا لتكتشف أن غالبيتها كراكيب.

سأل دينيس وهو يسعل من جراء الغبار:

- هل هذا المكان مناسب لك؟

في الأسابيع الأخيرة، بعد أن فقدت جنينها، أصبح قلقًا جدًّا على صحتها كما لم يفعل قَط. كان يقول إن وجهها ما زال شاحبًا، وإنها تعاني فقر الدم، ومتعبة على الدوام. ربما كان على حق. كآبة تلك الأيام لم تفارقها قَط. لكنها اليوم تبدو على ما يرام. الشيء الوحيد الذي كان يزعجها هو غياب مورين. لماذا لم تحضر؟

اتفقوا على فصل التماثيل والأعمدة والمخلفات الأخرى عن بعضها البعض. استمر أنجلو في إخبارها أن الغبار قد يجعلها محمومة لكنها لم تُعِره انتباهًا.

في أثناء قيامهم بفصل الأشياء اعترته نوبة عصبية كالتي تملكت نيكي في البداية. لاحظت دينيس أن زوجها وشقيقه يشعران بالتوتر الذي كان يعتريهما عندما كانت والدتهما على قيد الحياة، وأن عليهما مواجهة حقيقة أنها لم تعد موجودة. في طفولتهما، دائمًا شعرا أنها غائبة عن حياتهما. على الأقل هذا ما كان يقوله أنجلو. كيف ولماذا حدث هذا؟ الأم لم تفهم قَط، لا مما كان يقوله أنجلو، ولا من تلميحات نيكي.

في أثناء مساعدتها لهما، استرجعت دينيس قصة أم أنجلو ونيكي؛ بالكاد كانت حاضرة في المنزل من أجل أولادها وزوجها، أو هذا ما كان يُقال، وأنها أمضت حياتها في جمع الكراكيب لتزيين منزل لم تكن تكترث به كثيرًا. كان هناك شيء لم يكن يقنعها في تلك الرواية.

انهمكا في فصل التحف ثم دخلا في الحجرتين الباقيتين، نيكي في المقدمة وأنجلو خلفه، فجأة انتابهما شعور غريب عندما بدآ في التعرف على بعض التماثيل وأطقم الفخار والمزهريات وأشياء أخرى. تذكرا كم كانت أمهما توليها جل اهتمامها. أحيانًا كانت تقتني أشياء بعينها، وأحيانًا أخرى أشياء مختلفة تمامًا؛ أباريق فخار من صقلية، ثم سرعان ما تفتنها الأواني الفخارية الزرقاء الهولندية على أشكال راقصين وفلاحين.

قالت دينيس مرة أخرى:

- كنت أتوقع المزيد من الغبار.

لم يُجِبها الأخوان. كانا يعتقدان أن والدتهما كانت تطلب من الخادمة إزالة الغبار عن هذه الكراكيب بدلًا من تنظيف غرفة معيشتها. كلاهما كان يشعر بالحاجة إلى التذمر من كمية التراب التي علقت بمخلفات والدتهما. لكن بمرور الوقت، توقفا عن الكلام. كلما توغلا في هذا المخزن الذي خلفته والدتهما، انغمسا في ماضٍ بعيد، يعيد الذاكرة إلى الحياة من جديد.

عندما وصلوا إلى نهاية الحجرة الثانية، عثروا خلف سلم قصير على أربع لوحات كبيرة مكسوة بالغبار بالكاد يمكن التعرف عليها، وإلى جانبها مجموعة

من التماثيل المصنوعة من الجص والمعجون الورقي، لا يتجاوز طولها الخاصرة. أنجلو توقف أمامها، وتعرف عليها في الحال. قال بصوت غريب:

- كانت تضعها في الممر الخارجي.

قال نيكي:

- أبي لم يكن يطيقها، ما زلت أذكرهما يتشاجران حولها.

أجاب أنجلو بذلك الصوت الغريب:

- لكنها كانت تعجبني.

أزاح السلم واللوحات جانبًا وبدأ بتحريك التماثيل، صنع ممرًّا في المنتصف كأنه يبحث عن شيء معين حتى وجده أخيرًا: تمثال نحاسي صغير لفارس من العصور الوسطى، وجهه مخفي خلف درعه، ومسلح من رأسه حتى أخمصي قدميه. جاهد أنجلو لإزاحته من مكانه لأنه كان ثقيلًا حتى وضعه أمامهم:

- هل تتذكرانه؟

نيكي ظل صامتًا، ربما كان يحاول تذكر شيء آخر.

- هذا التمثال أثار فيَّ فضولًا غريبًا حول تلك الأراضي المفقودة والفرسان المحاربين.

تابع أنجلو:

- بسببه بدأت أحلم بكلاتونيا. هل تتذكر الحكايات التي كنت أختلقها لك عن تلك الأرض المنسية؟

أومأ نيكي برأسه موافقًا لكنه ظل صامتًا.

- وبمرور الزمن، أصبحت الحكايات أكثر تعقيدًا، هل تذكر؟ كل ما حدث كان بسبب هذا التمثال.

فجأة شعرت دينيس بالغضب بسبب تجاهلها من قِبل الأخوين. ربما كان عليها اختلاق عذر كي لا تأتي معهما لإفراغ المنزل من هذه البقايا كما فعلت مورين.

سألت بخبث:

- ماذا كانت تلك الحكايات إذن؟ مثل قصة فيلم المواطن كين؟

(في ذلك الوقت كانت ما زالت مهتمة جدًّا بالسينما).

أجاب نيكي متفاجئًا:

- حقًّا؟

قال أنجلو بضيق:

- هل تحاولين جر قدمي من خلال فيلم أمريكي قديم يُعرض غالبًا في وقت متأخر من الليل على التلفاز؟

احذر

كان عدوانيًّا؛ المتنمر. هكذا كانوا يطلقون عليه في ذلك الزمن الرديء. كان يضايق الفصل بأكمله بوقاحته ولم يكن أحد يجرؤ على مواجهته. كان الجميع يخشونه، فيما كان المعلمون لا يفهمون ما الذي كان يحدث، وإنْ شكوته لهم فستنقلب الأمور ضدك. الجميع كانوا يعتقدون ذلك.

لا بد أن خلف المتنمر شخصًا ما يُحرضه على الاعتداء على الآخرين. هذا ما خلص إليه أنجلو بعد أن لاحظ أن ويلي بابتسامته البلهاء يلازم المتنمر على الدوام ويسر له بأشياء لا يفهمها أحد سواهما. كان يدفعه إلى مزيد من العدوانية. ويلي كان يكره نيكي وأنجلو، لأن الفتيات كن يتحلقن حول نيكي من جهة، ولأن أنجلو كان بارعًا في دروس اللغة الإنجليزية، أفضل بكثير من ويلي رغم تصنعه المقرف للإنجليزية.

قال المتنمر من طرف المقعد فيما ويلي على بُعد خطوات خلفه:

- احذر. احذر. فقد دخلت في حظيرتي.

تراجع أنجلو إلى الوراء ليفسح للمتنمر مكانًا للمرور، لكن يبدو أن الآخر لم يأبه بذلك. استدار نحو أنجلو وأمسك به من عنقه. تحداه صارخًا:

- ألا تعرف كيف تمشي؟

اندفع الصبية والبنات من مقاعدهم -لم يرغب أحد في الزج بنفسه في هذا النزاع. نيكي وقف على بُعد خطوة أو اثنتين خلف أخيه المقبوض عليه تحت قبضة المتنمر، خلفه كان ويلي يراقب كالصقر في انتظار ما سيحدث.

انحنى أنجلو للتخلص من قبضة المتنمر التي كادت تخنقه. فجأة، كأن ستارة كبيرة من الغضب انسدلت أمام عينيه. بدلًا من ضحكة المتنمر المتعالية، تراءت له راية الحروب العظيمة التي يرفعها الفرسان ضد جيوش الأعداء. بدأ بركل المتنمر على ركبتيه وبطنه بكل ما أوتي من قوة، وعندما تراجع الأخير، لكمه بسرعة على وجهه وصدره بقوة لم يكن يعلم أنه يمتلكها. المتنمر، بكل ضخامته وبدانته، لم يكن يتوقع هذا الهجوم المباغت، وتحت الضربات، تراجع وسقط على ويلي. ظل أنجلو يركله بشدة إلى أن كاد يهشم وجهه، حتى تدخَّل بعض الفتية لفصلهما، وفي خضم ذلك، ركل ويلي بين ساقيه فسقط الأخير باكيًا تحت المقاعد.

لفترة من الزمن، حاول المدير والقائمون على المدرسة طرد أنجلو. قالوا لا مكان للمتمردين من أمثاله هنا. لكن والد أنجلو استخدم علاقاته لوأد المسألة.

* * *

احذر»، قالت له بما يشبه التهديد السمج. في الحقيقة، كانت تدعوه» لمواصلة ما كان قد بدأه في غرفة المعيشة بعد عدة كؤوس من الويسكي. كان قد جردها من كل ملابسها باستثناء حمالة الصدر والكلسون. رغم عاصفة الشتاء القارسة في الخارج، فإن ظلال غرفة المعيشة ألقت بدفئها عليهما وبالتأكيد لم تكن تشعر بالبرد. عندما كان على وشك تجريدها مما تبقى من ملابسها قالت له: «احذر، لا تندفع».

لم تدرك أنها صدمته بتلك النكتة السمجة أو ماذا أيقظت فيه من ذكريات مشوشة. لماذا حضرته تلك الذكريات بهذه السرعة؟ بذل قصارى جهده للتستر على ما شعر به لحظتها. حتى بعد أن تابع ما قد بدأه. لم يستطع إخفاء حقيقة أنه فجأة فقد كل رغبة في مضاجعتها. لم تفهم ما الذي حدث له. نامت عارية في سريره خائبة الأمل. بعدها بدأت تطلق الشائعات بأنه خصي.

* * *

- 2 -

أرجوحة

هل تذكر عندما كنا صغارًا؟ كانوا يعلموننا قصيدة... لا تسألني من كان مؤلفها، فقد نسيت اسمه. كانت حول فتاة صغيرة وهي تتأرجح في الحديقة هبوطًا وصعودًا نحو السماء. كم كنت أحبها!

(من رسالة -باللغة الإنجليزية- من نيكي إلى أنجلو، في الفترة التي كان يسافر فيها نيكي كثيرًا من أجل تأسيس وكالة السفر).

* * *

كان مارجون يستمتع كثيرًا بالأراجيح، فيما أخته نينا لم تكن تفعل ذلك. اليوم جلست بقرب والدها على أحد المقاعد في شمس فبراير الدافئة، بينما كان شقيقها الصغير ينتظر بفارغ الصبر فراغ إحدى الأراجيح الثلاث حتى يتمكن من الصعود عليها. نظرت حولها، عيناها تومضان في ضوء الشمس. صراخ الأطفال قادم من الفتحة حولهما، على الأغلب من حوض الرمال المستوي حيث توجد أرجوحة بسلم يتسلقه الأطفال لينزلقوا على الرمال. بالكاد تُسمع أصوات الأمهات -معظمهن شابات- وهن متحلقات تحت شجرتين ذابلتين، يثرثرن باللغة الإنجليزية حول اجتهاد أبنائهن في المدرسة.

شجعها أنجلو.

- لماذا لا تصعدين على الأرجوحة؟

أومأت برأسها بأنها لا ترغب. سألها والدها ضاحكًا:

- هل تشعرين بالكسل؟

هزت كتفيها قليلًا.

صاح مارجون بعد أن تمكن من الحصول على إحدى الأراجيح:

- هيا نينا.

تجاهلت نداءه مبتسمة وهي تنظر حولها. بدأ يتأرجح بقوة. ثم سألت والدها:

- هل ستروي لنا قصة الليلة؟

- بالتأكيد. ما القصة التي ترغبين في سماعها؟

- ليست واحدة، أريد اثنتين.

- حسنًا، ثلاثة!

تابع مارجون التأرجح بقوة صعودًا وهبوطًا. كان على أنجلو أن ينهض من مكانه لتحذيره كي يهدأ. عندما عاد إلى المقعد وجد نينا ما زالت ساهمة تراقب ما كان يحدث حولها بابتسامة صغيرة تحت أشعة الشمس الدافئة.

رصيف

كان المقعد مغمورًا بأشعة الشمس. ثمة قطتان متمددتان بتكاسل تحت الجدار الجانبي بالقرب من بعضهما. حالما شاهدتاه نهضتا واختبأتا تحت إحدى السيارات. سار على الرصيف فيما صوت باولو يرافقه وكأنه ما زال معه. كان قد اتصل به للتو لإبلاغه بآخر الأخبار. كان صوته مسحوقًا تمامًا.

* * *

عندما يستديران يصبح الرصيف العريض أمامهما مستقيمًا، حيث تنتاب نيكي رغبة في المسابقة. لكن أنجلو كان يُفضل المشي ببطء كي يتمكن من رؤية البحر الممتد نحو الشفق. نيكي كان أسرع منه، وتقريبًا كان يتفوق عليه في كل منافسة. لم يكن يشأ أن يبدو جبانًا، وفي كثير من الأحيان كان يستسلم تحت إلحاح أخيه. في ذلك الوقت، وهما في طريقهما لزيارة جدتهما قرابة العاشرة صباحًا، لم يكن هناك أحد من حولهما، وكان الرصيف ملكهما وحدهما. لا عجب أن نيكي كان يرغب جدًّا في التسابق –عدا عن أنه كان يفوز دائمًا أو تقريبًا.

كان البحر هادئًا أحيانًا، وأحيانًا مائجًا. لم يكن قَط بنفس المزاج، لكنه كان يفتن أنجلو؛ يبدأ بالتحديق نحو الشفق وتخيُّل أن الأمواج قادمة من البعيد لتغيير حياتهما. كان يفضل التوقف والتأمل من على الدرابزين الحديدي الذي يفصل الرصيف عن الصخور في الأسفل، يحدق باتجاه الشفق، ويغرق في أحلامه. لكن نيكي، ذلك الشقي، لم يكن يدعه وشأنه. في إحدى المرات... أم

كانت أكثر من مرة؟! تحت إلحاح أخيه وكي لا ينعته بالجبان، أخذ مسارًا مختلفًا في أثناء الجري على الرصيف العريض، لكنه في تلك المرة تعمَّد العدو خلفه تمامًا، وفجأة عرقله بقدمه اليمنى. وفي ظل إصرار نيكي على المضي قدمًا، تعثر وسقط على وجهه. شاهده أنجلو وهو يتلوى على الأرض متألمًا مثل قطة جريحة.

* * *

كم تناولا من الخمر؟ قبل الوجبة وخلالها كانا قد غرقا في سيل من الكلمات والنكات بين الأصدقاء التي يتم الاستمتاع بها أكثر بوجود الخمر. حتى بعد العشاء، استمرا في تناول الشراب. لم يكونا الوحيدين اللذين خرجا يتمايلان بفعل الخمر، لكن ربما كانا ثملين أكثر من الآخرين لأنهما كانا ضمن آخر من غادر الحفلة تحت ستار من الرطوبة الشديدة. كان الصمت يلف القرية باستثناء بعض أصوات الحشرات الطنانة القادمة من بعيد.

- أين السيارة؟

- كنت قد ركنتها في مكان ما هنا في الأعلى.

في البداية اندهشا من مدى صعوبة العثور على سيارتهما. فقد كان المكان مليئًا بالسيارات والشاحنات والكراجات، ناهيك عن العتمة وسخونة الليل اللزجة.

قالت دينيس وهي تثرثر حول جودة الطعام:

- من هنا، من هنا.

غالبًا ما تفعل ذلك عندما تفرط في الشراب، لا تتوقف عن الثرثرة من دون أن تدرك أو تكترث بأنها تكرر نفسها.

تبعها أنجلو غير واثق بخطواته. كانت الأضواء الصفراء باهتة ومتباعدة وبقع الظلام مثل مستنقعات كبيرة. لم يكن يفكر بوضوح. فجأة شعر بالغثيان.

- أين السيارة؟

تذمر وقد راودته أفكار سيئة:

- هل سأقود بهذه الحالة؟

تابعت دينيس الثرثرة من دون أن تدرك أنه قد تخلف عنها:

- خلف تلك الزاوية، على ما أعتقد!

انتظرته في الزاوية.

- في مكان ما هنا!

كانا على الرصيف، بين جدار حديقة وبضع سيارات متوقفة. في الأعلى ثمة مصباح ينير جزءًا وفيرًا من الرصيف. يبدو أن الضوء قد ضاعف من غثيان أنجلو.

قالت دينيس:

- ألم نركنها بالقرب من حديقة؟

لم يتمكن من الصمود. بالكاد تمكن من تفاديها حتى لا يصطدم بها. انفجر في موجة من القيء على الجدار والرصيف.

إجازة

عندما عاد من المدرسة ظن أن لا أحد في المنزل. كان الصمت يخيم على المكان. ثم لاحظ أن هناك شبح شخص في غرفة المعيشة. كانت والدته تشاهد التلفاز من دون صوت. سمعته يقترب فاستقبلته بابتسامة. سألها:

- أين نيكي؟

عادة ما يكون شقيقه الذي ينتهي من المدرسة قبله، في انتظاره كي يبدآ اللعب.

نهضت والدته عن الأريكة وذهبت لتغلق التلفاز. تبعها وهي تدلف إلى المطبخ، بدأت بتسخين الطعام الذي أعدته من أجله. عاود السؤال:

- أين نيكي؟

بعد المدرسة، دائمًا يتناولان الطعام معًا. بعد أن شرع في التهام البطاطس المحمصة وشريحة اللحم التي أعدتها له أجابته:

- نيكي ذهب مع أبيك، كي يستصدرا جواز سفر.

- وما هو جواز السفر؟

- بطاقة عليها صورتك وتاريخ ميلادك ومكان إقامتك، وبها تتمكن من السفر.

- وماذا سيفعل نيكي بجواز السفر؟

- سيصطحبه والدك في إجازة معه إلى روما في عيد الميلاد.

كما توقعت، فجأة امتلأ الصبي بالريبة، بدأ يلوك الطعام ببطء في فمه. كانت قد قررت ما ستقوله له منذ البداية في أثناء مشاهدتها برامج ما بعد الظهيرة على قناة RAI الإيطالية، وحيدة وعصبية، في انتظار وصوله. أخبرته بصراحة بما قد تقرر:

- في عيد الميلاد سيذهب والدك في إجازة إلى روما. لديه ابنة عم هناك، وسيأخذ نيكي معه، هذا ما اتفقنا عليه. أنت ستبقى معي.

قال أخيرًا:

- أنا أيضًا أريد الذهاب إلى روما مثل نيكي.

كان يتكلم بحزم وهو يمضغ الطعام ببطء، لدرجة أنها فهمت كل كلمة تفوه بها، لأنه غالبًا ما كان يتكلم بسرعة لا تتيح لها فهم كل ما يقوله. أجابته:

- أنت أيضًا ستذهب إلى روما، لقد اتفقت مع أبيك على أنني سأذهب لقضاء عطلة في روما في عيد الفصح. وسآخذك معي. أنت أيضًا عليك استخراج جواز سفر.

- لكني أريد الذهاب إلى روما في عيد الميلاد.

لم يُضِف شيئًا، لكنها فهمت ما أراد قوله؛ إنه لا يوافق على قرار ذهاب شقيقه الأصغر إلى روما مع والده. ما معنى هذا؟ أن والده يُفضل نيكي عليه؟ ربما كان والداه قد اتفقا على تقاسمهما؟ كانت تقرأ أفكاره لكنها ظلت مبتسمة كأنها لم تلحظ شيئًا. انفجر بالبكاء.

في عيد الميلاد، أصيب نيكي بنزلة برد شديدة، بالإضافة إلى الربو الذي كان يلازمه. لم يذهب مع والده إلى روما قَط. كما أن الزيارة التي كانت ستقوم بها الأم مع ابنها الأكبر في عيد الفصح دخلت في طي النسيان.

- 3 -

مغفلة

- لقد كنت مغفلة طوال حياتي!

واغرورقت عيناها ووجنتاها المتجعدتان بالدموع.

- كم كنت غبية ومغفلة!

لاحظ ما يشبه شهقة تتصاعد من فمها الشاخص للأعلى، لكن لم يصدر أي صوت من شفتيها.

- مغفلة! مغفلة! كم كنت مغفلة!

- لا تقولي ذلك دينيس، ليس صحيحًا، لم تكوني قَط مغفلة.

لم يدرِ ماذا يقول لها. شعر بخوف غريب وسخيف؛ خشي أن تدخل إحدى الممرضات وتسمعها تقول ذلك. شعر أنه قد أخطأ في المجيء بمفرده. ربما كان عليه أن يصطحب ابنتهما نينا معه.

شعر أنه سجين مثلها تمامًا في هذا المستشفى الضخم الجديد، لا سيما أن جميع النوافذ الكبيرة محكمة الإغلاق، والهواء المكيف يثقل الرئتين. لقد كان أسلافنا أفضل حالًا، إذ كانوا يُخرجون مرضاهم في الهواء الطلق ليعايشوا آلامهم.

نوبة الرعب التي انتابتها -ربما خوفًا من الموت الذي في طريقه إليها- هدأت قليلًا. أو ربما أرهقتها شدة الألم الذي مرت به لتوها، ذلك الألم الذي حين تشاهده، كما كان يفعل منتصبًا بجانب السرير، قد يبدو غير مخيف. لكن بالنسبة لها، بالتأكيد، كان عاصفة عارمة تهدر في الأعماق. خيم عليها هدوء عميق. الأدوية التي كانوا يعطونها لها تُحدث تغييرًا سريعًا؛ من الألم والذعر إلى الهدوء والسكينة. نظرت إليه بابتسامة غريبة في عينيها، كمن يصل إلى حكم نهائي حول ما حدث، وليس له ذنب فيه. الابتسامة لم تغادر عينيها، ولكنها لم تتجسد على شفتيها؛ لا يمكنها أن تبتسم كما كانت في السابق. كانت تنظر إليه مدركة تمامًا ما الذي يدور في ذهنه. للحظة ذكَّرته بوالدته منذ

زمن طويل، عندما كانت تصطحبهما في الصباح هو ونيكي حتى باب المدرسة، ولا تتوقف عن النظر إليهما بابتسامة متوترة، كأنهما شخص واحد «... لكنني أنجلو يا أمي، وهذا نيكي»، ثم تأمرهما بالتصرف بشكل لائق في الدقائق المتبقية قبل فتح بوابة المدرسة.

- هل جاءت نينا اليوم؟

- أجل، مع مارجون، غادرا قبل وصولك بوقت قصير.

- جيد.

- يأتيان لزيارتي مرتين في اليوم. ألم يخبراك بذلك؟

* * *

بعد انفصاله عن هيلين، صديقته الأولى، امتلأ أنجلو بالحزن -ظل يفكر فيها حتى بعد سنوات عديدة. في الأسابيع الأولى كان سعيدًا جدًّا معها. كانا يذهبان إلى الحفلات معًا، ويلتقيان في شقة أمه عندما تكون غير مؤجرة، وفي الأمسيات يعدان الطعام معًا ويأكلان معًا ويمارسان الغرام في هدوء. في البداية شعر أنه وجد شريكة حياته، إلى أن بدأت تلح عليه ليمضي جل وقته معها. في البداية، عندما انفصلا وأصبح حرًّا بمفرده، رغم أسفه للطريقة التي انتهت بها العلاقة، شعر أنه استعاد زمام روحه. ثم ما لبث أن خيم عليه حزن شديد. بدأ يشعر بالضيق والضياع، رغم أنه حتى وقت قصير كان يفكر كثيرًا في تركها.

هيلين كانت أكبر منه سنًّا (واحدة من سلسلة نساء تعلق بهن حتى بلغ سنًّا معينة، يبدو لأنها كانت تكبره سنًّا). كانت تمنحه كل ما يتوق إليه. صحيح أنها ضايقته، لكن لا بد أنه قد أغضبها جدًّا، إذ لم يكن هناك تفسير لتركها له فجأة من دون سابق إنذار.

* * *

رغب نيكي في الذهاب في إجازة. تمنى قضاء بضعة أسابيع في الخارج. لم يكن قد سافر قبل ذلك لمدة طويلة، وفي ذلك الوقت، كان الذهاب إلى لندن مغامرة باهرة بالنسبة للشباب. من المؤكد أن نيكي لم يرغب في الذهاب في

هذه العطلة للاستمتاع بالنساء اللاتي كان محاطًا بهن. لكنه كان يُفضِّل ألا يكون بمفرده، لذلك لم يذهب إلى لندن.

لم يتمكنا من نسيان تلك الرحلة التي استغرقت قرابة الشهر. في أوقات ماضية، عندما كانا مقربين من بعضهما، وحتى بعد أن أصبحا يكرهان بعضهما -نيكي من أصبح يكره أنجلو ويحقد عليه بسبب ما فعله- إلا أن الذكريات الجميلة لجولتهما في لندن ظلت حاضرة بقوة. كانا يتحدثان عن ذلك مع أصدقائهما ويختلقان قصصًا طويلة تزداد تعقيدًا على مر السنين، حول مغامراتهما هناك.

في أثناء وجودهما هناك حضر صديقهما باولو لزيارتهما. باولو كان يعلم كيف يستمتع بوقته. كانا قد عثرا له على مبيت بوجبة إفطار بالقرب من فندقهما.

بعد الغروب انطلقوا ثلاثتهم من شارع بيكاديللي الذي يعج بالمارة؛ بحثًا عن حانة صغيرة. نيكي بعد أن ثمل بالأمس، قال إنه لن يتناول سوى الماء. باولو لم يتوقف عن السخرية منه. تجولوا في شوارع سوهو وبدا كأنهم بحجة البحث عن مكان جيد للشراب، أرادوا التفرج على هذا المكان الصاخب.

عدا حاجته الماسة إلى كوب من الماء، كان نيكي يبحث عن مرحاض. كان على وشك التبول على نفسه. لكن الاثنين الآخرين تجاهلا شكواه، ففي النهاية، لم يتبقَّ لديهم سوى القليل من المال وأرادوا العثور على مكان يمنحهم بقدر ما يملكون من مال.

في أثناء تجوالهم شعر أنجلو بقشعريرة عندما لمح فجأة امرأة تمشي مسرعة أمام نافذة متجر في الشارع. ذكَّرته بهيلين وأخذت الذكرى شكلًا مريرًا؛ لو كانت هي معه هنا بدلًا من أخيه وباولو فماذا كانا يفعلان الآن، في هذه اللحظة؟ نفذت إليه الفكرة ككتلة لهب وهو ينظر إلى الحشود الهائلة في الطرقات الضيقة الرطبة. كانا ما زالا يغيظان نيكي الذي لم يستطع التحمل أكثر.

أخيرًا عثروا على حانة سبق لهم دخولها من قبل، وكانت قد نالت رضاهم. استراح نيكي ثم شرب ثلاثتهم، بعدها ذهبوا إلى مطعم صيني رخيص وأكلوا بشراهة. ثم أراد نيكي، بعد أن صحصح جيدًا، الذهاب إلى ملهى ليلي بعد أن أغلقت الحانات أبوابها. الملهى كان عبارة عن حفرة تحت الأرض عثروا عليها مصادفة. كانت تعج بالدخان والموسيقى الصاخبة والكثير من الشبان والفتيات. استغرب باولو عندما شاهد كيف بدأ يتصرف نيكي كأنه داخل مملكته، وكيف بدأت الفتيات الجميلات في التحلق حوله. أنجلو كان ما زال يصارع ذكرياته مع هيلين بقوة، والغريب أن هذه كانت المرة الأخيرة التي افترسته فيها ذكراها إلى هذا الحد.

في هذه الأثناء تعرف نيكي على فتاة طويلة ورشيقة باستثناء ساقيها العاريتين وثدييها الممتلئين. كانت ترتدي ثوبًا أحمر اللون ملتصقًا بجسدها. لسبب ما، إما لأنه لم يشأ أن يتركها، أو أنها لم تشأ أن تدعه وشأنه -فقد كان من الصعب معرفة ما يجري لأنهم كانوا جميعًا سكارى- وجد الأربعة أنفسهم على الرصيف خارج المرقص. باولو ظل صامتًا في انتظار ما سيفعله الآخرون. فتاة نيكي لم تكف عن تقبيله، ربما لأنها كانت ثملة أكثر منهم جميعًا. قال نيكي:

- من الأفضل أن نستدعي سيارة أجرة.

قال أنجلو:

- أنا سأعود مشيًا على الأقدام.

قال نيكي متفاجئًا:

- سيرًا على الأقدام؟ هل جننت؟

أجابه أنجلو وغادر على الفور:

- هناك موقف سيارات على مقربة من هنا.

في أثناء مغادرته سمع باولو يسأل:

- إلى أين هو ذاهب؟

غمغم نيكي بشيء لم يتمكن أنجلو من فهمه، لكن شقيقه الأكبر كان يعرفه جيدًا: إذا ما أدخل شيئًا ما في رأسه، فلن يثنيه أحد عنه. مشى أكثر من ساعتين حتى وصل إلى الفندق الذي يقيمان فيه. سلك بعض الطرق بالخطأ مرتين أو أكثر. عندما صعد إلى الطابق العلوي حيث غرفتهما كان منهكًا تمامًا. نيكي لم يقفل الباب من الداخل. عندما فتحه كانت الغرفة مظلمة ولكن أصوات التأوهات كانت مؤشرًا واضحًا على ما كان يجري.

عندما هَمَّ بالخروج سمع نيكي يناديه قبل أن يغلق الباب:

- أنجلو، أنجلو، إلى أين أنت ذاهب؟ ادخل، عُد إلى هنا.

غادر الفندق وأخذ يسير بلا هدى في شوارع ذلك الحي السكني في لندن، حيث بدأت أشعة الشمس تكسو الأرصفة والأسطح ببطء بضوئها الباهت البارد. الخمر التي تناولها في الأمس غادرته منذ فترة طويلة. استمر في المشي وعندما عاد إلى الفندق لم يكن متعبًا، توجه إلى قاعة الإفطار، تناول النقانق واللحم المقدد والبيض المقلي، والقهوة تلو الأخرى، ثم من خلال زجاج الباب شاهد امرأة شابة ترتدي ملابس حمراء تغادر الفندق.

بعد ذلك بقليل صعد إلى الطابق العلوي. سأله نيكي نعسًا:

- ماذا حدث لك؟

ثم فجأة بدا أنه تذكر شيئًا ما فنهض وجلس في منتصف السرير. ضوء الفجر المتسرب من النافذة غمر شعره المنكوش. حرك رأسه:

- ما الذي جعلك تغادر؟ أين ذهبت، لماذا لم تدخل؟ كم أنت أحمق! كان جسدها باهرًا، وتعلم جيدًا كيف تأخذك إلى عالم آخر.

كان يبتسم لأخيه رغم شدة الإرهاق والتعب.

- كم أنت أحمق!

- 4 -

خَرَف

التقى الرجلان عند مدخل الكهف الغربي، حيث عاش الناسك قرابة خمسين عامًا. الناسك الآن محني الظهر ويتعثر في خطواته، إلا أن عينيه ما زالتا حادتين ونظرته ثاقبة. على عكس أولاف الذي وقف أمامه عاجزًا كأنه لا يدري أين هو بالضبط. كان برفقته خادمان من كاتدرائية سلافية، كلاهما حريص على نجدته إذا ما واجهه خطب ما. وجهه أصبح مجعدًا ونحيلًا، وكانت تنتابه رجفات قوية في ذراعيه وعنقه.

نظر أحدهما إلى الآخر واقترب الكاهن من كبير الأساقفة لمعانقته. سأله أولاف بصوت ضعيف مسحوق:

- من أنت؟

ما جعل خادميه ينهمكان في حركات مبهمة وتافهة. لم يتمكنا قَط من التنبؤ بسلوك كبير الأساقفة الذي ينسى تمامًا كل ما قاله قبل بضعة أيام أو حتى يوم واحد، بل بعد سويعات قليلة.

أوقفهما منسونيوس بحركة خفيفة من يده. وقال له:

- اتبعني.

رغم ارتجافة جسده، استقام كبير الأساقفة أولاف ونظر إلى الناسك بابتسامة باهتة. هناك شيء ما في ترحيب الراهب يدفعه للتذكر. لكن ماذا؟ أطاع منسونيوس وتبعه إلى الكهف. جلس على صخرة مربعة في جانب الكهف حيث قاده الناسك، أشار منسونيوس إلى الخادمين بأن يبتعدا.

عندما غادر الخادمان الكهف وبقي وحيدًا مع كبير الأساقفة، جلس الناسك على صخرة أخرى مقابله. نظر أحدهما إلى الآخر بصمت. ثم بدأ الناسك يبتسم إلى أن انفجر بالضحك، كأنه كان على علم بجميع الأخبار التي انتشرت في جميع أنحاء كلاتونيا -حول إصابة أولاف بالخرف وكيف أصبح عقله لا يتذكر شيئًا كعقاب له على قسوته. سأله:

- هل حقًّا لا تتذكرني؟ فقد قيل لي إنك أنت من سعى لمقابلتي للمرة الأخيرة.

حدَّق كبير الأساقفة في الناسك تائهًا. وجهه يشبه قطعة من الجص. فجأة سقطت دمعتان كبيرتان على خديه. ارتجفت شفتاه وسرت في صدغيه نوبة من الارتعاش.

* * *

- كم أنا سعيد بلقائك جوزيف! كيف تذكرتني هذا اليوم بالذات؟ قل لي كيف؟ لقد كنت أفكر فيك كثيرًا مؤخرًا.

- ولكن... ألا، ألا تعرفني؟

- أجل، كنت أفكر فيك يا جوزيف. منذ وقت قصير، هذا الصباح. كيف علمت بذلك؟

* * *

كانت الحجرة مضاءة من خلال النافذة المطلة على الحديقة، وجهاز التلفزيون الذي لا يتوقف عن العمل في منزلها. اليوم، كما في الأسابيع والأشهر والسنوات الأخيرة، تشاهد التلفاز من دون أن تعير أي انتباه لما يعرضونه أو يقولونه، المهم أن يكون موجودًا. بدت راضية وعلى ما يرام، ربما لأن الممرضة التي تعتني بها كانت حريصة على مكيجتها في كل صباح. جلس بجانبها واستمرت في الثرثرة، تارة تحدق إليه، وتارة إلى النافذة التي تطل على الحديقة، وتارة إلى التلفاز، وتارة أخرى في المجهول البعيد.

- جوزيف، أنت من أساء التصرف في ذلك اليوم. لم يكن عليك القيام بذلك. لكني أدركت أنك قمت بما قمت به من أجلي. لا تسألني كيف علمت، لكني أدركت على الفور.

- حتى أبي أدرك ذلك، لذلك غضب منكِ كثيرًا. وبعد ذلك، كما أخبرتكِ، غضب مني أيضًا. (توقف عن الكلام).

- جوزيف، دعنا نعود إلى الحديقة. سأدعك تقبلني. ألا ترغب في ذلك؟ لماذا لا ترغب؟ سأدعك تلمسني كيفما تشاء، حتى هناك، لكن تعالَ معي. لماذا لا

ترغب في المجيء؟ بعدها سنغني معًا، ألا يروقك ذلك؟

أزال يدها عن فخذه بتململ. حاولتْ إعادتها مرة أخرى فأبعدها من جديد. كان يعلم أن حديثه مجرد هراء، ولكن في كل مرة يحضر لرؤيتها، يبرز السؤال من بلعومه مرة أخرى: «ألا تعرفني؟».

سحبت يدها فارغة مثل نظرته، ثم حدقت في التلفاز. لم تنبس ببنت كلمة طوال جلوسه بقربها.

ستيفنوس من ناكور

كان السلطان نيريكو وكبار قادته قد غادروا مدينة سلافية منذ شهرين. قسم كبير من الجيش توجه إلى أقاصي شمال كلاتونيا، لمواجهة الهجوم المتوقع من خلف الجبال الشمالية من قبل النورمانديين بمساعدة الخائن تيليموس. لمواجهة الهجوم المحتمل، وضع نيريكو خططه وفقًا للحملات التي قادها جده السلطان توماس بنجاح كبير. وصل قبلهم. أراد أن يقتحم أراضيهم ويهاجمهم في عقر دارهم.

قبل ذهابه للحرب، عين السلطان نيريكو مجلسًا مكونًا من ثلاثة أشخاص لتسيير شؤون مملكة كلاتونيا طوال فترة غيابه. تألف المجلس من زوجته الملكة إيرين، والمستشار الأكبر للدولة عم السلطان نيريكو؛ العجوز لوريس المثقل بالسنوات لدرجة أنه يمشي منحنيًا كالخطاف، وكبير الأساقفة أولاف، وهو محارب شديد البأس، وقد تمنى على الملك أن يصحبه معه في هذه الحملة العاتية التي لم يرغب فيها أحد بالتأكيد. كان الجميع يتوقع سنين من السلام والدعة بعد الحروب الأخيرة، وهذا ما كان سيحدث لو لم يَبِع تيليموس نفسه للنورمانديين.

كان كبير الأساقفة أولاف ينتظر بفارغ الصبر أخبار الحملة التي يقودها السلطان نيريكو في الغابات والأدغال الشمالية؛ تمنى لو كان معهم. كلما تأخر وصول الأخبار، ازدادت أعصابه توترًا. في كل صباح في أثناء القداس في الكاتدرائية الذي كانت تحضره الملكة إيرين مع نساء كبار نبلاء البلاط الذين غادروا برفقة السلطان نيريكو، كنت تجد كبير الأساقفة أولاف مرتديًا ملابسه

المقدسة، يضغط بشدة على مقبض سيفه الثقيل المتدلي من خصره حتى في أثناء الصلاة في القداس، أو يروح جيئة وذهابًا تحت أشجار اللوز المتشابكة في الفناء الخلفي الكبير للكاتدرائية.

قال له سكرتيره الخاص:

- حضر قس شاب يلح في مقابلتك يا سعادة كبير الأساقفة. لم نستطع التخلص منه.

- اجلدوه ثم قدموا له وجبة جيدة، وأعيدوه من حيث أتى.

- تعامل الحراس معه بالخشونة المعتادة، لكنه لم يتزحزح. قال إن الناسك منسونيوس هو من أرسله.

استدار كبير الأساقفة أولاف فجأة نحو السكرتير وسأله:

- هل هو كاذب؟

- لا أدري سعادتكم.

- دعه يدخل.

أحضروا أمامه شابًّا نحيفًا طويل القامة، ذا بشرة فاتحة، كأنه لم يرَ الشمس من قبل. كان يرتدي رداء قس تلميذ في مدرسة الرهبنة البينديكتية، أقدم وأكبر المدارس الرهبانية المتبقية في البلاد. كان هناك خيطان رفيعان من الدم على خده الأيمن وكدمة كبيرة على جبهته، لكنه بدا هادئًا وعيناه متيقظتان. سأله كبير الأساقفة أولاف:

- من أنت؟

صوت أولاف كان صارمًا ومجلجلًا يلقي الرعب بكل من يلتقي به وجهًا لوجه لأول مرة. لكن الشاب ظل هادئًا.

- أنا ستيفنوس من ناكور يا كبير الأساقفة، وقد أرسلني الناسك منسونيوس.

- إن كنت حقًّا برفقته وواكبته عن كثب، فلا بد أنك تعلم أحواله. صف لي إذن كيف هو.

من دون أدنى تردد، قدم الشاب وصفًا دقيقًا للناسك الذي لم يكن يسمح لأحد برؤيته إلا من رغب هو في مقابلته. كان الوصف دقيقًا للغاية، أو هذا ما ظنه كبير الأساقفة على الفور. ذكر الشاب تفاصيل طفيفة لا بد أنها طرأت على مظهر الراهب خلال السنوات الخمس أو الست الماضية التي لم يلتقيا بها. بإيماءة خفيفة من رأسه، أشار كبير الأساقفة إلى سكرتيره والحراس بأن يدعوه بمفرده مع الشاب.

- ماذا يريد مني منسونيوس؟

أخرج الراهب الشاب من حزامه لفافة جلدية لها رائحة كريهة. سلمها لكبير الأساقفة أولاف. كانت رسالة من الناسك.

قرأ كبير الأساقفة:

«منذ أن التحق بي في العام الماضي، قمت بتمحيصه بنفس المقاييس التي محصتك بها خلال الأشهر الأولى التي أمضيتها معي في الكهوف والمغارات المطلة على السهل أسفل التل. عندما التقينا آخر مرة، عند مدخل الكهف الغربي، أخبرتك أن قدرك ليس أن تكون راهبًا، بل محارب جليل وأمير بين الكهنة.

هذا الشاب لديه موهبة لا أدري كيف أصفها ولا كيف حظي بها. لا شك أنها من الخالق الوهاب وليست من الشيطان. لديه ذاكرة خارقة، ويجيد تلك اللغة المنسية التي كانت تتحدث بها إمبراطورية مورا، قبل أن تتقطع السبل بكلاتونيا ويتكالب عليها البرابرة.

هل تتذكر كم أمضينا من الوقت -عبثًا- نحاول فهم تلك المخطوطات التي أحضروها لنا من أقبية دير مرسارا؟ كانت مكتوبة بتلك اللغة المنقرضة التي كان يتحدث بها أباطرة العالم. هذا الشاب يتقن الكثير من معاني تلك الكلمات. فقد فسرها لي.

افعل ما أقوله لك: اجمع كل معاني الكلمات التي يعرفها، واصنع معجمًا يمكننا من خلاله فك طلاسم ماذا كانت تقول تلك المخطوطات التي تركها

أسلافنا وما زلنا حتى يومنا هذا، لا نفهم فحواها».

قرأ كبير الأساقفة أولاف رسالة الناسك أكثر من مرة. لم يكن لديه أي شك في أن الرسالة كانت حقيقية. ذكر الراهب منسونيوس أشياء لا يعلمها سواهما، كما حدث في اللقاء الأخير بينهما. لكن الأخبار التي يحملها هذا الشاب تركته بلا أنفاس: هل سيكتشفون أخيرًا أسرار الماضي؟ لاحظ أن الشاب كان يرمقه بنظرة فاترة ولكن متيقظة.

* * *

«أول هدية قُدمت لي عندما كنت صغيرة، أقصد ليس في المهد؛ كانت قاموسًا». (دينيس تتذكر). «حاولت أن أجد أي شيء من شأنه أن يثير فضول هذا الخسيس».

«هل تظن أنه يمكنها التلاعب بي؟ ألم يسبق حقًّا؟ تهانينا»، (أنجلو يتذكر): أن أخبرتها بقصة ماريلا، أم كانت أنتونيلا؟».

* * *

«حيواتنا ليست مثل قصة، حتى وإن كانت لها بداية فهذا لا يعني أنها ستكون لها نهاية. كل قصة لها مغزى بطريقة أو بأخرى. الراوي يختار ما يريد قوله كي يعطيها مغزى. لكن هذا ليس بالضرورة صحيحًا، لأن حيواتنا مؤلفة من خيوط قد لا تلتقي أبدًا. وهي مليئة بهذه الخيوط اللا متناهية. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فكيف سنعطيها ترتيبًا؟ وهل يجب أن نضعها في ترتيب ما في نهاية المطاف إذا لم يكن لها أي نسق أصلًا؟ لأنها في النهاية، كأي أشياء تطفو فوق سطح الماء من دون أي شكل معين، قد تطفو لبعض الوقت أو لفترة أطول، وهذا يعتمد على حركة المياه حيث علقت.

قد يتسنى لنا منحها ترتيبًا ما؛ ربما عن طريق وضعها بالقرب من بعضها وفقًا لتلاصق الأحداث، مثل ترتيب البطاقات البريدية التي تلقيناها وفقًا للبلد الذي أرسلت منه، أو مثل شخص يرتب الأكواب والأطباق وأدوات المطبخ على الأرفف حسب العلامة التجارية، أو وفقًا للترتيب الأبجدي كما في القاموس.

عندما تنظر إلى خيوط حياتك وتعقيدات حياة الآخرين، لا تتوقع أن تجد حكاية لها معنى مفهوم، أو بداية واستمرارية ونهاية معقولة، بل محصلة خيوط تَصَادَف أن تكون مرتبطة ببعضها البعض وفقًا لقاعدة هي في الواقع مصطنعة أو تعسفية. ولكن هذا في حد ذاته قد يكون شكلًا آخر لسرد الرواية».

(أنجلو دي بونو في أثناء مداخلة في برنامج: «من الحرم الجامعي. إف إم»، حول سبب عدم نشره رواية جديدة منذ مدة طويلة - 16 أغسطس 2010).

- 5 -

إيميل

لمحه قادمًا من بعيد يسير وسط الحشد عبر الطريق نحو بوابة المدينة. لا بد أنه يعرفه. رجل قصير ونحيف، يرتدي جاكيتًا وربطة عنق أنيقة، وله شاربان رماديان صغيران مثل لون شعره القصير ورأسه الصغير. بدا أن الرجل أيضًا، في أثناء اقترابه، بدأ بالتعرف عليه. تُرى من يكون؟ ولكن بمجرد أن تقابلا وجهًا لوجه تذكره. فاجأته الذاكرة كلطمة في الأذن -كم استغرق من الوقت لتذكُّر من هو؟

- أنت والد باولو!

رحبا ببعضهما من دون رفع الكلفة بسبب فارق السن من جهة، والطريقة التي يفكران وينظران بها إلى الحياة، وكل حسب اهتماماته من جهة أخرى. إذا كان لوالد باولو أي اهتمامات أخرى غير الأسرة، التي غادرته الآن تمامًا، كان سيقول: «منذ أن توفيت زوجتي».

هنا أيضًا، شعر بغصة خفيفة. لم يكن يعلم أن والدة باولو قد توفيت. حاول أن يختلق عذرًا بأنه كان مسافرًا لذلك لم يتمكن من حضور الجنازة. سمعه الرجل العجوز، ابتسم ابتسامة دميثة تحت شاربيه الرفيعين اللذين ظلا كما يتذكرهما، باستثناء أنهما أصبحا رماديين تمامًا.

- كيف هي أحوالك؟ هل ما زلت تعمل مع الحكومة؟ وهل ما زلت تكتب؟ اعذرني لأني لا أواكب ما يحدث في الأدب المالطي.

سرعان ما تحول الحديث حول باولو. قال أنجلو:

- لم أتلقَّ أي أخبار منه منذ أن نقلوه من ساو باولو. العنوان الذي كان بحوزتي لم يعد صالحًا، حتى الإيميل الذي تراسلنا عبره آخر مرة يبدو أنه قد تغير. منذ هذا الوقت لم يكتب ولم يخبرني عن مكان وجوده أو بريده الإلكتروني الجديد. هل عاد في إجازة خلال الثلاث سنوات الماضية؟

أجاب الرجل العجوز:

- لا. أحيانًا يذكرك. دائمًا يطلب مني الذهاب لرؤيته، لكن انظر إلى سني! صحيح يمكن لأحد الأبناء أو الأحفاد مرافقتي، كما يخبرني باولو، ولكني لا أملك الشجاعة.

- ألا يرغب في سماع أخبار أصدقائه بعد الآن؟ لم أسمع منه منذ عامين على الأقل.

- لا لا، أين ذهبت بعقلك؟ بالتأكيد سيسعد بالحديث إليك. إنه سعيد جدًّا في مكانه الجديد، فقد أرسلوه إلى مدينة بيلو الشمالية، في منطقة مليئة بالفقر والمشكلات الاجتماعية، لكن هذه كانت دائمًا رغبته. وقد استجابوا أخيرًا لرغبته.

بدأ الرجل العجوز لبعض الوقت يثرثر حول دور ابنه في مساعدة فقراء المدينة، بدا حريصًا على إعفائه من أي تقصير تجاه أصدقائه القدامى في مالطا. ثم قال:

- هل تريد أن أعطيك إيميله الجديد؟ هكذا ستعثر عليه بسرعة. يقال الآن بأن هناك طريقة على الإنترنت يمكنك من خلالها رؤية من يحدثك على الشاشة. هل تريد إيميل باولو الإلكتروني؟

أجاب أنجلو بلا تردد:

- أجل.

فقد مضى وقت طويل لم يتواصل فيه مع صديقه، كأنهما نسيا بعضهما تمامًا. الآن بعد أن التقى مع والده وعرف بعض أخباره، تجدد حنينه نحو صديقه باولو وتوقه لسماع أحواله. أخرج الأب قصاصة ورق وقلمًا من جيب سترته وبدأ يكتب واقفًا كما كانا في منتصف الحشد -بعضه متجه نحو باب المدينة، وبعضه الآخر في الاتجاه المعاكس. فجأة راودته ذكرى مريرة: هذا الرجل لم ينذر نفسه تمامًا للأسرة. ففي إحدى المرات عثر باولو على فيديو إباحي في متعلقات أبيه وشاهده كلاهما أكثر من مرة على تلفاز والدة أنجلو القديم.

الرجل العجوز أصيب برعشة خفيفة في كلتا يديه، تلك التي تمسك بالورقة، والأخرى التي تمسك بالقلم الذي أفلت من يده وتدحرج جانبًا. انحنى أنجلو ليلتقطه وكاد شابان يمشيان متعانقين أن يتعثرا به. بكل هدوء تابع والد باولو كتابة العنوان، حرفًا بعد الآخر، فيما حاول إخفاء الرعشة التي بدأت تزداد كلما حاول الكتابة.

إسبرسو

في كل مقهى أو مطعم يذهبون إليه لتناول شيء ما ينفجر الابنان في صيحات مرحة:

- إسبرسو، إسبرسو.

نعم، هذا ما كانا يطلبانه. وبطريقة ساذجة، اعتقدا أن النكتة مضحكة حقًّا. كانا يتنافسان ويتجادلان حول من يصرخ بصوت أعلى: «إسبرسو، إسبرسو». في البداية، كانت دينيس توبخ مارجون. وهذا كان يثير نينا أكثر، فيتابع الاثنان الصياح: «إسبرسو، إسبرسو»، كما فعلا هذه المرة أيضًا وهما يضربان بأيديهما على المائدة، حتى عندما اقترب نادل الكافيتريا وحدَّق بهما ببرود، أدركت الأم أنها تبالغ جدًّا في نهرهما، حتى إنها بدأت تضحك لشقاوتهما الصغيرة.

- إذن، هما متفقان معك.

قال لها:

- يبدو أن روما تعجبهما حقًّا.

سألت نينا وسرعان ما انضم إليها مارجون في السؤال:

- أين حديقة الحيوانات؟

قبل أن تتوتر دينيس مرة أخرى، تدخل هو:

- إنها هنا في روما، وهناك الكثير من الأماكن المذهلة التي يمكن زيارتها عدا حديقة الحيوان.

وصلت البوظة التي طلبوها والتهى الولدان بتناولها. بدآ بالحفر بالملعقة في الكؤوس الزجاجية المزينة بكرات كبيرة من البوظة باللونين الأصفر

والأرجواني من دون أن يتوقفا عن استراق النظر إلى أكواب الآخرين من وقت لآخر، كي يتأكدا أن حصتهما لم تقل عن حصة الآخرين. الكافيتريا التي كانت في الهواء الطلق ومكتظة بالناس، ومن حسن حظهم أنهم عثروا على مائدة تحت مظلة لأن الساحة المزدحمة بالزوار كانت مغمورة بأشعة الشمس الحارقة التي لا يبدو أنها تنوي التواري. نينا ومارجون أمضيا وقتًا طويلًا يركضان حول النوافير وخلف الحَمام، ويلتقطان الصور تحت تماثيل لرجال ملتحين بعضلات مفتولة، قالت نينا بابتسامة خبيثة وبذيئة:

- انظر، لديه مؤخرة كبيرة. يمكنني الوقوف بمؤخرتي مكشوفة مثله في هذا الحر الشديد.

تركها تثرثر فالتفتت إلى شقيقها ثم إلى والدها في محاولة لإقناعه بشراء بعض اللعب والدمى المعروضة على قطعة قماش على الرصيف تعود إلى بعض الأفارقة، ولإغراء الأطفال يطلقون بطة بلاستيكية صفراء تتمايل ذهابًا وإيابًا في الساحة تحت أرجل السياح، وأحيانًا تطير قليلًا. دينيس كانت تتناول القهوة في انتظارهم تحت المظلة، وهو ما شجَّع الولدين لحظة عودتهما إلى مائدة أمهما للبدء مرة أخرى بالصراخ:

- إسبرسو، إسبرسو.

دينيس بذلت قصارى جهدها لإخفاء المشكلة، إلا أنها لم تكن في حالة مزاجية جيدة. كانت في دورتها الشهرية ولم تكن تشعر أنها على ما يرام، ولكن هذا وحده لا يبرر هذه الكآبة. آلام البطن التي استمرت ليوم ونصف اختفت لكنها ما زالت تشعر بعدم الراحة. ففي النهاية، كانوا قد جاءوا لقضاء هذه العطلة في روما، مدينتها المفضلة، وفاء لوعد كانا قد قطعاه لبعضهما منذ مدة طويلة؛ كانا قد ذهبا لقضاء شهر العسل في لندن، مدينته المفضلة، واتفقا أن أول سفرة قادمة مع الأولاد ستكون إلى روما. وها هما الآن يفيان بالوعد. لماذا هي في حالة مزاجية سيئة إذن فيما يسعد ابناهما بهذه التجربة؟ بذل قصارى جهده كي لا يثير هذه المسألة، لأنها لن تتفهمها أبدًا.

إذن ما الذي يعكر صفوها؟ هل تشك في أمر ما؟ بأنه يقابل إيرين كل يوم خميس مثلًا؟ ما زال يشعر بالذنب تجاه ذلك. كانت المرة الأولى التي يخونها فيها، رغم أنه بمرور الوقت بدأ يدرك أنها لن تكون المرة الأخيرة. كان مقتنعًا تمامًا بأنها لا تعلم شيئًا بشأن إيرين. ربما هي أيضًا كانت تواعد شخصًا آخر وغير سعيدة هنا من دونه، حتى وإن كانت تعشق روما كثيرًا. كانت مهمة شاقة لإقناعها بقضاء شهر العسل في لندن، ولكن لا، قرر أن أعصابها لم تكن متوترة لأنها جاءت إلى هنا من دون عشيقها، لأنه لم يكن هناك عشيق أصلًا.

لذا كان عليه العودة إلى الفكرة التي ذكرها لها مرارًا وكانت ترفضها على الدوام. فقد كانت انخرطت في أعمال والدها وعمها؛ وقد أحسنت صنعًا، كي لا تترك أبناء عمومتها يستولون على كل شيء. ففي النهاية، كان والدها مَن تفانى في العمل على مدار العقدين الماضيين. ولكن لم يكن ينبغي عليها أن تدع العمل يستحوذ عليها. كان عليها أن تفعل مثله، كما يقوم بعمله كمهندس معماري حكومي بإخلاص، من دون أن يدع العمل يتملكه. في الأشهر القليلة الماضية لفت انتباهها لكنها كانت تبتسم أو تنزعج حسب مزاجها، لكن الإجابة بقيت دائمًا نفسها: «أنت لا تدرك ما الذي تقوله». لأنها كانت تستمتع بالعمل -رغم أنه -وفقًا لما كان يعتقد- كان يرهقها جدًّا.

لاحظ أنها تنظر إليه من خلف ابنيهما المنهمكين في التهام البوظة، سألته:

- ما الذي تفكر به؟

- هل هناك حديقة حيوانات في روما؟

ضحكت بحرارة.

- صدقني، لا أدري! لماذا؟

- لأن هذين الشيطانين يرغبان في زيارة حديقة الحيوانات، وبما أننا أحضرناهما إلى هنا، فعلينا أن نجد لهما واحدة. نصطحبهما بعض الشيء ونغادر على الفور.

ثم خطر بباله شك جديد، أضاف:

- هذا إن سمحا لنا بالمغادرة.

كانت ما زالت تضحك:

- ربما أنت على حق.

مارجون بقي غاطسًا في كأس الآيس كريم ولكن نينا رفعت رأسها عندما سمعتهما يتحدثان. مارجون التهم كل قطعة آيس كريم في كأسه، بدأ في النقر على الكريستال:

- إسبرسو، إسبرسو.

خارج المظلة كانت الساحة تفيض بضوء الشمس مناقضة ظلال بعد الظهيرة في هذا اليوم المشمس من بداية الصيف. الناس في كل مكان.

- هل سنذهب إلى حديقة الحيوانات؟ هل سنذهب إلى حديقة الحيوانات؟

نظرت دينيس إلى ابنيها ثم إليه وهزت رأسها:

- بما أنك عشَّمتهما بذلك فعليك التصرف.

وبَّخته بابتسامة منفرجة من طرف فمها حتى الطرف الآخر.

مارجون ظل منهمكًا في لعق ما تبقى من البوظة في كأسه، عندما انتهى بدأ في النقر على الكأس الفارغة:

- إسبرسو، إسبرسو.

* * *

- 6 -

مقصلة

بعد عدة أيام من إعدام تيليموس اقتيدت إيرين إلى حبل المشنقة.

اقتادوه إلى ساحة سلافية الرئيسة حيث اجتمعت حشود كبيرة وأعدموه أمامهم. كان هزيلًا وقذرًا ومليئًا بالجروح والكدمات. عندما كان يُقاد إلى المقصلة وفي أثناء إعدامه، تعالت الضوضاء والصرخات من الحشود حتى غطت على أصوات الطبول التي كانت تُقرع بلا هوادة بإيقاع رتيب.

أما هي فقد اقتيدت إلى إحدى الساحات الكبيرة خلف قلعة الملك حيث اجتمع حشد كبير من النبلاء وفرسان كلاتونيا، وانضم إليهم ممثلو الأديرة الكبيرة. في أثناء التنفيذ ساد صمت شديد لم يقاطعه سوى صوت ما كان يحدث لها على المقصلة.

بخطى موحدة، تقدم موكب من الرهبان والراهبات المغطاة وجوههن. في المنتصف سارت السلطانة السابقة إيرين. كانت حاسرة الرأس وقد حلقوا شعرها، حتى شعر حاجبيها. لم تنظر إلى أي شيء في أثناء تقدمها إلا إلى ظهر الراهب الذي كان يتقدمها. عندما وصلوا إلى المقصلة صعدت الدرجات إلى المنصة من دون مساعدة من أحد، حيث كان جلادان في انتظارها. اقترب منها أحد الكهنة الذي كان ينتظر جانبًا. أخفضت رأسها واستمعت إلى ما قاله ولهنيهات رددت بعض الصلوات خلفه. بعد ذلك أفسح المجال للجلادَين كي يتوليا أمرها. عندها فقط شخصت إيرين ببصرها للأعلى ونظرت إلى النوافذ الضيقة الممتدة على جدران مباني الفناء. ثم ألقت بنظرتها إلى الأسفل مرة أخرى.

أحد الجلادين جذبها من كتفها فجأة ومزق ثوب الرهبانية الذي كانت ترتديه. في هذه اللحظة سُمعت أصوات غير صوت تمزق الثوب الذي أُلقي به على الأرض. اختلطت تنهدات الفرسان والنبلاء المحتشدين مع زفير الأشخاص

الذين أخذوا الشهيق للتو. الأنظار كانت منصبة على إيرين وهي تواجه أقصى عقوبة في كلاتونيا.

الجلاد الآخر ربط ذراعَي السلطانة العارية فوق رأسها بجذع خشبي سميك، فيما تقدم الجلاد الآخر نحوها بسوط من الجلد. أخذ يجلدها بقوة على ظهرها حتى بدأت تنزف. خيم صمت تام على الحشد.

ربما لم تكن إيرين تعاني بالقدر الذي بانت عليه. فقبل وقت قصير من قدومهم لجلبها إلى هنا، انفتح باب زنزانتها ودخل رجل يرتدي زي زبانية السجن. أخرج زجاجة صغيرة من جيبه فيها بعض السائل وقال لها: «اشربي». ابتعدت مرتبكة ومذعورة. «اشربي»، قال لها مرة أخرى وهو يقدم لها الزجاجة ثم ذكر لها اسم من أرسل الزجاجة. بعد تردد قامت بفعل ما طُلب منها. كان السائل ثقيلًا لكن بلا مذاق. عندما ابتلعته شعرت بوخزة لاذعة في فمها لكن سرعان ما تبددت.

في النهاية توقف الجلاد عن ضربها بالسوط وقام مع شريكه بحل الملكة المضرجة بالدماء عن الجذع الخشبي، ثم جرَّاها إلى مائدة مستطيلة مكونة من لوحين عريضين بارتفاع ركبتيهما ومداها بينهما، وجهها للأعلى، ورأسها خارج حافة المائدة. كان بإمكان الجميع رؤية الضحية مضرجة بالدماء وبلا حراك حيث ألقيا بها. لاحظ الجميع انتفاخ بطنها بسبب الجنين الذي كانت تحمله. رفع الجلاد سيفه الكبير وبحركة سريعة قام بفصل رأسها عن جسدها. عندما تدحرج الرأس المقطوع على الأرض، أمسكه بكلتا يديه كي لا ينزلق منه ورفعه للأعلى حتى يتسنى لجميع الحاضرين رؤيته.

في هذه الأثناء، قام الجلاد الآخر، ممسكًا بسكين كبير في يده، بتثبيت الجثة حتى لا يتطاير الدم خارج الألواح. وعندما خف تطاير الدماء، غرز السكين في بطنها وشقه. ثم أدخل يده في الأحشاء الساخنة وجذبها بقوة. استدار نحو الحشد ليريهم ماذا يحمل في يده.

تنحى الجلادان جانب المقصلة، أحدهما يحمل رأسها، والآخر يحمل أحشاءها. تقدم الحراس وأزالوا الغطاء عن كومة حطب ضخمة أُعدت سابقًا.

ألقى الجلادان بما كانا يحملانه فوق كومة الحطب. ثم عادا إلى الجثة بسرعة وقطَّعاها بمهارة جزارين خبيرين. ألقيا بالقطع فوق كومة الحطب وفور انتهائهما من مهمتهما، أضرم الحراس النار في الحطب.

بعد تصاعد الدخان القاتم من كومة الحطب، بدأ الحشد الذي تابع كل ذلك في صمت تام بمغادرة الساحة. في الوقت ذاته، خلف إحدى النوافذ الضيقة المطلة على الساحة، كان هناك رجل طويل القامة يرتدي ثوبًا كَنَسيًّا يراقب كل شيء من البداية حتى النهاية.

بخطى ثقيلة غادر كبير الأساقفة أولاف قلعة الملك وذهب ليعتزل في غرفته في دير الكاتدرائية. رحلت إيرين من دون أن تتفوه بكلمة عما حل بستيفنوس من ناكور الذي كان يترجم نصوص إمبراطورية مورا إلى اللغة الكلاتونية، والذي اختفى تمامًا. لم تتفوه بشيء سوى...

كان الحراس قد كدسوا كوم الحطب بقرب المقصلة، مما أدى إلى تطاير بعض الشرارات التي أشعلت بدورها النيران فجأة في منصة المقصلة بأكملها. لم يتمكنوا من إيقاف النيران وأصبحت المقصلة جزءًا من حريق هائل اجتاح الفناء الخلفي من القلعة.

لكن حتى قبل أن يتفرق الجمع الذي شهد إعدام إيرين، بدأت تسري الشائعات: أسرة إيرين وجميع أقاربها وهم من أنبل العائلات والفرسان في سلافية لم يحضروا. لم يتوقع أحد منهم أن يفعلوا ذلك، حتى لو تم تسليمهم دعوة وفقًا للقوانين التي سنها السلطان توماس لحماية كلاتونيا. والغريب في الأمر أن قصر العائلة ظل مغلقًا. يبدو أن حراس الأسرة قد اختفوا. جميعهم غادروا سلافية. إلى أين فروا؟ لا أحد يعلم.

جنازة

رغم أن الكنيسة كانت مكتظة بالناس، فإنها كانت باردة ورطبة. لم يتوقف المطر لحظة واحدة. كما أنه وصل متأخرًا. الطرق التي سلكها إلى البلدة كانت مليئة بالحفر والوحل والمياه. دخل من الباب الجانبي ووقف مع الواقفين بالقرب من نصب المعمودية. تفاجأ بالعدد الغفير من الحضور. عُرف

البروفيسور بمكانته المهنية، وبأنه كان ودودًا ومستعدًّا لمساعدة الجميع. كانت علاقة أنجلو به ممتازة حيث تعلم منه الكثير؛ أسلوبه الدمث في الانتقاد، أو في التهنئة على عمل جيد، بل حتى عندما يسدي لك معروفًا أو يطلب منك خدمة ما. بعد أن أنهى دراسته كطالب، لم يلتقِ به كثيرًا، ربما مرة أو اثنتان في السنة، إن لم يكن أقل -مهما تعاقب الزمن، في كل مرة كان يلتقي به كان يشعر أنه يلتقي بصديق حميم.

ربما لهذا السبب جاء كل هؤلاء المعزين الذين ما زالوا يتوافدون من الباب الجانبي للكنيسة مالئين ما تبقى من الحيز حول نصب المعمودية. لكن البروفيسور لم يكن طبيبًا أو محاميًا، لكنه كان رئيسًا للعديد من جمعيات البلدة التي عاش فيها طوال حياته، وللأندية والفرق الموسيقية ونوادي كرة القدم ولجان الاحتفالات والألعاب النارية، والعديد من الجمعيات الدينية... لم تعرف البلدة شخصًا مثله، وكان لديه العديد من الأبناء.

رائحة الملابس المبللة بدأت تتزايد مع دخول المزيد من الأشخاص. في الخارج، تزايدت حدة سقوط المطر الذي أمكن سماعه بوضوح كلما فتح أحد الحضور المتأخرين ستارة الباب الثقيلة. كان يُسمع صوت اصطدامه بالنوافذ المرتفعة المغلقة والمنتشرة حول قبة الكنيسة.

القس -كاهن عجوز وهو ابن عم البروفيسور- تمادى طويلًا في عظته. أخذ يكرر حججه اللاهوتية حول كيف سيصطفي الله الأبرار من الأشرار من خلال عدالة ليست دنيوية، بل سماوية. كرر نفسه عدة مرات من منظور مختلف، كلها تشبه سابقاتها. لم يدرك أن الحشد لا يعبأ بما يقوله وأن الجميع أصابه الضجر. الكل كان يفكر فيما ينتظره من عمل خارج عتبة الكنيسة. لكن الكاهن وجد نفسه أمام جمهور غفير ولم يستطع مقاومة إغراء إلقاء خطبة عصماء كان يتوق إليها منذ زمن طويل. أنجلو كان في غاية الضيق. بدأ يتفرس بمن حوله. الجميع كان ضجرًا ومتضايقًا، إما بسبب برودة الطقس، وإما بسبب كآبة العظة التي كان يلقيها القس، أو هكذا ظن أنجلو. حاول تَصَيُّد بعض الجميلات، لكن لم يكن هناك الكثيرات منهن.

فجأة أصيب بصدمة هائلة. نظر إلى جانبه فرأى رجلًا يكاد يلامسه؛ واحد من الذين وصلوا للتو من تحت المطر في الخارج. كان يرتدي معطفًا مشدودًا قليلًا ونظرته مثبتة على المذبح، ولكن يبدو أنه قبل ذلك كان يحدق في أنجلو. نيكي؟

لم يلتقيا منذ مدة طويلة، شهور؟ سنوات؟ لا يمكنه الجزم ما إذا كان نيكي قد لاحظه. كانا تقريبًا متلاصقين. لم يدرِ حقًّا ماذا عليه فعله بعد هذه المفاجأة الهائلة. تمنى أن ينظر إليه، أن يحييه، وأن يتجاذبا أطراف الحديث. لكنه خشي أن يتظاهر شقيقه بأنه لا يعرفه.

انتهت العظة وتابع القداس طقوسه. أنجلو ظل متوترًا. كان بين الفينة والأخرى يسترق النظر بطرف عينيه إلى أخيه الذي يقف بجانبه. في النهاية تراءى له أن أخاه يشيح ببصره عنه. بسبب الحضور الغفير تابع الجميع القداس وقوفًا. أخذ يتساءل كيف سيتصرف عندما يحين الوقت فيستدير الجميع ليصافحوا من حولهم. هل يستدير نحو نيكي ويصافحه؟ عندما حانت اللحظة الحاسمة انحلت المشكلة من تلقاء نفسها. بسبب شعور الحضور بالبرودة والرطوبة والضجر، حيوا بعضهم بإيماءة تلقائية برؤوسهم من دون أن ينظروا يمينًا أو يسارًا. أنجلو فعل مثلهم وكذلك نيكي، عندما استدارا أخيرًا كان كل منهما ينظر في الاتجاه الآخر.

عندما حان وقت المناولة توجه نيكي نحو المذبح برفقة أربعة أو خمسة من الحاضرين حول نصب المعمودية. أنجلو أصيب بالدهشة: منذ متى بدأ شقيقه بتناول الخبز المقدس في الجنازات؟ اعتقد أن نيكي قد انتهز الفرصة كي يبتعد عنه. لكن نيكي عاد إلى مكانه حيث كان يتابع القداس. هذه المرة نظرا إلى بعضهما، مؤكدين أنهما علما بوجود بعضهما. وبينما كان التابوت الذي يضم جثمان البروفيسور يُبارك قبل أن يُنقل إلى خارج الكنيسة، بدأ الكثير من المشيعين بالتسلل هاربين من الجنازة. يبدو أنهم أدركوا أن المطر قد تباطأ وأنه من الأفضل الإسراع بالمغادرة قبل أن تفتح السماء أبوابها من جديد. فجأة فرغ المكان من حولهما. نيكي ظل في مكانه. قال أنجلو:

- لم أكن أعلم أنك تعرف البروفيسور.

- ابنه زميلي في العمل.

انتهت مراسم منح البركة للجثمان. القس العجوز شكر الحاضرين نيابة عن الأسرة. هب حَمَلة النعش لحمل التابوت على أكتافهم والخروج من الكنيسة. تبعهم أفراد الأسرة بملابس الحداد حاملين باقات من الزهور.

سأله نيكي:

- هل نذهب لتناول القهوة؟

أومأ أنجلو برأسه موافقًا. خرجا بصمت من الباب الجانبي للكنيسة. رائحة الرطوبة والبلل ازدادت حدة. في الخارج في فناء الكنيسة، كان الجميع يبحث عن ملاذ قبل بدء هطول المطر من جديد. أقارب البروفيسور دخلوا في السيارات السوداء التي كانت في انتظارهم في صف كبير بجوار الكنيسة. بعضهم تلقى التعازي في الفناء ممن تحدوا اقتراب المطر. نيكي تبع أنجلو إلى الطريق الواسع على يمين الكنيسة حتى عثرا على كافيتريا افتتحت حديثًا بدلًا من متجر نبيذ ربما كان من أقدم معالم البلدة.

الكافيتريا تحاول تقديم نمط جديد من الفطائر والكابتشينو كجزء من حملة يقوم بها المجلس المحلي لتحديث وسط البلدة. عندما دخلا وجدا العديد من النُّدل بمآزرهم السوداء شبه نائمين. وحقيقة أن المكان شبه فارغ لم تُعطِ الكثير من الانطباع أن هذه التجربة كانت أكثر نجاحًا من متجر النبيذ. ومع ذلك، يجب القول إن الوقت كان مبكرًا في صباح يوم ماطر وبارد ومظلم. ما إن دخلا الكافيتريا حتى فتحت السماء مآقيها من جديد.

جلسا حول مائدة صغيرة خلف واجهة المتجر من دون أن ينبسا ببنت شفة. خلف الواجهة الزجاجية كانت الأمطار المدفوعة بالرياح القوية تعصف بالطريق والأرصفة، وسرعان ما تتحول إلى سيول عارمة. تقدمت النادلة منهما بخمول، ربما لأنه لم يكن لديها ما تفعله، وربما كانت ذريعة كي تشاهد هطول المطر من خلال النافذة وهو يصطدم بالمياه والوحل في الطريق.

قال أنجلو:

- قهوة بالحليب.

قال نيكي:

- كابتشينو.

هرعت الفتاة خلف الكاونتر لتحضير ما طلبا. حتى تلك اللحظة لم يتفوها بسوى بضع كلمات يمكن عدها على أصابع اليد. نظرا إلى بعضهما بصمت. بدأ نيكي بالضحك، ثم توقف فجأة.

قال أنجلو:

- حسنًا. بما أننا حضرنا إلى هنا فلن نبقى محنطين. كيف حالك؟

للحظات ظل نيكي صامتًا يراقب المطر يهمي بلا هوادة خارج الكافيتريا صانعًا جداول من الوحل والسيول في الطريق. بدأ بفرك يديه بسبب البرودة (لاحقًا تَذَكَّر أنجلو هذه التفاصيل ربما ليُوظِّفها في رواية يومًا ما). عادت النادلة بالقهوة التي طلباها. بعد أن وضعت الأكواب على المائدة، انتصبت خلف الواجهة وبدأت تراقب ما يحدث في الخارج.

كان نيكي على وشك أن يقول شيئًا، لكنه لاذ بالصمت عند وصول النادلة. لم يتحدثا إلا قليلًا وبشكل رسمي بدا لأنجلو غريبًا؛ بدا كأنهما متفقان على مراسم معينة منذ أن كانا صغيرين؛ أنجلو يختلق القصص حول سلاطين وفرسان كلاتونيا ونيكي يستمع إليه مبهورًا.

سأل أنجلو:

- كيف تسير الأمور في العمل؟

- ممتازة جدًّا. سيما في الآونة الأخيرة. لم يعد المالطيون مهتمين بملء منازلهم بالأثاث الفاخر، ولا باقتناء السيارات الفارهة، ولكن بالسفر. لقد أصبحوا يسافرون مرتين أو ثلاثًا في السنة. وأنت ماذا عنك؟

- لم أعد أعمل في قطاع الإسكان الحكومي، فلم يتبقَّ الكثير من المساكن على أي حال. نقلوني إلى قسم البيئة. شيء مختلف لكنه لا يضايقني. أنا أيضًا أصبحت أسافر كثيرًا، ليس لقضاء الإجازات، بل من أجل أعمال حكومية.

- سمعت بذلك.

بعد أن انطلق الحديث بينهما لم يستطع أي شيء إيقافه. في البداية تحدثا بحذر كأنهما يخشيان ذكر شيء ما عليهما عدم الاقتراب منه. تجاهلا أشياء معينة؛ أين يسكنان، وبمن التقيا مؤخرًا... لكن عندما تحول الحديث حول أبنائهما؛ ميشيل، ونينا، ومارجون، انفكت عقدة ألسنتهما؛ تحدثا عن رأيهما في الحياة التي يعيشها «الأولاد»، وما هي خطط ميشيل ونينا للسفر هذا الصيف، باختصار فاضا بالحديث. النادلة أحضرت لهما قهوة أخرى وأخرى.

توقف المطر لبعض الوقت ثم عاد من جديد قبل أن يتوقف تمامًا. بدأت السحب بالتفرق حتى انقشعت سماء الشتاء الصافية. من مكانه، تمكن أنجلو من رؤية لون السماء الأزرق في الأعلى في نهاية الطريق، لكن نيكي لم يتمكن من ذلك لأنه كان يجلس في الجهة المعاكسة. تلاشت الحواجز بينهما، يبدو أنهما من دون التطرق إلى الموضوع على الإطلاق، قررا نسيان ما حدث إلى الأبد.

إلى أن سأل نيكي فجأة:

- هل التقيت بمورين مؤخرًا؟

كان على أنجلو أن يتخذ سلسلة من القرارات الصعبة بسرعة. بداية، ما إذا كان نيكي يحاول إيقاعه في الفخ، لكنه قرر أن يتجاهل ذلك. ربما كان السؤال بريئًا بدافع الفضول، لكنه لم يشأ أن يبدو أنه وقع في الفخ حول زوجة أخيه: هل يقول الحقيقة أم يكذب؟ أجاب على الفور:

- لا، منذ أن حدث ما حدث.

فهم كلاهما ما كان يقوله.

- لم أرَها على الإطلاق.

كاد أن يضيف: «أقسم لك»، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة. يبدو أن نيكي لم يلاحظ ذلك.

كان يكذب ويعلم أن شقيقه يعلم إجابة سؤاله، أو أنه سيعلمها من مورين نفسها أو من شخص آخر. إذا كان الأمر كذلك، فلماذا سأله إن لم يكن الغرض اصطياده؟

مرة بعد نحو شهرين مما حدث اتصلت به ليلًا، تمامًا كما جرى عندما زارته في المرة الأولى وانتبه على الفور أنها كانت ثملة. حاول التملص منها لكنها ظلت تتذمر على الهاتف حتى طلب منها الحضور. تمامًا مثل المرة الأولى، جلسا في غرفة المعيشة على الأرائك الصغيرة أمام التلفاز، المكسوة بالسجاد الأزرق السميك. كانت ثملة جدًّا مثله. تحدثا عن كل شيء باستثناء ما وقع قبل شهرين وما حدث بعد ذلك. لكن الشيطان بداخلهما دفعهما للتصرف كأن شيئًا لم يحدث. لكن هل ما زالا قادرين على إثارة بعضهما من جديد؟ أخذا يتدحرجان على السجادة على الأرض ولكن سرعان ما شعرا بأن المسألة فاترة وميكانيكية إلى حد ما. ازداد شكه أن رعشة الجماع لديها كانت مزيفة وبأنه لم يكن في حال أفضل، لأن رائحة الخمر والتبغ المنبعثة منها بدلًا من إثارته أشعرته بالغثيان. بعد ذلك، لبسا ثيابهما وشربا المزيد من الخمر، ثم نهضت كي تغادر فتركها تفعل ذلك من دون أن يقول شيئًا، لأنه أدرك أنها أيضًا لا ترغب في الحديث. حتى إنه لم يُبدِ أي قلق كونها لم تكن في حالة جيدة لقيادة السيارة. كانت تلك آخر مرة شاهدها فيها.

كانت هناك مناسبة أخرى بعد ذلك بوقت طويل لكنها كانت لقاء «بريئًا». كان ذلك في وقت متأخر من الصباح في منطقة سليمة. كان برفقتها شاب لم يسبق له أن رآه من قبل. قالت مبتسمة وهي تقدمهما لبعضهما:

- يا لها من مصادفة جميلة! لقد ذكرتك لجيفري منذ مدة قصيرة فربما يمكنك مساعدته.

كانت ترتدي ملابس أنيقة وبكامل زينتها، فيما ارتدى الشاب ملابس رياضية، يبدو أنه حريص على النظر في المرآة.

- على الرحب والسعة، إن كان بمقدوري تقديم المساعدة.

تدخل الشاب:

- سأقوم بإعداد أطروحة حول الإسكان الحكومي والمجمعات السكنية، وسأحتاج إلى مقابلة بعض من يعملون في هذا القطاع.

أجاب أنجلو مرة أخرى:

- لم لا؟ ما لم تطلب مني كشف أسرار الدولة!

أجاب الشاب ضاحكًا:

- لا أسرار.

وبناء على اقتراح مورين أعطاه أنجلو بطاقة العمل. بعد كلمات مقتضبة ودَّعاه ومضيا في طريقهما. لم يكن الشاب يمزح لأنه اتصل به بعد يومين لتحديد موعد. حضر في الوقت المحدد مرتديًا ملابس رياضية أكثر أناقة من المرة الأولى، وأخذ بطرح مجموعة من الأسئلة التي أثارت إعجاب أنجلو من حيث عمقها حول سياسة الإسكان الاجتماعي. لم يذكرا شيئًا عن مورين.

كان يكذب ولكن نيكي لم يلاحظ أو لم يكترث. بدلًا عن مورين، تحدثا عن دينيس، والمرأة التي تعرف عليها نيكي في آخر مرة ذهب فيها إلى مدريد. باختصار، يبدو أنهما عادا كما كانا في السابق. قال نيكي:

- دعنا نحتسي بعض الويسكي؟ سآخذ ويسكي مزدوجًا. فما زلت أرتجف من البرد، حتى بعد انقشاع الشمس.

فعلا كما قال نيكي رغم أن أنجلو سيصل متأخرًا إلى العمل. قرر أن على أولئك الذين كان سيلتقي بهم الانتظار.

- 7 -

جلورما

أدخلوها إلى مكتبه بعد أن أحدثت جلبة في أروقة القسم، لأنها أصرت على مقابلة المهندس المعماري المسؤول وليس صغار الموظفين الذين أغضبوها وهم يهدرون وقتها بلا فائدة. جلست أمامه عازمة على تلقينه درسًا لن ينساه أبدًا. فقد طفح الكيل لديها. تارة يرسلونها هنا وتارة هناك، تارة يخبرونها أن ما فعلته جيد وتارة أنها أخطأت، وما يجب عليها فعله كي لا يضايقها أحد في الشقة الحكومية التي كانت تقيم فيها مع ابنتيها. ولكن كلما انتقلت من مكتب إلى آخر اكتشفت أنها عالقة، ولكن لماذا؟ هل من أجل مساومتها على صوتها في الانتخابات؟ أليس كل هذا عبثًا؟ الجميع كان يعلم كيف تدلي بصوتها، دائمًا أدلت به كما يحلو لها.

سألته بحدة:

- ما اسمك؟ من أنت؟

كاد أن ينفجر بالضحك ولكنه ابتلع ريقه وبقي هادئًا. صرخت من جديد:

- من أنت؟

أخبرها.

- لماذا لم يسمحوا لي بالدخول إليك؟

فهم أنها منذ البداية مصرة على مقابلته وتعلم جيدًا من هو.

- أليس من الأفضل أن تخبريني ماذا تريدين؟ وإلا فسوف أخرجكِ من هنا ويذهب حضوركِ سدى.

نظرتها كانت تتأرجح بين ابتسامة مستفزة على شفتيها والتواء ذقنها الذي بدا جاهزًا لعضعضة ما. لم تتوقف عن تمحيصه منذ أن دخلت المكتب، ولكن عندما تحدث معها بصرامة، هدأت فجأة وبدأت تروي له قصتها. استمع إليها بهدوء، وكتب بعض الملاحظات. في البداية اعتقد أنها ستخترع قصة مفبركة،

فقد استمع للآلاف منها. لكنها ظلت تشرح ما حدث لها من دون أي تناقض في التفاصيل، كما يفعل أولئك الذين يعلمون أنهم يكذبون.

اتصل بالسكرتارية في الأسفل كي يعطوه تفاصيل حالتها، في هذه الأثناء أخذ يراقبها من طرف عينيه؛ كانت متزينة بعناية، حسب فهمها للمكياج الذي بدا سخيفًا، لكن عينيها خضراوان، وكتفيها مكتنزتان داخل الفستان الأحمر المثير. يبدو أنها لاحظت نظراته لأنها حدقت فيه بشيء من الريبة:

- اسمع، آمل أنك لست من أولئك النصابين الذين أضاعوا وقتي، أليس كذلك؟

في غضون ذلك، اتصلوا به من الأسفل وأحضروا ملفها إلى المكتب. فتحه وتمحصه بينما كانت تراقبه بنظرة بغيضة. طلب منها أن تكرر ما قالته للتو. كانت لديها ذاكرة دقيقة. ما قالته يعكس كل شيء في ملفها، باستثناء شيء واحد: التواريخ التي قالت إنها حضرت فيها إلى القسم لتقديم إيضاح أو شكوى، أو لجلب مستندات طُلبت منها، لم تكن جميعها موثقة في الملف. لكن كان بحوزتها جميع الأوراق التي تثبت أنها جلبت كل ما طُلب منها القيام به حتى تكون الشقة التي كانت تقيم فيها مع أسرتها من حقها وفقًا للقانون. بدأ يشك في أنها كانت محقة في الادعاء بأنهم كانوا يخدعونها.

قال لها:

- اتركي الأمر لي، سأتحقق من الأمر بنفسي.

قالت وهي تجذب التنورة الحمراء للأسفل بعد أن انحسرت عن فخذيها:

- هل هذه خدعة أخرى؟

لكنها أدركت أنه لم يُلقِ ببصره على تنورتها الحمراء المنحسرة بقدر ما كان منكبًّا على ملفها.

قال لها بعصبية، أو هكذا خمنت:

- افعلي ما أقوله لكِ. سنتصل بكِ.

وطلب منها المغادرة.

* * *

ضاجعها لساعتين متواصلتين. عندما هم بالنهوض ليغتسل، قالت له: «انتظر. لن أرتدي ملابسي الآن. عليك أولًا أن تأخذ هذا. لقد أحضرته معي كما وعدتك». كانت تحت الدولاب حيث ألقت بها عندما دخلا إلى هناك. التقطت الحقيبة الجلدية السوداء التي أحضرتها معها. فتحتها وبدأت تنقب فيها. أخرجت دفترًا صغيرًا بداخله قصاصة ورق مربعة الشكل، كانت من الورق المقوى، أو ما يشبه صورة بطاقة هوية. في الواقع، كانت صورة.

قالت:

- انظر إليه. ما رأيك؟

اعتدلت مرة أخرى في السرير وأخذت تحدق إليه. فاجأه الأمر. وجهها بدا قبيحًا رغم أنها كانت تبتسم وتعض على شفتيها بشبق. فتحت ساقيها وبدأت تداعب فرجها. أنينها لم يُخفِ حقيقة أنها كانت مضطربة جدًّا.

أجابها غاضبًا:

- ماذا تتوقعين مني؟

كان يضاجعها بلا هوادة، لكنه كان يسأم منها أيضًا. عندما يفرغ منها، كان يتمنى أن تغادر على الفور وتتركه وشأنه. لم تكن تعلم ذلك، من يدري ماذا ستفعل لو اكتشفته! نظر إلى الصورة بعناية، رجل في الخمسينيات، أو ربما في الستينيات، أو ربما كان في الثلاثينيات لكن حياته قست عليه لدرجة أنه بدا عجوزًا. كانت هناك مسحة إدمان في عينيه وعلى أسنانه الحادة.

قالت وهي تداعب فرجها بعصبية أكثر منها لذة، حتى وإن كانت تئن:

- هل رأيته؟ هل شاهدته إذن؟ هذا الحيوان أبي. أخبرتك ماذا كان يفعل بي.

عيناها الفاتحتان بدتا غاضبتين ومستعدتين لإيذاء أي شخص.

- هل تعلم ماذا أريد منك أن تفعل عندما أغادر؟ سأترك لك هذه الصورة لتمزقها أو تحرقها. أنت فقط من أثق به للقيام بهذا.

أدارت له ظهرها العاري وتابعت مداعبة فرجها إلى أن تحول أنينها إلى صراخ وعويل.

أيوب

رواية أنجلو الثالثة مثَّلت نجاحًا كبيرًا بالنسبة لمالطا. كان على الناشر أن يطبع بضع مئات منها على جناح السرعة، معللًا ذلك بنظرية «اطرق الحديد وهو ساخن». كان واثقًا بأنه سيتمكن من بيعها. أنجلو تفاجأ في البداية لأنه لم يكن يتوقع أن رواية «أيوب» ستثير ضجة بهذا الشكل، لاحقًا بدأ يخامره الشك في أن الناشر قد خدعه، وأنه في الواقع طبع وباع نسخًا أكثر مما أخبره سابقًا.

* * *

حتى الآن، من الصعب فهم نجاح رواية «أيوب» إلى هذا الحد. كان فيها القليل من الرومانسية أو الأحداث الجنسية وما إلى ذلك. حتى ذلك الوقت، كان الكُتَّاب ما زالوا لا يجرؤون على كتابة الإيحاءات الجنسية باللغة المالطية. كما أن الرواية كانت خالية من المغامرة ومشاعر التوتر الموجودة في القصص البوليسية. الرواية كانت تروي قصة كاتب في الحكومة، تمكن من إقامة شركة كبيرة خلال وقت فراغه، وكيف تفرغ لها وتمكن بمفرده من تطويرها وجني الكثير من المال وتوظيف أبنائه، ثم فجأة أصبحت العجلة تدور بالعكس وفقد كل ما كسبه. ثم فقد اثنين من أبنائه. قرب نهاية الرواية، نرى البطل وزوجته يعيدان الكَرَّة من جديد لاستعادة ما فقداه؛ لم يكن ابناهما محور حياتهما، بل العمل الدؤوب في المقام الأول.

قد تكون رواية «أيوب» لاقت ذلك النجاح لأنها صدرت في تلك الحقبة التي خلال الخمسين سنة الماضية، لسبب أو لآخر، ظهر فيها اهتمام كبير بقراءة الرواية المالطية، حقبة كانت فيها أعداد الطبقة العاملة كبيرة وكان لديهم بعض المدخرات. لم يكن شغفهم في السفر وكانوا ينفقون بسخاء على أشياء أخرى من ضمنها الكتب. كانت قصة محلية تَطْرح بطريقة ما بعض المواضيع التي كانت تُثار على القنوات التلفزيونية المالطية والإيطالية، ربما لذلك أثارت فضولًا غير متوقع. في الواقع، في تلك الحقبة، هيمن رجال الأعمال والمصرفيون على محطات التلفزيون.

* * *

رغم مرور عام ونيف على وفاة زوجة باولو، فإن أنجلو شعر أن صديقه لم يتعافَ تمامًا. لذلك دعاه للعشاء في مطعم صيني. أراد أن يُشعِره بأنه حاضر لمواساته.

في أثناء الوجبة، بدأ أنجلو يشك في أنه قد يخذل صديقه. باولو تحدث بتلقائية وعفوية، كلاهما فعل ذلك. تحدثا بحماس عن كل شيء. شربا الكثير من الخمر والتهما جميع الأطباق التي قُدمت لهما من الطعام اللذيذ المقلي في الزيت.

لسبب ما لا يذكرانه، انتهى بهما المطاف يناقشان رواية «أيوب». سأله باولو:

- أيوب بدأ مسيرته في القطاع العام وغادر ليجرب حظه في القطاع الخاص، ونجح، رغم أنه كان موظفًا بسيطًا، عكسك تمامًا؛ واصلت العمل مع الحكومة رغم أنك معماري بارع، وكان بإمكانك تدبر أمورك جيدًا في القطاع الخاص. ألا تجد هذا غريبًا؟

- لحسن الحظ أننا لا نتخذ نفس الخيارات! لو فعلت ما فعله أيوب لأصبحت مثله تمامًا؛ عبدًا للعمل. وهذا ما لم أرغب فيه قَط.

- فيم كنت ترغب إذن؟

- أردت، مهما كانت وظيفتي، أن يبقى لدي متسع من الوقت للكتابة. وقد نجحت في ذلك إلى حد ما. أنا لا أحكم على ما كتبته إن كان قيِّمًا أم لا، لكن عندما أنظر للوراء، لا أشعر بالندم لما حققته حتى الآن. بالنسبة للعمل، أقوم به لأنه إجباري. ليس كما تفعل دينيس بتجارة أسرتها التي سرقت جل حياتها. إن كان البعض يتشفى بسبب بقائي في وظيفتي فهم مخطئون. أنا أقوم بعملي على أكمل وجه، وفي السنوات الأخيرة قاموا بزيادة رواتبنا. عدا حقيقة أنني أستمتع بالحياة بكل جمالها. لم لا؟ انظر إلى نفسك، كاتب عدل مستقل، ولا شك أنك تجني مالًا أكثر مني بكثير! لكني لا أريد أن أكون مثلك. حياتك لم تعد ملكك، بصرف النظر عما ستقوله.

للحظات ظل باولو مندهشًا. ثم غيَّر الموضوع.

قرب نهاية الوجبة، كانا هما الوحيدان المتبقيان في المطعم. انتظرهما النادل الصيني بابتسامة كي يغلق المتجر ويغادر كما فعل رفاقه. شربا بلا توقف، الكأس تلو الأخرى. شرب باولو براندي فيما شرب أنجلو خمرًا صينية بيضاء اللون. بسبب عسر الهضم أو الخمر، باولو لم يبقَ على حاله. كذلك أنجلو ترنح قليلًا وبات لا يدري إن كان عليه مفاتحة صديقه بأن عليه التحرر قليلًا، وأنه لا يمكنه أن يظل قابعًا في الأحزان، وأن الحياة قصيرة وقد فات ما قد فات، وأن عليه أن يلتفت إلى نفسه وما تقدمه الحياة. باختصار كل ما يخطر ببالك عندما تكون ثملًا وتشعر بالشفقة تجاه الآخرين. لحسن الحظ، لم يبدأ أنجلو في إسداء النصائح.

أجابه باولو من دون سابق تفكير:

- سعدت بلقائك الليلة. لا تقلق، أنا أقدر قلقك أنت والآخرين من أصدقائنا. أقدره حقًّا. لكن منذ وفاة فاليري، لم أكن أبكيها فحسب، كما تعتقدون. صحيح، ما زلت أشعر بفقدانها، سيما عندما أعود إلى المنزل ولا أجدها، أشعر أني... ولكن هذا ليس كل شيء. كنت أقوم بتقييم كل ما فعلته في حياتي. أنت من نبهني لذلك اليوم عندما أخبرتني أنك مختلف عن أيوب. أنا أيضًا لست أيوب. لقد حسمت أمري تمامًا، وقررت أن أصبح قسًّا.

كاد أنجلو أن يختنق في آخر ما تبقى من الخمر الذي جلبه النادل الصيني، الذي كان مندهشًا من أن هناك شخصًا على هذه الأرض يحب شراب الماو تاي إلى هذا الحد.

* * *

- 8 -

حفل تخرج

بعد الاجتماع الذي تلقوا فيه التعليمات حول بروتوكول حفل التخرج، انطلق بعض الطلاب في مجموعات إلى وسط المدينة لقضاء بعض الوقت، يتحدثون ويناقشون ماذا فعلوا في أثناء عطلة الصيف، وماذا يخططون للحماقات التي سيقومون بها يوم الحفل. بعضهم كان قد بدأ بالفعل بالعمل ويحلم بكسب المزيد من المال، وآخرون ظلوا حذرين كيف ستطأ أقدامهم سوق العمل من دون أن يفقدوا الكثير من حريتهم، وآخرون يستعدون لمواصلة دراستهم وتحصيلهم العلمي، وكان هناك من كان اهتمامه مُنصبًّا على اللقاء بفتاة، بما في ذلك أحد الأشخاص الستة الذين اجتمعوا هذا الصباح، فرحين لأنهم سينعمون بفرصة أخيرة لقضاء بعض الوقت معًا قبل أن يفترقوا إلى أجل غير مسمى.

وصلوا إلى الساحة المكتظة بالموائد المزدحمة بالزبائن، لأن خريف ذلك العام كان امتدادًا للصيف. ما زال الجميع يرتدون ملابس بأكمام قصيرة، فيما أضفى السياح الذين ظهروا بأعداد أكبر من المتوقع في هذا الوقت من العام مظهرًا مبهجًا على وسط المدينة. وجدوا مكانًا للجلوس، جلبوا البيرة والفستق، واستؤنفت النقاشات فيما شرع الحَمام النزق الذي كان ما زال جزءًا من تراث المدينة في التحلق حولهم.

استمع إلى أقرانه يختلقون الكذبة تلو الأخرى ولم يتحدث كثيرًا. لاحظه أحدهم واستدار إليه. سأله:

- أليس لديك ما تقوله اليوم؟

لكن الآخرين ظلوا منغمسين في أحاديثهم لدرجة أنهم تجاهلوه تمامًا، وحتى هذا الفضولي الذي حاول كشف صليبه، فقد الاهتمام وانضم إلى الآخرين في أحاديثهم الساخنة. ظل صامتًا لأنه شعر بالحزن أكثر من رفاقه لأن حياتهم معًا قد انتهت. السنوات القليلة الماضية منحته الفرصة للقيام بما

يشاء في الوقت المناسب. كان يفي بمتطلبات الدراسة بل أكثر قليلًا، وما تبقى من الوقت يكرسه لنفسه. الآن ستقلب الصفحة تمامًا، لم تبهره التطلعات والمشاريع التي يخطط لها أقرانه من أجل مستقبلهم الزاهر.

مضى بعض الوقت حتى حان وقت الدفع والمغادرة. كانت الساحة قد أصبحت شبه فارغة. وبينما كان يسير في الخارج مع أصدقائه سمع شخصًا يناديه من مسافة بعيدة. نظر حول المقاعد والموائد المنتشرة حوله، كان ضوء الشمس المتسلل من بين أغصان وأوراق الأشجار العالية يلقي ستارًا كثيفًا من الظلال على الساحة. في البداية لم يستطع تحديد المكان الذي انطلق منه النداء، ثم عند الطرف الأيسر بعيدًا عن الموائد، في زاوية الميدان، بالقرب من أحد الأقواس، لمح رجلًا منحني الظهر خلف مائدة ينظر إليه ويناديه. لم يتعرف عليه على الفور، ولكن بدا له أنه قد شاهده من قبل، وأنهما التقيا في مكان ما. فيما استمر رفاقه في المشي نحو الطرف الآخر، عبر فسيفساء الظل والضوء نحو الرجل العجوز الجالس إلى المائدة، وأمامه بعض الأوراق والأكواب الفارغة.

في ذلك الوقت لم يلاحظ كيف أنه بينما كان يسير باتجاه الرجل، محاولًا تذكُّر مَن هو، انشغل بتأثير الظل والضوء من حوله، كأنه يسير بين انعكاسات تسقط من مرآة قاتمة. وللمشي نحو من يدعوه، عليه أن يتحاشى هذه الظلال المضيئة التي تتشكل من حوله. لم يخطر بباله في ذلك الوقت، كم سيبقى هذا التأثير في مخيلته: الظلال الدافئة التي تصنعها أشعة الشمس عندما تخترق الأشجار، ستصبح بعد سنوات محور إحدى أهم قصصه القصيرة التي حظيت باهتمام كبير على نطاق واسع.

في النهاية تعرف على الرجل العجوز المحني الظهر خلف المائدة. كان ينظر إليه بعينين زرقاوين مملوءتين بالسخرية: «معلم الحساب»! هكذا كان ينعته طلاب المرحلة الثانوية طوال المدة الطويلة التي أمضاها في التدريس. المعلم تذكره وتعرف عليه. سأله:

- كيف حالك؟

عيناه لم تتوقفا عن السخرية. وقف أمامه مرتبكًا -كما كانوا يفعلون دائمًا، حتى أعتى المشاغبين كانوا يخشونه.

- هل انتهيت من الجامعة أم أنك لم تلتحق بها قَط؟

- هل تذكرني حقًّا؟

كان مندهشًا. رغم أن الرجل كان منحنيًا وهزيلًا، وقد انتشرت التجاعيد على وجهه الباهت، فإنه شَخَص بذقنه للأعلى نحوه، فيما يداه مرتخيتان أمامه، فوق صحيفة اليوم وبعض الأوراق المليئة بملاحظات حول الشطرنج. الآن بعد أن شاهده عن كثب، وليس من طرف الساحة المغطاة بالضوء والظلال الفاترة، لم يبقَ لديه أدنى شك أن من أمامه هو أستاذ الحساب. لم يرَه منذ سنوات طويلة.

- بالطبع أذكرك، لهذا ناديتك. ألست من كان دائمًا يرغب في أن يصبح مهندسًا معماريًّا؟ ألستُ على حق؟

لم يسعه إلا أن يبتسم للرجل العجوز الذي كان بدوره يبتسم له. فعل ذلك حتى بعدما أدرك فجأة أن الرجل العجوز لم يكن في أفضل حال -كانت هناك طية صفراء في عينيه وظلال غريبة تتدلى من وجنتيه.

- إذن هل ستخبرني ماذا حل بك؟

- جئت لاستلام شهادتي.

- اعتقدت ذلك، فقد رأيتك تحتفي مع الآخرين. إذن هل حققت رغبتك وأصبحت مهندسًا معماريًّا؟

- أجل.

هز أستاذ الحساب رأسه، بين ابتسامة وضحكة خبيثة.

- وماذا ستفعل الآن؟

- أعتقد أنني سأبحث عن وظيفة في الحكومة.

- وهل ستكون راضيًا عن ذلك؟

داخل نظرة الرجل العجوز شك في أنه يحاول جر قدميه. أدرك أنه لن يتمكن في لحظات قليلة من شرح طموحاته وخططه المستقبلية له، لذا بدلًا

من ذلك، تمطى قليلًا وقال:

- أُفضل الحياة الهادئة، ما دام هناك راتب جيد.

نظر إليه العجوز مرة أخرى ببعض الريبة وهو يصارع ضحكة تفيض من عينيه. فهم الشاب فجأة، فيما اعترته دهشة كبيرة كون أستاذ الحساب كان سعيدًا برؤيته.

- كان عليك أن تدخل كلية الرياضيات.

كان رفاقه قد اجتازوا الساحة من دون انتظاره، هرولوا مسرعين لأن الوقت قد حان. ودَّع أستاذ الحساب (لم يرَه بعد ذلك مرة أخرى) وسارع الخطى للحاق بهم.

- 9 -

كهوف

غادروا المدينة باكرًا. كان الدخان ما زال يتصاعد من ضواحي سلافية، حيث سُمح للمحاربين باقتحام المنازل والنهب والقتل والاغتصاب والعربدة كما يحلو لهم، كتعويض عن المصاعب والمخاطر التي تعرضوا لها حتى وصلوا إلى هنا. لكن يبدو أن قائد الحملة لا ينوي أن يستريح. والآن، عن كامل استحقاق وجدارة، سيصبح الملك المطلق لكلاتونيا بعد القضاء على الأسر الكبيرة المتمردة في المعركتين الكبيرتين اللتين مهَّدَتا الطريق للجيش الغازي لدخول سلافية. لم يُظهِر أنه كان حريصًا على الاستمتاع بثمار النصر مع رفاقه. ترك الأمر لنائبه كي يضمن سيطرة الجيش المنتصر على كل أرجاء المدينة. طلب منه القيام بالمهمة بكل قسوة وإراقة الدماء، كي يُرهب السلافيين، حتى لا يفكر أحد ثانية في التمرد والعصيان. إن خضع أهل سلافية وأطاعوا، فكذلك ستفعل كلاتونيا بأسرها.

غادروا في وقت مبكر من الصباح في سرايا قوام كلٍّ منها عشرون مقاتلًا، مسلحين حتى أسنانهم ويمتطون أفضل خيول الجيش. سُحُب الفجر المنخفضة تكاد تلامس قمم التلال المنتشرة خارج أسوار المدينة.

القائد، أو الدوق كما كان الجميع يدعونه، يعرف هذه الأراضي أكثر من أي شخص آخر في الحشود التي اصطحبها معه. كانت لديه ثقة عمياء فيمن خلَّفه في القيادة -محارب قوي عملاق، دائمًا على أُهْبَة الاستعداد لخوض أي معركة، ولا أحد يتفوق عليه في الشراسة والوحشية، ومخلص لكل من يدله على طريق الذبح والنهب.

لذلك كان الدوق مطمئنًّا بعد أن ترك سلافية التي استولى عليها من دون أن يضطر إلى حصارها. جلس منتصبًا على ظهر جواده، كأنه لم يكابد مثل الآخرين عناء المشقة والخطر من جراء هذا الغزو الذي عندما أعلنه داخل أسوار مورا، بدا فكرة حمقاء ومجنونة، لدرجة أنها في البداية لم تستقطب

سوى المجرمين والقتلة في المدينة، بمن فيهم أولئك الغارقون في الشرب والديون، ممن لا يصلحون كمحاربين أو جند، أو حتى كي يحرسوا منزل أحدهم من اللصوص والقتلة الذين تعج بهم مورا.

الدوق تقبل هذا الأمر، بل إنه رعاهم وأغدق عليهم المال والطعام، ودرَّبهم على السلاح وفقًا لأحدث تقنيات الانقضاض على العدو، ونظَّمهم في فرق جيدة التسليح ومتفقة فيما بينها، إلى أن أطلق صرخته أخيرًا كي يرافقوه عبر الغابات الكثيفة في الشمال الغربي، في مسيرة طويلة نحو كلاتونيا. قلة منهم سمعوا بتلك المملكة، ومن سمع بها كان يظنها أرضًا أسطورية، منسية وضائعة في ضباب وظلام الأزمنة الماضية. لكن الدوق تمكن من التغلغل في عقولهم لدرجة أن الفرسان والمحاربين الذين احتشدوا من حوله آمنوا بأنه كان يعلم ما الذي يفعله تمامًا.

تبعه الجميع حتى النهاية، رغم أن العديد منهم فقدوا حياتهم في الغابات الموبوءة بالملاريا، وفي الثلوج المتجمدة التي اضطروا إلى عبورها حتى وصلوا إلى كلاتونيا. هناك اكتشفوا أن الدوق لم يخدعهم. خاضوا معارك حقيقية بضراوة، لأنهم شاهدوا بأم أعينهم مدى غنى تلك الأرض التي دخلوها بعد رحلتهم الشاقة وما لديها من خيرات وفيرة.

فوج الفرسان والمحاربين انطلق غربًا، تاركين الشمس خلفهم كاشفة امتدادات جديدة من الجبال والوديان. لم يطأ الجيش قَط هذه المناطق، ووفقًا للدوق كان هناك القليل من القرى والسكان، لأن المنطقة كانت تُستخدم في الغالب لصيد الغزلان الشاردة في الأودية. بدا أنه يعرف المنطقة جيدًا، لأنه من على صهوة جواده الأسود في مقدمة الجيش، كان يقود الركب إلى الأمام في حركة دؤوبة من دون توقف، كأنه يَخبر هذه الوديان والسهول ويدرك جيدًا إلى أين تؤدي. تابعت الشمس تبديد السحاب أمامهم كاشفة عن سهول خضراء، وجداول ماء تتساقط بغزارة من شقوق واسعة عبر الصخور المرتفعة كالحصون، ومساحات هائلة من الغابات والحجارة الرمادية المشبعة بالرطوبة.

توقفوا لمرة واحدة فقط بعد الظهيرة. أشار لهم الدوق أين عليهم أن يتجهوا من طرفي الوادي الضيق كي يباغتوا قطيعًا من الغزلان. ذبحوا ثلاثة منها من أجل العشاء. استمروا في التقدم حتى بدأ الظلام يرخي سدوله على المنحدرات، حيث أشعة الشمس تومض للحظات فوق قمم التلال المنتشرة حولهم قبل أن تختفي تمامًا. ظل الدوق يرشدهم إلى الطريق من دون التحدث كثيرًا، يبدو أنه كان غارقًا في أفكاره. وجهه كان شاحبًا داخل خوذته، لكنه بدا أكثر يفاعة. كان هناك الكثير من الأشياء التي يجهلها رفاقه عنه، وأكثرها غموضًا: من هو حقًّا هذا الرجل الذي يبدو أنه مصنوع من الفولاذ، رغم أنه يظهر شابًّا؟ عمره كان مجهولًا ومن المستحيل أن يكون صغير السن كما يبدو.

عندما توغل الظلام وبدأ بعض الجنود يخشون أن تتعثر خيولهم في حفر مخفية، جنح بهم الدوق في طرف الغابة أسفل مرتفع، حيث وجدوا حصنًا مُهدَّمًا. كان مهجورًا منذ مدة طويلة، ولكنه ما زال قائمًا ويمكنه توفير مأوى آمن لهم في أثناء الليل بعد أن تناولوا لحوم الغزلان. في الجوار، يمكن للخيول أن ترعى وتجد مكانًا للراحة.

في صباح اليوم التالي تابعوا مسيرتهم عند الفجر. كلما تقدموا نحو الغرب، بدأت الأرض في الانخفاض تدريجيًّا. بدا أنهم يخرجون من الجبال الشاهقة باتجاه صخور منخفضة. بدأ الطقس يزداد دفئًا وتقلصت الأشجار وتحولت إلى أشواك وعليق شاهق يصل إلى قمم التلال. تلاشت خضرة الوديان. الليلة التالية أمضوها في العراء حول نار كبيرة تضمنت شواء وعول أخرى مختلفة عن التي اصطادوها في الأمس. قبل مغادرتهم عند الفجر أبلغهم الدوق أنهم سيبلغون وجهتهم بحلول الظهيرة.

بدأت السهول التي عبروا منها تصبح أكثر جفافًا، وسرعان ما تركوا وراءهم كل خضرة. في أثناء صعودهم بمحاذاة التلال شاهدوا صخورًا بُنية اللون تمتد بعيدًا حتى الغرب، ضاعت تفاصيلها بسبب المسافة وتصاعد الحرارة من الأرض الجرداء. مرة أخرى، أظهر القائد مدى معرفته الجيدة بما يفعله، لأنه

من وقت لآخر كان يرشدهم بين الصخور، ويدلهم أين يمكنهم العثور على الينابيع المخفية كي يريحوا خيولهم ويدعوها تشرب. ثم توقفوا أمام جبل عظيم يفرق الطريق أمامهم إلى واديين عميقين. سلك الدوق على الفور طريق الوادي الذي على اليمين. دخلوا عبر ممرات مغطاة بالكثبان الرملية الناعمة لكنها لم تَعُق تقدم الخيول لأنها لم تكن عميقة. ألقت الجبال الشاهقة على جانب الوادي ظلالًا هائلة حالت دون تصاعد الهواء الثقيل وتفاقم الحر الشديد.

بعد الظهر بقليل خرجوا من الوادي، ووجدوا أنفسهم في سهل كبير، محاصرين بجبل عظيم من جانب، ومن الجانب الآخر بسلسلة تلال أخرى تمتد حتى الأفق. التلال القريبة تبدو أضخم بكثير من تلك التي خلفها، ولها قمم مسطحة وواسعة. أوقف الدوق حصانه ونظر بصمت نحو المنفذ الوحيد والتلال المنبسطة. توقف جيشه خلفه. أدركوا أنهم قد وصلوا.

استدار الدوق نحو الجبل الشاهق من خلفهم، وعندما استداروا إلى حيث كان ينظر شاهدوا في الواجهة الصخرية للجبل ما يشبه المغارات أو الكهوف. من بطن الكهوف المطلة على الدوق وأعوانه ظهر رجال بملابس سوداء. بحركة واحدة أشرع الجنود سيوفهم وأعدوا رماحهم لمعركة مباغتة. ظن الجميع أنهم وقعوا في مصيدة. لكن الرجال الذين كانوا يرتدون ألبسة سوداء طويلة كالغربان، لم يتحركوا من أمكنتهم، ظلوا هادئين. ثم شاهدوا رجلًا يهرول نحوهم في السهل، لا بد أنه خرج من أحد الكهوف. هو أيضًا كان يرتدي ملابس سوداء وعباءته تتطاير من خلفه وهو يغذ الخطى لأن الرياح في هذه المنطقة تهب كما يحلو لها من دون توقف.

لم يُخرج الدوق سيفه من غمده، وطلب من الفرسان ورفاقه البقاء في أماكنهم، وقاد جواده ببطء نحو الرجل المتقدم بملابس سوداء نحو الجمع. عندما التقيا ظهر المشهد غريبًا للغاية؛ كان الدوق فوق جواده الأسود يحدق في الرجل العجوز الذي يلهث تحته، مغطى باللباس الأسود. تابع المحاربون،

ومن أعلى الجبل الرجال المتشحون بالسواد في الكهوف، لحظة لقاء الدوق مع الرجل العجوز الذي أخذ ينظر إلى الدوق بعينين جافتين مُحمَرَّتين.

- ها نحن نلتقي مرة أخرى يا داميان.

قال الدوق:

- هل كنت تعلم أننا على وشك الوصول؟

أومأ الرجل العجوز برأسه:

- نعم. لقد أنبأنا بذلك.

- كيف حاله؟

- إنه ينتظر الموت.

- جميعنا كذلك.

- لكن في حالته، كأن الموت يتفاداه.

فيما هما يتحدثان اقترب المحاربون منهما حتى شكلوا نصف دائرة خلف الدوق. لم يتمكنوا من فهم أي شيء مما يُقال. كان ضوء الشمس ساطعًا ولكنه فاتر بسبب تداخل تيارات الهواء بين الجبل والسهل.

- وأين هو الآن؟

أشار داميان نحو التلة على الجانب الآخر من السهل، تلة بقمة منبسطة.

- إنه لا يبرحها أبدًا.

- لقد حضرت إلى هنا لزيارته.

- إنه لا يقابل أحدًا. يلتقط الطعام الذي نحضره له بعد مغادرة الجميع، وأحيانًا لا يفعل ذلك إطلاقًا.

- سوف يرغب في لقائي.

- هل تريدني أن أرافقك كي أرشدك إلى الطريق؟

ضحك الدوق.

- أعرفه جيدًا. لكن هل لديكم في الكهوف ما يسد رمق جنودي من طعام وشراب؟ أريدكم أن تعتنوا بهم طوال فترة مكوثي هنا. إياكم أن تصيبوهم بأي أذى لأن عقابي سيكون شديدًا.

التفت الدوق إلى جنوده، وأفهمهم أن رجال الكهوف بالملابس السوداء سيقدمون لهم الطعام والشراب، وسيوفرون لهم مكانًا للراحة، فيما هو سيغيب عنهم لبضع ساعات قليلة. أطاع الرجال الأوامر على الفور رغم أنهم تفاجأوا بكل ما يحدث. بخطوات بطيئة ومن على صهوة جواده تبع داميان الرجل العجوز وهو يتعثر عائدًا إلى المغارة. رجال الكهوف تقدموا لتحية المحاربين.

فَرْج

«هل هي كلمة بذيئة؟ بذيئة جدًّا؟».

انفجر باولو وأنجلو بالضحك من سؤال نيكي ولهفته لمعرفة الجواب. كانوا عائدين إلى المنزل في نهاية يوم من أواخر الربيع بعد ساعة من التمرين في ملعب الكنيسة القريب. كانت لهم رائحة عرق كريهة.

فكرة الاستحمام بالماء البارد عندما يصلون إلى المنزل كانت تزعج ثلاثتهم، عدا عن أنهم كانوا متعبين جدًّا.

- أجل.

أجاب باولو بصوت جليل:

- كلمة بذيئة جدًّا. إياك أن تذكرها أمام والدك.

رغم الإعياء الشديد، عينا نيكي لمعتا بابتسامة نحو باولو. لقد تعلم شيئًا جديدًا. سأل من جديد:

- فرج! ماذا تعني؟ وكيف تنطقها بشكل صحيح؟

قال باولو حائرًا:

- ما هذا التلكؤ؟ قل فرج وهذا كل شيء. الجميع سيفهمك.

كانوا قد اقتربوا من منزل أنجلو ونيكي الذي لم يكن يبعد عن منزل باولو كثيرًا.

أومأ أنجلو برأسه لباولو من خلف ظهر نيكي:

- اذهب واغتسل. سأذهب مع باولو إلى بيته قليلًا. عندما أعود أرجو أن تكون قد انتهيت كي أتمكن من الاستحمام.

- لا، سوف آتي معكما. نغتسل لاحقًا.

- افعل ما أقول لك وإلا... اللعنة...!

هدده شقيقه وهو يمطره بالسباب والشتائم.

- وإلا ماذا؟

- في المرة القادمة اذهب مع رفاقك ولا تأتِ معنا.

كان على نيكي أن يستسلم أمام هذا التهديد. عاد إلى المنزل وتابع الصديقان طريقهما، يتحدثان عن التمارين والامتحانات القادمة، وأول فرصة ستسنح لهما للذهاب إلى حفلة تكون فيها فتيات.

اقتربا من منزل باولو. كان هناك درابزين حديدي يطل على الطريق الرئيس للحي، يفضي إلى الطريق من جهة، ويتابع هبوطه إلى الرصيف من الناحية الأخرى. تمر السيارات تحته مسرعة في الاتجاهين، إما في طريقها إلى العاصمة، أو قادمة منها.

بدأ الشفق يتلاشى ويحل مكانه الظلام، رائحة العرق جفت تمامًا. شعرا ببرودة المساء تلسع أطرافهما المكشوفة. اتكآ لبعض الوقت على الدرابزين يراقبان حركة المرور.

- أخوك هذا شيطان صغير.

- أرجو ألَّا تشيع الأقاويل حوله.

- أرادني أن أخبره ماذا يعني فرج! لماذا لم يسأل والدك؟

- سألك لأنه اعتقد أنك تعلم الإجابة.

- وأنت، ألا تعلمها؟!

- لم يعد يصدقني. يعتقد أنني أكذب عليه.

- أي كذب! هل سبق أن شاهدت فرج امرأة؟

- لدي صورتان مذهلتان!

- لا أتحدث عن الصور. عن فرج حقيقي!

- وأنت؟

كلاهما التزم الصمت كي لا يُصرِّح أحدهما بالحقيقة للآخر. على الأقل في هذا الوقت. ازدادت البرودة وتلاشت طاقة التمارين والألعاب الرياضية.

- أعتقد أن والدي ما زال يحتفظ بذلك الفيديو الذي ذكرته لك. (عميقًا في الفم). أظنه يخبئه في أحد الأدراج.

- أحضره كي نشاهده.

قال أنجلو مستغربًا. ما مدى جدية والد باولو! ففي النهاية هو أب، وقد أنجب أبناء، إذن لا بد أنه... احتفظ بهذه الأفكار لنفسه.

مط صديقه شفتيه.

- لن يكون الأمر سهلًا. لكني سأحصل على فيديو رائع قريبًا. فيه ثلاث نساء ورجل، عراة تمامًا، ويفعلون كل شيء. لكن علينا إيقاف الصوت كي لا يُفتضح أمرنا. هل ترغب في مشاهدته؟

- أين؟ عندك؟

- لا، لأنهم سيشكون في الأمر.

- إذن عندي. لكن علينا أن ننتظر حتى يكون ذلك الشقي في المدرسة أو شيء من هذا القبيل. سأتصل بك عندما تسنح الفرصة.

- هل يمكننا سماعه بالصوت؟ فيه الكثير من أنين النساء.

- وهل هناك مشاهد للفرج؟

- أخبروني أن هناك مشاهد مُقرَّبة ملء الشاشة. تبدو كأنها حقيقية.

- 10 -

إثارة

كانت الشمس تغرق في البحر الأزرق بهدوء خلف الشاطئ الممتد. جلس على شرفة الشقة التي استأجراها لقضاء أيام عطلة عيد الفصح، استرخى في المقعد وحدق في غروب الشمس. كانا قد شربا الكثير من الجعة والنبيذ خلال النهار رغم أنه كان يوم الجمعة العظيمة. كان الطقس باهرًا. تجولا بالسيارة في الريف حيث غمرتهما روائح الزهور والنباتات التي كانت تضيء الحقول بألوانها الدافئة. جاءت الأعياد متأخرة هذا العام، كان الربيع قد توغل قليلًا.

كانا قد أكلا بشهية في الظهيرة ولكن ليس بكميات كبيرة. ربما بسبب كثرة ما قُدم لهما من أطعمة؛ حساء السمك الفاخر مع المكرونة بالجمبري المطهو على نار هادئة... كانت صحبتها تعجبه من دون أن يقلقه ما قد يحمله الغد. ربما أفرطا في الشراب ولكنه لا يعتقد ذلك، لأنهما حضرا إلى نفس المكان في مرات سابقة لقضاء عطلة الأعياد، ولم يُفرِطا في تناول الخمر.

استرخى على المقعد وأخذ يحدق في الشفق، كان على وشك مناداتها لتشهد غروب الشمس، لكن الأصوات الصادرة من خلفه أعطته الانطباع بأنها منهمكة في ترتيب الشقة. كانت تعد القهوة. عرضت عليه كوبًا، اعتذر. ذهبت إلى الحمام. أخرجت الطعام الذي اتفقا على طهوه هذا المساء من الثلاجة. طالعت الصحف الإنجليزية التي تركها النزيل السابق في الشقة. قرر أنه سيشهد الغروب بمفرده. بعد ذلك سيسخر منها، فبسبب هوسها بتنظيف الشقة، فقدت روعة غروب قد لا تشهده مرة أخرى في حياتها.

مبالغة كهذه تتفق تمامًا مع سلسلة الخلافات والمشاجرات التي خاضاها على مدار اليوم، والتي رغب في إطالتها حتى المساء. كانت جزءًا من نشوة إجازة عيد الفصح. في أثناء تأمله بصمت إن كان كل شيء على ما يرام بدأت الشمس تغرق خلف الغسق الذي أخذ يتحول بسرعة من الأزرق إلى الرمادي

ثم إلى السواد الداكن. توقفت الأصوات التي كانت تصدرها من خلفه لترتيب الفوضى العارمة التي تركاها في الصباح عندما غادرا في عجلة، لأنهما استيقظا متأخرين وكانا عازمين على القيام بما اتفقا عليه بالأمس.

* * *

- مارجون، توقف، توقف.

كيف يتوقف؟! كان يتذمر من نينا ولا يتذكر حتى حول ماذا. استغرقه الأمر بعض الوقت ليدرك أن الصبي قد ابتعد. عندما يبدأ في الجري لا شيء يوقفه. لحسن الحظ، لم يكن هناك الكثير من الأسر في الحديقة هذا الصباح بعد. كان قد أحضرهما في وقت مبكر عن قصد، رغم تذمر نينا بأنها ستفقد الرسوم المتحركة المفضلة لديها. قال لها:

- دعكِ من الرسوم المتحركة، هيا نشاهد الزهور والإوز.

ركض خلف مارجون عبر الممر المرصوف بالحجارة. كان يخشى أن ينحرف جانبًا، أو لا يتمكن من التوقف في الوقت المناسب ويسقط في أحد الأحواض المليئة بالصبار التي تملأ المكان. نينا أيضًا ركضت خلفهما وهي تصرخ منتحلة دور الأم:

- مارجون، مارجون.

مما جعله يتمادى في تجاهلها. مارجون لم يسقط في أحواض الأشواك، بل توقف عند نهاية الممر، وانتظر حتى وصولهما. ابتسامة الانتصار على وجه الصبي أطفأت غضب والده الذي كان يلاحقه خشية أن يتعثر ويتأذى. وبَّخه بشدة، لكنه هو نفسه لم يفهم نبرة الضعف في صوته، لأن مارجون بقي مبتسمًا. تدخلت نينا غاضبة لأنه تجاهلها، متقمصة نبرة الأم:

- هذا الولد شقي جدًّا.

حاول مارجون إغاظتها لكنه تراجع لأنه لم يشأ أن يُفسد متعة الرحلة إلى هذه الحديقة الواسعة والجميلة. أدركت أن أحدًا لن يعيرها أي انتباه. أمسكت بيد والدها ومن دون أن تدرك أنها تابعت بنفس النبرة الأمومية، عطفًا على تذمرها منذ البداية:

- هل فهمت الآن لماذا كان علينا الحضور في وقت آخر؟! في هذا الوقت يعرضون «بات، ساعي البريد».

- سوف يعيدون بثه هذا المساء.

قال لها.

- كم مرة عليَّ أن أخبرك بذلك؟

بعدما غادروا الحديقة، اتجهوا إلى محل في الجوار.

- إذن ماذا الآن؟ بوظة؟

أبرقت عينا الفتاة.

- بالفانيليا والشوكولاتة؟

- حسنًا. بالفانيليا والشوكولاتة.

مارجون لم يكن راضيًا:

- هل لديهم حلويات؟

- سألتهم سابقًا فقالوا إنهم لا يقدمونها يوم الأحد. لكن لديهم بعض الفطائر. هل ترغب في بعضها؟

وافق الولد على الفور فيما ظلت نينا تنظر إليهما حائرة.

- هل يمكنني تناول المعجنات أيضًا؟

سألت بصوت خالٍ من أي نبرة أمومية.

- هل تريدين البوظة؟

- أريد المعجنات والبوظة معًا.

اعترض مارجون بشدة. المعجنات كانت طبقه المفضل هذا الصباح. نشب خلاف بينهما تَطَلَّب بعض الدبلوماسية لتسويته قبل أن يشرع الولدان في التهام الفطائر والبوظة.

* * *

سألته مستلقية فوقه، وجهها على بطنه:

- ما الذي ترغب فيه؟

- افعلي ما يحلو لكِ.

- لا، أخبرني ماذا يعجبك.

ظل يصر على أن تقوم بفعل ما تراه ممتعًا. مررت شفتيها أسفل بطنه، ثم بدأت تلثمه من سُرَّته صعودًا إلى صدره حتى عنقه. انكمش قليلًا.

سألت وهي تلعقه بلسانها من أسفل صدره حتى عنقه هبوطًا وصعودًا:

- هل هذا ممتع؟

توقفت عن لثمه بلسانها وبدأت تنقل شفتيها من صدره إلى أسفل بطنه في قُبُل خفيفة، قُبلة تلو الأخرى، مثل أجنحة فراشة تهم للانتقال إلى مكان آخر بعد أن احتُجزت خلف حاجز زجاجي. في أثناء انغماسها في منحه أكبر قدر من المتعة، لم تلاحظ أنه في خضم النشوة، ورغم تواصل أنامله على صدغيها، ترشدها أين تلامسه، قد شرد بفكره بعيدًا. شعر أنه يغرق في فقاعة من المتعة لا تعني شيئًا سوى متعة مجردة ولا شيء أكثر، ولا علاقة لها بالزمان أو المكان، هو وهي فقط، والفراش الذي يجمعهما. كان من الممكن أن تكون أي امرأة عابرة متمرسة في الجنس، وهو أي رجل عادي، والمتعة التي تمنحها له مجرد هدية مجهولة لا ذاكرة لها أو مستقبل، وليس عليه حتى تذكُّر أنهما يلتقيان بانتظام في هذه الشقة للقيام بما يفعلانه. وفقًا لها، ذلك يساعدها على نسيان تجاهل زوجها لها وتجاهلها له. كلاهما كان يعلم ماذا يفعلان وماذا يريد أحدهما من الآخر، من دون أي أوهام أو رومانسية. أرادا المتعة كتجربة مجردة ولكن ملموسة، ماذا أروع من ذلك؟ وهذه بالتأكيد لم تكن من صنيع بنات أفكاره. من أين جاء بها؟ أين قرأها؟ بالتأكيد في روايات جابرييل دانونزيو عندما كان مراهقًا. لكن هل من الممكن أن يتذكر شيئًا لم يفهمه تمامًا عندما قرأه؟ بدأ جسده يتكور تحت مداعباتها المستمرة بين قُبُل خفيفة وحفيف لسانها. في النهاية، عندما تمادت شفتاها وأطبقت على عضوه كان عليه أن يوقفها بسرعة، وإلا!

* * *

كانت الكنيسة مكتظة لكنهم وصلوا مبكرًا بما يكفي ليجدوا مكانًا في الثلث الأول على يسار المذبح. في ذلك الوقت، كان والداهما ما زالا يتواعدان،

وبالنسبة للأخوين، كانت هذه الزيارة الليلية للكنيسة مغامرة جديدة ومثيرة للاهتمام. بجانبه وعلى عكس العادة، حيث يتذمر باستمرار، جلس نيكي هادئًا، ينظر حوله مستغربًا. في الواقع، أنجلو أيضًا شعر كأنه لم يدخل هذه الكنيسة من قبل. مثل أخيه، شاهد الزخارف وتساءل من أين سيأتي الشماس الذي سيلقي العظة، وما إذا كان حقًّا سيصعد إلى تلك الشرفة الخشبية ذات الدرجات الخشبية أيضًا، وهو هيكل وفقًا لوالدته يُسمى المنبر، لم يفهم قَط ما الذي تعنيه لأنه كان يظن أن كلمة منبر هي اسم قديس. تفاجأ الأبوان لأن الولدين ظلا هادئين، ففي العادة دائمًا يلكز أحدهما الآخر أو يقرصه أو يدفعه. الحضور إلى الكنيسة هذه الليلة لم يكن السبب الوحيد لصمتهما. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك لهفة انتظار للغد، وماذا سيحدث في الليل عندما يكونا نائمين، رغم أنهما لم يكونا مقتنعين بأنهما سينجحان، تعاهدا على أن يبذلا قصارى جهدهما للبقاء مستيقظين.

عندما بدأت الطقوس لم ينتبه أنجلو. كان منغمسًا في لعبة يمارسها مع نفسه. اللعبة على النحو التالي: كان يقول لنفسه: بحلول مساء الغد، سأفعل كذا وكذا وكذا... ومجرد تخيل ما سيقوم بفعله كان يملأه بالنشوة: «بحلول الغد في مثل هذا الوقت سأستمع إلى عظة عيد الميلاد؛ ماذا تكون هذه حقًّا؟».

«سوف نعود إلى المنزل بعد منتصف الليل، قد نغفو أو نبذل قصارى جهدنا حتى لا نغفو، ثم نصحو لنرى ما أحضره لنا بابا نويل. وربما نذهب لمشاهدة فيلم، ونحصل على المزيد من الهدايا، ونأكل ديكًا روميًّا، والكعك، والكثير من الحلويات، ونلهو بالهدايا التي تلقيناها، وسنفعل...»، وكل هذا سيكون قد حدث حتى الغد. عندما كبر اندهش كيف أنه في تلك السن كان يدرك أن اليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة تكرر نفسها يومًا بعد آخر. ليست المرة الأولى التي يعيش فيها على وقع اقتراب أربع وعشرين ساعة من الفرح. وفي كل مرة يفعل ذلك، كان يشعر أن الإثارة تتضاعف رغم أنه لا يملك تفسيرًا لذلك. كيف يمكن للإثارة أن تصبح أكثر إثارة كلما فكرت فيها؟ أعجبه الأمر

لدرجة أنه قرر أنه طوال مكوثه في الكنيسة سيفتح نوافذ مخيلته على مصارعها حول ما سيفعله منذ الآن حتى الغد في مثل هذا الوقت.

أيقظه نيكي من أحلامه الجميلة بلكزة من مرفقه، بل اثنتين.

- انظر، صعد الصبي الشماس.

لو لم يلكزه شقيقه لما تنبه أن الوقت قد حان لعظة الصبي، وأنه كان سيفقد إحدى المتع الأولى حول ما سيحدث في مخيلته خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة.

* * *

أدخل الفقرة الأخيرة من دون أي تغيير فيها؛ وضعها كما كانت تتراءى له خلال الأشهر القليلة الماضية. كان عليه أن يحسم النهاية وهذا ما فعله. منذ ذلك الحين، وبعد ظهور هذه الفقرة على الكمبيوتر الخاص به، اعتبر أنه قد أنهى هذه الرواية التي امتصت الكثير من حياته طوال السنتين الماضيتين. هذه ليست أول مرة، كان يقول لنفسه كلما اقترب من نهاية إحدى هذه الكتابات الطويلة. قرأ الفقرة مرتين أو ثلاث مرات كما هي مكتوبة على الشاشة، كما كانت تتراءى له خلال تلك الأسابيع عندما بدأ اليأس يغزو رأسه بأنه غير قادر على حياكة النهاية. الآن، الفقرة أمامه، كختم ضمان أن الرواية قد اكتملت. قد يبدل -كما سيفعل في الأسابيع القادمة- شيئًا هنا أو هناك، وكل جملة حيث يمكنه الارتقاء بالأسلوب، كما يمكنه حذف حادثة ما لأنها فائضة عن النص. مهمة ليست باليسيرة مع مراعاة حقيقة أن العمل قد اكتمل.

نشوة الخلق» هذا ما كان يطلقه على تلك اللحظة، من دون أن يتحدث» عنها أبدًا مع أي شخص آخر، كي لا يظنوه متغطرسًا أو مختل العقل. لقد انتهى لتوه من إنشاء عالم قائم بذاته، مُغلَق على نفسه، ولكنه عالم حي، وبإمكانه رؤية جميع طبقاته أمام عينيه، على نطاق امتداد القصة التي تَمَكَّن من التعبير عنها بالكلمات التي اختارها بعناية، وتلك المساحات التي ظلت مبهمة، لأن التعبير عنها تم بكلمات غير واضحة، بل مكتوبة عن قصد كي تسمح للعقل الباطن للقارئ كي يبني الأحداث كما يحلو له. وهكذا، يكون قد

زج بالقارئ في عالم لم يكتب عنه، ولكنه ترك آثارًا يمكن للقارئ تخيلها وتتبعها كجزء من السرد.

كان على هذه النصوص أن تتصارع وتتشابك حتى تزيد من نور وظلمة النص عندما يبدأ ينبض بالحياة بين يدي القارئ. النص الذي كتب للتو كلماته الأخيرة، كلمة كلمة. وجميعها محفورة سابقًا في ذهنه منذ أشهر عديدة، جاهزة لإتمام عملية الخلق. يمكنه الآن ترك هذه الكتابة بمفردها كي تعتني بنفسها، بمعزل عنه وبعيدًا عن حياته الخاصة.

في تلك الأثناء، كان يمكنه الشعور بالانتصار على كل أولئك الأصدقاء والأعداء، وغيرهم ممن لم يكترثوا به، وأولئك الذين استغربوا بل وثرثروا بأنه كان عليه أن يكرس كامل حياته من أجل الارتقاء في الوظيفة وجني المال من أجل الأسرة. لكنه اقتنع بوظيفة متواضعة حيث لا يشتم ولا يطلق روائح كريهة. لكن السعادة العارمة التي غمرته في تلك اللحظة، مهما كان متغطرسًا، تجاوزت أي شعور بالانتصار على الآخرين، بل على العكس من ذلك، فقد شعر بنفسه وحيدًا في تلك اللحظة التي ينظر فيها مندهشًا تمامًا إلى ما صنعت يداه.

* * *

- 11-

خنزير

كانا من أوائل من حضروا إلى العريشة التي بمرور الزمن تحولت إلى غرفتين شُيدتا داخل حقل مهجور من دون تصريح، كانوا قد التقوا بين الحادية عشرة صباحًا والرابعة بعد الظهر لشواء خنزير وُضع في الفرن منذ الفجر، كي يلتهموه بنهم ويشربوا الخمر بشكل أعمى.

كانوا مجموعتين من الأصدقاء، لأن الدعوة وُزعت من أعضاء في كلتا المجموعتين، إحداهما تشجع فريق كرة قدم إيطالي، والأخرى مكونة من موظفين في الحكومة والبنوك. عندما يحدث ذلك عادة، تنحسر النشوة. لكن ذلك لم يحدث. حقيقة أن الرجال لم يلتقوا سابقًا جعلت المناسبة أكثر حيوية. نيكي حضر كعضو في المجموعة الأولى ودُعي أنجلو في اللحظة الأخيرة من قبل أصدقاء في المجموعة الثانية يعملون مثله في الحكومة، ويجتمعون أحيانًا للعب كرة القدم أو البلياردو.

كان الشقيقان يسعدان بهذه اللقاءات غير المرتبة، رغم أنهما لم يجدا الوقت الكافي للتحدث معًا بسبب كثرة الحاضرين. في الخلف تناثرت الحقول والتلال خلف بلدة الرباط، مما أدى إلى تهدئة الفوضى التي كانت على وشك أن تندلع. منظم الوليمة حرص على إحضار نبيذ أحمر معتق، والذي سرعان ما تسلل مفعوله إلى عقول المدعوين. كان الخنزير كبيرًا ويستغرق وقتًا أطول في الشواء. كانت رائحة الدهون تنبعث منه بقوة لتضاعف من جوع الحاضرين.

قال نيكي:

- لم أكن أعلم أنك تعرف كل هؤلاء.

- لا تنسَ أنني أعرف الجميع.

- ولكنك اختفيت تمامًا من المشهد، الجميع يقول ذلك. أقول لهم بأنك بلا شك تكتب رواية جديدة، بما أنك ظللت تأخذ الكتابة على محمل الجد.

- حسنًا أخبرتهم. لكني لا أدري ما إذا كان هذا سبب اختفائي من المشهد!

(كان أنجلو يتساءل: لماذا لم تخبرني مورين أن نيكي سيكون هنا هذا المساء؟ لدينا أربع ساعات على الأقل كي نلتهم هذا الخنزير، لو كنت أدري).

- اتصلت بك منذ يومين لكنك لم تُجِب، اعتقدت أنك في الخارج.

- كم تمنيت ذلك!

نيكي كان يرتدي ملابس أكثر أناقة من الآخرين؛ قميصًا مخمليًّا داكنًا وبنطالًا جينز عصريًّا. في الواقع، بينما كانا يتحدثان، اقترب أحدهم محاولًا الإيقاع به:

- هل ظننت أنك قادم إلى حفلة الملكة؟ ماذا لو تقدمت إحداهن و...؟

نيكي لم تزعجه النكتة.

- لا تقلق. سأفتح عيني جيدًا يا رفيق.

اقترب رجل آخر صديق لهما، أو على الأقل كانا يعرفانه ويعرفهما، قال لهما:

- سوف نأكل خنزيرًا. نحن أيضًا خنازير. لكن الخنزير إذا قصصت ذيله يبقى خنزيرًا، أليس كذلك؟

كان ثملًا قليلًا.

نيكي ظل مبتسمًا.

- بالذيل أم من غير الذيل، لا تظن بأني سآكل أقل منك الليلة.

أجابه نيكي وهو يغمز لأنجلو. وبعد أن غادر الرجال قال لأخيه:

- بعد الوليمة، إذا لم يسكرني الشراب، لدي زيارة مهمة عليَّ القيام بها.

ثم أتبع كلامه بغمزة تصب في سياق الغمزة الأولى.

بعد ذلك بقليل، بدأوا بتقديم الأطباق المكدسة بلحم الخنزير الدهني والبطاطس المشوية. تقدم نحو أنجلو رجل في مثل عمره، سمين بعض الشيء، وله مظهر طفل مندهش تمامًا من كل ما حوله. قدم نفسه كمحاضر جامعي يود طرح بعض الأسئلة عليه حول مؤلفاته. في البداية سُر أنجلو باهتمام الرجل؛ شيء كهذا كان حتمًا يرضي فضوله، مهما حاول إخفاء

الحقيقة. أعجبته فكرة أن يأتي أحد لا يعرفه ويُظهِر هذا الاهتمام بأعماله، رغم أنه عندما تمحصه جيدًا تذكره على الفور، فهو يقدم برنامجًا على إحدى محطات الراديو الخاصة، مليئًا بالشعارات المزيفة حول أفكار عقيمة. سرعان ما بدأ يضايقه الرجل الذي ربما قرأ كل رواياته -من يدري؟! ربما قرأها دفعة واحدة لعلمه أنه سيقابله هنا. ربما قاموا بدعوته الليلة كي يحاصره بأسئلته الخبيثة؟ والأسوأ من ذلك، يبدو أنه قد فهم كل ما قرأه بعكس ما قصده الكاتب (أي أنجلو) أو بطريقة لا معنى لها على الإطلاق عندما تضعها في سياق الكتابة بشكل عام.

في البداية حاول أنجلو أن يحضر حججًا مختلفة عن تلك التي ذكرها الرجل، لكن من دون جدوى. من الواضح أن المتحدث لديه الكثير من الأفكار السابقة حول الموضوعات التي يريد طرحها، لدرجة أنه لا جدوى من مناقشتها. الرجل السمين الذي لديه مظهر طفل مندهش كان يتوقع من أنجلو أن يتفق معه، لكن أنجلو سرعان ما تضايق وأخذ ينظر حوله في الحقل المليء برجال واقفين وآخرين جالسين على صناديق المشروبات الغازية ومقاعد مترامية حول موائد صغيرة مربعة من المعدن الصدئ المطلي باللونين الأحمر والأزرق المنتشرة هنا وهناك. بحث بعينيه عن نيكي. «أين اختفى؟»، ثم شاهده في طرف الجدار الحجري، يلتهم الطعام مع بضعة رجال ويضحك بشدة على شيء قاله أحدهم. بدا في عجلة من أمره. أنجلو يعلم أنه على وشك المغادرة، وأن هناك أحدًا ما في انتظاره. لم يلاحظ أقرانه أنه كان مستعجلًا، لكن لماذا لم تدرك مورين أن نيكي قد يتأخر هذه الظهيرة؟ ولماذا لم تذكر له شيئًا؟

في النهاية تخلص من رجل السرطان الجامعي. ترك طبقه على مائدة بجانبه، وصب كأس نبيذ وانضم إلى نيكي ورفاقه. نيكي بدا منسجمًا تمامًا كما لو أنه نسي أن ثمة امرأة في انتظاره، من يدري أين؟

وبابتسامة هادئة، استنشق أنجلو الهواء الخفيف المشبع بروائح الربيع الذي على وشك الانقضاء. نظر بسرور غريب إلى الحقول الخضراء من حولهم. كم

تمنى في تلك اللحظة أن يبتعد تمامًا عمن حوله، وعن الحياة الرتيبة والزائفة التي كان يعيشها. تمنى أن يتجول وحيدًا. شاهد أمام عينيه أودية خضراء عميقة تحت جبال مكسوة بغابات تتسلق حتى قمم الصخور الرطبة، في صف من التلال الكبيرة التي تمتد إلى الغرب بلا نهاية. من أين أتى هذا المشهد الذي تلاشى بمجرد أن تخيله؟ من أين؟

انضم إلى مجموعة نيكي. لم يكونوا يتحدثون في السياسة كما كان يخشى، ولكن يناقشون آخر التطورات في الدوري الإيطالي، ويتحدثون عن مباراة شرسة لا ينبغي تفويتها، ستُجرى في صقلية. قال أحد الرجال وهو يقضم لحم الخنزير وقد غرق ذقنه في الدهن:

- كم نحن سذج! إن كانت ستقام في صقلية فلماذا لا نذهب لمشاهدتها هناك بدل أن ننتظر إن كانوا سينقلونها على الهواء؟

- جميعنا؟

أجابه آخر ثمل أكثر من البقية.

- فكرة جيدة، سوف تكون مغامرة ممتازة.

فجأة ألهبت الفكرة خيال الجميع. أرادوا معرفة كيف يمكنهم القيام بذلك، ومن سينظم الرحلة. نيكي كان مثل الآخرين، مهتمًّا جدًّا بالاقتراح:

- رائع.

قال:

- ليس بنية كسب المال، أنا أتحدث بلا أي نيات مادية، إن وافقتم على قيامي بتنظيم الرحلة، فلدى وكالتنا الكثير من العلاقات في صقلية.

أجاب البعض على الفور أن هذه فكرة جيدة. لكن أنجلو، الذي كان يراقب نيكي من الجانب، أدرك أن شقيقه على أحر من الجمر للمغادرة في أقرب وقت ممكن.

رائحة الشواء الدهني تملأ المكان. الغريب في الأمر أن رائحة اللحم المشوي قد ازدادت قوة بعدما التُهم معظم لحم الخنزير وتُرك الفرن الذي

طُهي فيه الخنزير لينطفئ ببطء. لم يضعوا فيه مزيدًا من الحطب بعد تقديم اللحم ولم يعد يرغب أحد في المزيد.

في ذلك الوقت، تقرر الذهاب إلى صقلية لمن يرغب في الذهاب حقًّا. رجال فقط! سيشاهدون المباراة وسيلهون قليلًا معًا، لم لا؟ نيكي شجعهم على العمل على تنفيذ الفكرة، وطلب منهم أن يعتبروه واحدًا منهم، مهما كان قرارهم. ألقى بطبقه البلاستيكي الفارغ بعد أن كان قد ملأه مرتين بالطعام على مائدة مجاورة، مكدسة ببقايا اللحم والعظام والبطاطس المحمرة والأكواب والصحون والشوك والملاعق، وغادر على الفور.

فكرة الذهاب إلى صقلية أعجبت الجميع. حاول أنجلو، من دون إزعاج أحد، التظاهر بأنه موافق على الفكرة، لكنه ترك إجابته معلقة كي يتسنى له لاحقًا الانسحاب من المغامرة. آخر ما كان يود فعله هو مرافقة هؤلاء الرجال في عطلة نهاية الأسبوع في مغامرة من الشراب وتناول الطعام بلا توقف، ثم تلك المباراة التي رغم كل ما قاله أمامهم، ليست ذات أهمية بالنسبة له. لإخفاء ضيقه، ملأ كوبه البلاستيكي بالنبيذ من جديد، رغم أنه أفرط في الشراب أكثر مما ينبغي. لكن لم يكن لديه مكان آخر ليذهب إليه.

لم يدرك على الفور أن الهاتف كان يدق في جيبه رغم أن الهواتف النقالة كانت حديثة العهد وكبيرة جدًّا. استغرقه الأمر بعض الوقت كي يخرجه من جيب سترته، فاعتقد أن المتصل سيقفل الخط. من كان سيتصل به في عصر يوم السبت؟ سمع صوت امرأة مرتبكة وفي خضم الجلبة من حوله استغرقه بعض الوقت حتى تعرف على صوتها:

- دينيس؟! ماذا حدث؟

- مارجون، مارجون، إنه في المستشفى! أخبريه.

- ما الذي حدث؟ ماذا حدث؟

بسبب النبيذ الذي شربه، والنبرة الهستيرية في صوت دينيس، شعر بالدوار.

الآن كانت نينا على الهاتف، كانت تتحدث أيضًا بلهفة، لكنها على الأقل تمكنت من إفهام والدها ما كانت تقوله:

- مارجون أصيب منذ قليل، كان يلعب كرة القدم وسقط على رأسه، هو في المستشفى.

- سأكون هناك على وجه السرعة.

رغم أن الباقين كانوا في حالة سكر شديد ومنشغلين برحلة صقلية، فإنهم تنبهوا لأن هناك شيئًا ليس على ما يرام. التفت البعض إليه:

- ماذا حدث؟

أخبرهم باقتضاب وغادر مسرعًا.

خلوة

شاهدا التلفاز معًا لساعة تقريبًا -حلقة طنانة من برنامج «الحافلة» حول تعاطي المخدرات والتي أزعجت مارجون. أخذ يدير الأزرار طوال الوقت ليرى ما تعرضه المحطات الأخرى. أنجلو تضايق من سلوك ابنه لكنه لم يقل شيئًا لأنه كان سعيدًا حقًّا بزيارة ابنه بشكل غير متوقع. تناولا معًا بيتزا «الفصول الأربعة» التي طلبها أنجلو قبل أن يعلم بوصول ابنه، كانت كبيرة جدًّا لشخص واحد، عدا عن أن البيتزا وصلت في نفس الوقت مع مارجون.

في أثناء انتظارهما لتسخن في الميكروويف، سأله أنجلو متوجسًا:

- هل حدث خطب ما؟

أجاب مارجون ضاحكًا:

- لماذا؟

- يبدو أنك قلق بشأن شيء ما!

تابع مارجون الضحك:

- على العكس، لدي أخبار جيدة.

- لا تقل لي إنك تنتظر مولودًا؟

بعد أن طرح السؤال، تمنى لو أنه ابتلع لسانه. منذ مدة وهو يردد هذه العبارة الفارغة، من دون أن يكترث بما إذا كانت تُضايق مارجون. والأسوأ من ذلك، أنه لم يدرك أن ابنه بدأ يعتبر النكتة كحيلة من والده كي يتصوره كما يريده هو، رغم أن مارجون بمرور الزمن، لم يعد يكترث لما يظنه والده حوله.

- إذن تلك الخلوة في العشرة أيام الماضية؟ عندما سألت عنك، قيل لي إنك تستمتع بوقتك في ميلان.

- هذا ما أخبروك به؟ خلوة؟

ردد مارجون ضاحكًا، ثم أطفأ التلفاز نهائيًّا. يبدو أنه كان ينتظر الفرصة ليُصرح بشيء ما. تناول حصته من البيتزا ولم يرغب في قطعة أخرى بعد أن شبع والده. (لكن في واقع الأمر ربما كان هذا مجرد تبرير قدمه أنجلو لاحقًا لنفسه لما دار بينهما، متظاهرًا باللا مبالاة كلما كانا معًا، من أجل معرفة المزيد عن حياة ابنه مارجون).

- فعلًا كانت خلوة كبيرة! ولكن هل تدري لماذا؟ لقد حصلت على عقد شركة ويكستيل! لقد منحوه لنا. سنبني منصات لجميع تعاملاتهم المالية داخليًّا وخارجيًّا. ما رأيك؟ لم تتمكن أي شركة مالطية من بلوغ هذا، لا مع ويكستيل ولا مع أي شركة عالمية أخرى.

ماذا بوسعه أن يفعل سوى أن يفرح لابنه؟ إن كان مارجون قد حضر إلى هنا بحثًا عن الثناء فليكن كذلك. فهو في النهاية يستحق ذلك. أصغى إلى توضيحات ابنه عما يتضمن العقد لكنه لم يفقه شيئًا. الحوسبة بالنسبة له بقيت مقتصرة على الكمبيوتر الذي يعمل عليه في المكتب أو في المنزل. بخلاف ابنه مارجون، الذي غاص عميقًا في هذا المجال. عندما فرغ أخيرًا، لم يدرك أن كل ما فهمه والده هو أن العقد الذي وقَّعه للتو سيضعه أمام مهمة دقيقة وأنه إن نجح فيها، فسيصبح نجمًا في عالم تكنولوجيا المعلومات. الآن أدرك أنجلو سبب سعادة مارجون العارمة. كان يدرك محدودية فهم والده بعلوم الكمبيوتر وكيف تُدار الأعمال إلكترونيًّا، لكنه ظل يثرثر منتشيًا حول ما حققه في ميلان، منتظرًا التهاني من أبيه.

رغم سعادته بإنجازات مارجون، فإن أنجلو بدأ يشعر بالإرهاق، أو بالأحرى بالضيق، لأن برنامجه لهذا المساء سوف ينهار. بعد البيتزا، كان لديه أمران؛ أحدهما، مراجعة قصة قصيرة حول بناء مقبرة للمرة الألف، لكنها تأبى أن تخرج كما يريدها. ثانيًا، كان ينوي مشاهدة فيلم إباحي أسلفه له صديق في العمل. أدرك أن كل هذا سينتهي إلى هباء لأن مارجون ما زال لديه شيء آخر ليقوله لكنه بحاجة إلى مزيد من الوقت. ماذا بقي في جعبته؟

فهم أخيرًا عندما فاجأه ابنه:

- هل يمكنك مساعدتي؟

تفاجأ لدرجة أنه شعر أنه يغرق في الكنبة، لا يدري ماذا عليه أن يقول. مارجون يطلب مساعدته؟ لم يحدث هذا قَطّ.

- أنا بصدد إعداد كُتيب صغير عن العلامة التجارية وبحاجة إلى شيء جيد، شيء لا يخاطب المهتمين بالمجلات التي تصدر مع الصحف، بل من يرغب حقًّا في الانضمام إلى الشركة؛ الشباب الواعد هنا في مالطا، وحتى في الخارج إذا لزم الأمر. سيتعين علينا توظيفهم لمواكبة العمل. نحتاج إلى مادة إعلامية تقدمنا إلى من يدير الشركات في الخارج ممن نرغب في التعاقد معهم على بعض أجزاء من العمل. هل تفهمني؟ أنا بحاجة إلى عرض تقديمي من شخص يجيد الكتابة ويعلم أين يضع الكلمات.

- إذن أنت بحاجة إلى شركة علاقات عامة جيدة.

- صحيح، لكني أفضل الذهاب إليهم بنص جاهز. لا أريد أن يكتبوا هم النص. بالنسبة لهم، لا فرق إن كانوا يكتبون عن عطر أو شقة جديدة، فالأمر سيان. أريد شيئًا مختلفًا مكتوبًا بشكل جيد.

- وتتوقع مني أن أقوم بذلك؟

- لم لا؟

- ليس لدي أي خبرة في إدارة الأعمال كما تعلم، ولا أفقه أي شيء في عملك يا مارجون، بالتأكيد تفهمني.

- لا يهم. بل هذا حتى أفضل!

- أفضل؟ لم أعمل قَط في الدعاية.

- لكنك كاتب بارع.

نظرة

عندما دخلوا إلى حجرة الجد، نيكي بدا مترددًا ولم يَقُل شيئًا على الإطلاق، انفجر في البكاء. لم يتمكنوا من إخراجه لأن الرجل كان يحتضر. التقطته أمه وحملته بين ذراعيها. أنجلو دخل خلفها لأنه كان خائفًا، لا يدري مِن ماذا.

طوال مكوثه في المستشفى، تدهور جسد الرجل العجوز الذي أصبح نحيفًا وغائر العينين، وتكسو وجهه بقع بيضاء سرعان ما أدرك أنجلو أنها بسبب سوء الحلاقة. أكثر ما أثاره هو الخرخرة التي تخرج من صدر جده الذي يعاني صعوبة كبيرة في التنفس. أراد الرجل المحتضر رؤيتهم مرة أخيرة، وبالكاد أمكنه التفوه بكلمة واحدة. أمسك أنجلو بيد أمه التي كانت لا تزال تحمل نيكي على كتفيها، وقد كان مرعوبًا جدًّا.

كان الجد ممددًا تسنده الوسائد خلف ظهره، ربما ليتمكن من التنفس بشكل أفضل. نظر إليهم محاولًا أن يقول شيئًا، لكن الغمغمة التي صدرت من شفتيه لم تكن مفهومة. بدا أن أنجلو فهم ما الذي يقصده جده من خلال التحديق إليه وإلى أخيه الذي ما زال يبكي، مخفيًا وجهه خلف كتف أمه التي كانت بدورها متوترة جدًّا، وانتهى بها الأمر إلى الخروج تاركة أنجلو وحده مع جده على فراش الموت. ظل الجد يكافح للتحدث إلى الصبي، ولكن لا شيء. لم يتفوه بكلمة واحدة طوال الوقت الذي كانا فيه بمفردهما، والذي لم يكن طويلًا، لأن والدته بطريقة ما تخلصت من نيكي المتشبث بها خارج الغرفة وانضمت إليهما مرة أخرى. خلال ذلك الوقت، تحدثت مع ابنها بنظرات متبادلة. أنجلو فهم سبب بكاء نيكي وحاول قصارى جهده ألا يجهش هو أيضًا بالبكاء.

* * *

«متى نظرَتْ إليه لأول مرة؟».

حاول أن يتذكر أين حدثت تلك النظرة الأولى وسرعان ما تذكر. كان قد حضر متأخرًا إلى حفلة يقيمها أحد الأثرياء الذي ظل ممتنًّا له بسبب تعامله المهني مع ملف مشاريع وأراضٍ أراد الاستثمار فيها بعد أن يستصدر تصاريح البناء، أنجلو تعامل معها وفقًا للقوانين ومررها من دون تأخير. ربما ما أثار دهشة الرجل الثري أن أنجلو لم يطلب شيئًا نظير ذلك. بمجرد أن دخل إلى الصالة، استقبلته روائح أشخاص مغتسلين جيدًا. كان على يقين من أن الجميع هنا يدلكون أجسادهم بالعطور والزيوت الفاخرة، وليس النساء فقط. في حقيقة الأمر، لم يكن يعلم سبب ذهابه إلى الحفلة، فهو الذي طالما كان يقول إنه يكره الطبقة الرفيعة. لكن في بعض الأحيان كانت تتملكه هذه الرغبة، هذا ما أسماه في قرارة نفسه، وتعمد استخدام الإيطالية. هذه الرغبة في أن يرى عن قرب كيف يعيش ويستمتع نبلاء المجتمع المخملي الذين لم يشكل المال قَط بالنسبة لهم عقبة. عندما وصل، كان الخدم على كلا الجانبين يقدمون له الكامباري والويسكي، والجعة بالتأكيد. اختار الويسكي، وعندما دخل في الحشد، انتبه لأنفه قليلًا: هل يشم رائحة الكوكايين أم أنه يتخيل؟ كان يظن أنه سينتهي به المطاف وحيدًا في هذا المجتمع، لكن حدث العكس من ذلك، فقد بدأوا يحيونه ويلاطفونه ويتحدثون إليه، وسرعان ما اكتشف أن هناك من يعرفه كمهندس معماري مسؤول عن البيئة، وقلة تعرفه ككاتب مالطي يُذكَر باحترام في بعض صحف يوم الأحد، وهناك من تذكره في برنامج تلفزيوني (حول مبنى غير قانوني في جزيرة قوزو) والذي كان أثار الكثير من الجدل.

سعد بهذا الاهتمام من أناس لا يعرفهم حقًّا. اهتمام لم يُشعِره بأنه وحيد في هذا الحفل حيث كان يتوقع أن يجد نفسه منعزلًا تمامًا. تذكر ما قاله له ذات مرة سياسي يساري يعرفه منذ أيام الدراسة: «في بعض الأحيان أجد نفسي محاطًا بأناس يشمئزون من رؤيتي وسرعان ما يديرون ظهورهم لي، وآخرين يبتسمون ويسعدون بالتقرب مني. الفئة الأولى هم الضيوف، والآخرون هم الخدم والنُّدل». ولكن هذه ليست هي الحال معه، فهو بالتأكيد

لم يكن سياسيًّا؛ كان يعتقد أنه سيكون غريبًا تمامًا بين هؤلاء، لكن الأمر لم يكن كذلك. لم يتعرفوا عليه فحسب، بل راحوا يعاملونه كأنه واحد منهم.

كل هذا كان من المفترض أن يسعده؛ ابتسامات الخدم، وكذلك الضيوف. في هذه الأثناء اشتدت رائحة الكوكايين في أنفه، أو هكذا تخيل. رغم هذه الجلبة كلها فقد كان متضايقًا. لم يكن في مكانه، ليس لأنه شعر بتهديد الضيوف الذين يقدمون له شهادة دامغة على أنهم يعيشون في عالم مختلف عن عالمه، وتمنى ببساطة أن يكون في عالم آخر. ثم شاهد مجموعة من الرجال والنساء يتجادلون وهم يحركون أذرعهم وأكتافهم. خلفهم داخل الصالة شاهد مجموعة أخرى من أربعة أشخاص؛ رجلان وامرأتان يرتدون ملابس أنيقة للغاية، في الثلاثين حتى الأربعين من العمر. هذا ما خمنه عن بُعد. إحدى النساء كانت طويلة القامة، متشحة كلها بالسواد، باستثناء عقد رفيع لامع من الكريستال حول رقبتها، حتى عينيها أيضًا كانتا سوداوين. لكن أكثر ما لفت انتباهه كان حاجبيها اللذين لم يكونا في خط رفيع وفقًا للموضة، بل تُركا سميكين وكبيرين. كانت تسند ظهرها إلى الحائط وهي تتحدث إلى الآخرين، فيما عيناها تجولان هنا وهناك. لاحظت نظرته إليها على الفور. بدا له أنها قد عضت شفتيها بمجرد أن رأته، لم يستطع تمييز أنها فعلت ذلك باشمئزاز أم باهتمام، أم كردة فعل عفوية تقوم بها أجسادنا منذ زمن سحيق كي نلفت انتباه الآخرين. لم يفعل أي شيء. غادر الحفلة من دون التحدث إليها أو معرفة من تكون. لكن تلك كانت أول مرة يتبادلان فيها النظرات.

* * *

- هذا ليس صحيحًا.

قالت ضاحكة كما شاهدها تضحك لأول مرة وهي تشد طوقها الأسود حول عنقها. عيناها ما زالتا كبيرتين وسوداوين تعطيان وجهها ملامح جادة حتى عندما تبتسم، كما تفعل الآن. تثيره جدًّا.

- هل تعرفين بماذا يذكراني؟

سألها وهو يمرر أصابعه على حاجبيها في محاولة لتغيير الموضوع، رغم أنه لا يعلم سببًا لذلك.

- لا أتذكر تلك الحفلة التي تَذكُرها أو أنك كنت موجودًا فيها، ناهيك عن أنك لاحقتني بنظراتك. لا، لم تكن تلك النظرة الأولى التي تبادلناها، بل كانت قبل سنوات عديدة، عندما حضرتُ محاضرة ألقيتها عن روايتك «أنا والآخر»، هل تذكر؟ في ذلك الوقت كنت مهتمة كثيرًا بالأدب، حتى إنني أردت دراسته بعد الثانوية. كنت ما زلت صغيرة. لكن ألا تتذكر؟ جلست في الصف الأمامي كي أسمعك جيدًا، كنتُ قد حضرت مع الكثيرات من الفتيات. وكنت قد لاحظتني لأنك كنت تنظر إليَّ باستمرار. حتى عندما انتهيتَ من الحديث وسألت عما إذا كانت هناك أي أسئلة، نظرت إليَّ أولًا. كنت خجولة جدًّا كي أتوجه إليك بسؤال. في الواقع لم يكن لدي أي أسئلة. ألا تتذكر تلك المحاضرة؟

يتذكر تلك المداخلة جيدًا لأنها استحضرتها بعد سنوات عديدة. لكنه لا يتذكرها كطالبة خجولة مهتمة بأعماله.

ضحك كلاهما على الذكريات الزائفة التي احتفظا بها عن بعضهما، وعلى النظرة الأولى، وكان هذا دليلًا آخر على قصر العلاقة بينهما، كما شعر كلاهما أن عليها أن تكون.

حلم

احتشد الجميع على الجانب الأخضر من التلة حيث يقام المهرجان الصيفي. بدت الطائرات قديمة من تلك الارتفاعات البعيدة، كأنها من مخلفات الحرب العالمية الأولى، كتلك التي كان يطلقها كابتن بيغلز. كانت تحلق باللونين الأبيض والبُني في سماء زرقاء مضيئة. أحيانًا كانت تلوح سحب قطنية زرقاء بين الطائرات المحلقة، فتجعل السماء تبدو أكثر زرقة. كانوا قد توجهوا إلى التلة حيث احتشد معظم الناس. الطائرات أو مهما كانت، بدأت تتحول إلى أسطوانات كبيرة بلا أجنحة كالمناطيد، إحداها كانت تنخفض نحو سفح الجبل أمامهم تمامًا، بدت كبيرة جدًّا فوق رؤوسهم، وأشعرتهم أن هناك الكثير منها.

توقفوا للنظر إلى تلك السفينة الهائلة وهي تمخر السماء الزرقاء كما لو أنها سقطت من أحد كتب الخيال العلمي. أخذت تنزلق إلى جانب التل حيث شاهدها الآلاف بفرح عظيم. من كان برفقته يومها؟ مورين؟ أجل، وشخص آخر، امرأة أيضًا، نينا؟ غمر الجميع جو من السعادة، وكان برفقتهم نسوة أخريات، جلورما؟ ولكن كيف كانت جلورما حاضرة؟ جال ببصره حوله ليتعرف على رفاقه، فجأة خيمت قطعة من الظل الفاحم، حجبت الشمس لبضع لحظات. نظر إلى الأعلى مذهولًا. في هذه الأثناء كانت الأسطوانة الكبيرة تنخفض من السماء حاجبة الشمس في أثناء هبوطها البطيء. تابعت الحشود على جانبي التل بفضول شديد الأسطوانة التي تحوم فوقهم في السماء، في غضون ذلك، اختفت جميع الطائرات الأخرى. ثم تحول الفضول والفرح إلى ذهول. يبدو أن هناك شيئًا غامضًا وخطيرًا في هذا الطائر الأسطواني المعدني الذي لم يعد يحلق، بل يسقط ببطء نحو التل، وسط الحشد الذي سرعان ما تبدلت دهشتهم وفضولهم إلى ذعر كبير.

هرول الرجال والنساء في موكب صامت، تارة مسرعين وتارة على مهل، نحو نفق في الجبل سيأخذهم بعيدًا عن مسرح المأساة، ولكن أي مأساة؟ كانوا مذهولين من مشهد الرعب الذي وقع للتو، ولكن أي رعب؟ لأنه لا توجد رائحة انفجار، ولا رائحة أجساد متفحمة، ولا أحد يشعر بحرارة شديدة، لكن الجميع في صدمة. أخيرًا اصطفوا خلف من سبقوهم منتظرين دورهم للعبور إلى النفق. إحدى النساء التي كانت برفقتهم قالت: «لقد نسيت». من كانت؟ أمه؟ جلورما؟ كيف يمكن أن تكون جلورما؟ أم أمه؟ وماذا نسيت؟ من؟ جوزيف؟ «سوف أذهب لإحضاره»، قال. لكن سيُحضِر من؟ شَق طريقه وسط جموع الرجال والنساء والأطفال المتجهين نحو النفق في الجبل. سرعان ما ضل طريقه. لم يعد يعلم أين هو. شاهد وجوهًا شاخصة تحدق بثبات نحو النفق في أسفل التل من خلفه.

* * *

هيا بسرعة، لقد استيقظت متأخرًا. القطار على وشك المغادرة. سيارة الأجرة لم تصل بعد. اتصِل به، أرسِل له رسالة، ها قد وصل! -دعك من الحقيبة الأخرى الآن بما أنك لم تحزمها. دعها هنا- المهم أن تلحق بالقطار.

انسابت سيارة الأجرة برشاقة عبر الطرقات الواسعة التي بدت ضيقة في الضوء الرمادي تحت ناطحات السحاب، ناهيك عن البرودة الحادة. وصل إلى المحطة. هيا اركض، دعك من سائق التاكسي، اجلب الحقيبة بسرعة، اركض.

مسارب لا نهاية لها، وقطارات رابضة تلتحف البرودة والسواد. أيها قطاري؟ كيف سأعثر عليه بين كل هذه القطارات؟ ها هو هناك! ولكنه يغادر! أركض. إذا كان قطارًا كهربائيًّا فلماذا كل هذا البخار في المقدمة؟ أركض. أركض. الحقيبة ثقيلة جدًّا، ألم تتركها وراءك؟ القطار ينطلق.

* * *

عندما تتراكم المواد في الامتحانات، هناك الكثير الذي يتعين عليك القيام به. المحاضرات... الأسبوع المقبل... نسير في ممر طويل نحو القاعة. لكن ما زال من المبكر جدًّا... الأطروحة. هناك شيء لا أفهمه. لا، ما زال هناك متسع من الوقت... الامتحانات. عندما تتراكم المواد... هناك الكثير الذي يتعين عليك القيام به. المحاضرات... الأسبوع المقبل... نسير في ممر طويل نحو القاعة. لكن ما زال من المبكر جدًّا... الأطروحة. هناك شيء لا أفهمه. لا، ما زال هناك متسع من الوقت... الامتحانات. عندما تتراكم المواد... هناك الكثير الذي يتعين عليك القيام به. أين ذهبت المحاضرات...؟ الأسبوع المقبل... نسير في ممر طويل نحو القاعة. لكن ما زال من المبكر جدًّا... الأطروحة. الأطروحة. هناك شيء لا أفهمه.

- 12 -

لا مبالاة

كان يبحث عن شخص ما ليرافقه في إحدى المسيرات الكبيرة في ذلك الصيف، وجيرالدو أتاح له تلك الفرصة. بعد فترة طويلة من شجاره مع زوجته أو بعد أن تركته، عاد إلى حياة العزوبية التي لم تكن قد فارقته كثيرًا. تفاجأ الكثير عندما ترك حياة العزوبية ولم يتفاجأوا عندما عاد إليها بعد أقل من خمس سنوات من زواجه. أنجلو كان يدرك أن زميله في العمل كان متأثرًا بسبب انفصاله عن زوجته الذي حدث فجأة من دون سابق إنذار.

جيرالدو كان ممن يؤمنون بأن الزواج مرساة تلقي بها حول عنقك إلى الأبد. كان ما زال معجبًا بزوجته كامرأة. لكن أنجلو كان يشك في أنه هو من لم يعد يعجبها، لكنه لم يتفوه بأي شيء خلال فترات بعد الظهيرة التي كانا يمضيانها يحدقان في بعضهما بخمول. أحيانًا كان جيرالدو يبدأ بالتذمر بأنه لا يمكن فهم المرأة تمامًا، أو ما تريده بالضبط. هل تريد اللهو بلا تحفظ في السرير؟ أم مجرد الاستلقاء بجانبك بهدوء كي تتلو الصلوات أو تلتهم الشوكولاتة؟ في بعض الأحيان، حاول جيرالدو أن يصورهما على أنهما ضحيتا السياسة وقد أرسلوهما إلى هنا كنوع من العقاب. أنجلو كان يتجنب الوقوع في هذا الفخ، كما تجنب الوقوع في فخ التحدث عما تريده النساء. ما داموا يدفعون له مقابل ما يفعله حسب مقتضيات الخدمة، كما أوضح له رئيس الدائرة، فلم يكن يكترث كثيرًا. المهم أنه يتقاضى راتبه.

كان تفكيره منصبًّا على أشياء أخرى؛ الكتابة، والهدف التالي هو أن يكون قادرًا على كتابة شيء جيد، شيء يعجبه حتى بعد أن ينتهي منه. لقد أصبحت ساعات الفراغ ثقيلة جدًّا في هذا المكتب، ولا تنذر برواية جديدة. خيبة الأمل على وجه جيرالدو وكلماته المريرة المتواصلة عما آلت إليه أحوال حزبه، كانت تقوض رغبته في الكتابة. نشوة الأيام الخالية من العمل، تناقصت يومًا بعد يوم، بل أصبحت ترهقه. كان يأمل أن الأمور ستتغير يومًا، وأنهم سينقلونه

إلى مكان آخر، لذلك كان حذرًا في كل ما يقوله ويفعله، كي يقطع الطريق على كل من يتربص به.

كان بإمكانه الاستقالة، لكنه لم يفعل. في ذلك الوقت بدأت حصة العمل التي ورثتها دينيس عن أبيها في الازدهار. مبيعات الأثاث المستورد أخذت في الارتفاع بعد تخفيف قيود الاستيراد، ودينيس أثبتت نفسها في توسيع المنتجات المنزلية الأخرى التي كانوا يجلبونها من الخارج، وتمكنت من إدارة مشاريعها بنجاح رغم أن نينا ومارجون كانا ما زالا رضيعين. ورغم كآبة الأيام التي لم يكن فيها سوى القليل من العمل، عمل على تكريس وقته وأفكاره للكتابة. هكذا كانت المعادلة.

لا لأنه يكتب كثيرًا، أو بالأحرى كان يكتب كثيرًا ولكنه كان يلقي بالكثير مما يكتبه في سلة المهملات ويبدأ من جديد. في ذلك الوقت هكذا كان يكتب. كل عمل يقوم به كان يستغرق خمسة أو ستة أضعاف ما يلزمه من الوقت الذي سيفتقده بشدة في السنوات القادمة. رواية مينيه تيكيل أخذت منه كثيرًا من الجهد والوقت، لكنها لم تلقَ أي إشادة تُذكَر. حتى بين أكبر المعجبين به، اعتبروا أن مينيه تيكيل عمل غير قابل للفهم وضبابي وأطول مما ينبغي.

صادف أنه كان بحاجة إلى مشاهد فرح وسُكْر خلال مسيرات الصيف لإكمال روايته، وكان منذ مدة طويلة ينتظر الفرصة للدخول إلى قلب إحدى هذه المسيرات. واتته الفكرة عندما ذكر جيرالدو أن زوجته قد غادرت للعيش مع والديها وأنه لن يكون هناك من ينغص عليه يوم الأحد المقبل عندما يذهب إلى المسيرة، لا في الصباح قبل أن يغادر، ولا عندما يعود سكران حتى الثمالة.

قال أنجلو:

- سوف أرافقك.

جيرالدو رحب به على الفور. في الواقع لم يكن لديه من سيذهب معه، لأن السنوات القليلة التي أمضاها مع زوجته أبعدته عن الأصدقاء الذين كان يلتقي بهم سابقًا في أمسيات كهذه.

في منتصف الصباح كانا في منتصف طريق كبير مكتظ بالرجال والنساء وفتيات وشبان يحملون مناديل صفراء وخضراء، يقفزون من رصيف إلى آخر تحت أشعة الشمس المتزايدة في ضجيج المشاحنات والمسيرة التي تسير ببطء على إيقاع الفرقة الموسيقية التي كانت تقدم أفضل ما لديها.

سرعان ما أصبح من الواضح أن الكثيرين ما زالوا يتذكرونه جيدًا.

- جيرالدو! جيرالدو! انظروا! جيرالدو هنا!

بدأت التعليقات تأتي من كل الاتجاهات. في لمحة بصر أصبحا محاطين برجال وشباب يتصببون عرقًا.

- هل جئت للمبارزة جيرالدو؟

قال آخر:

- المشاجرات هنا نأكلها كالخبز.

قال جيرالدو:

- مشاجرات! لا مناكفات هذا العام، فقد استقرت الأمور الآن. ركزوا على إنجاح المسيرة.

أحد الرجال قدم له زجاجة جعة باردة، وعندما أدرك أن أنجلو برفقته، أحضر له واحدة أيضًا.

في البداية، كان أنجلو يخشى أن يشعر بالضجر في هذه الفوضى التي لا معنى لها، لكن ما حدث كان مختلفًا. شعر أنه سعيد رغم الحر والصخب والتعرق والروائح الكريهة. لم يصفق ويصرخ ويعانق الآخرين كما فعل الشباب داخل الحشد الذي يضغط عليهم في طابور بطيء خلف إيقاع الفرقة الموسيقية. ولأن الوقت كان ما زال مبكرًا، كانت الفرقة في ذروة نشاطها ولم تتوقف عن العزف، حتى عندما أُطلقت بعض القنابل الصوتية من على الأسطح المحاذية للمسيرة.

شعر بالسعادة والإثارة، لكنه لم يفهم لماذا. ربما لأنهما شربا قليلًا في البداية. كما أن الدعوات لم تتوقف:

- ها! جيرالدو، ما الذي أتى بك مجددًا؟ دعنا نحتسي الجعة في البار الذي في الزاوية.

جيرالدو كان يجيبهم:

- ليس الآن. في وقت لاحق.

ثم يسر لأنجلو:

- من الأفضل أن نبقى قليلًا مع المسيرة. ولندع هؤلاء يشربون، ثم نقوم بعملنا. ليس الآن، لاحقًا. فلنكمل المسيرة أولًا.

كان يجيب أولئك الفرحين برؤيته بينهم مرة أخرى، فيما يلحون عليه بتناول كأس معهم.

والطريف في الأمر، أنه داخل الزحام، هناك من تعرف على أنجلو أيضًا وسُر برؤيته. صاح صوت من خلفه:

- انظر من هنا، المهندس المعماري! ماذا تفعل في مسيرتنا هذا الصباح؟

كان أحد السائقين الذين عملوا في الماضي بين الميناء والوزارة. صافحا بعضهما، ولوهلة، كاد السائق الذي كان مترنحًا قليلًا أن يهم بتقبيله.

- كيف حالك؟ لم أرَك منذ مدة طويلة، أين أرسلوك؟

ثم فجأة من طرف الرصيف الآخر:

- آه! مرحبًا دي بونو، ما الذي أتى بك اليوم؟ هل أنت من هنا؟

كان رجلًا آخر من الوزارة، لذلك ناداه باللقب الذي أطلقه عليه المَدحلة. لم يرَه منذ مدة وكاد أن ينسى أنه موجود. لوَّحا لبعضهما وبعد ذلك شدتْ أنجلو يدٌ من كتفه وقدمتْ له كأسًا من الويسكي. اليد أشارت نحو رجل على الطرف الآخر من الرصيف. أنجلو أومأ له برأسه أنه من المبكر الشرب بهذا العيار الثقيل، لكن الرجل الآخر ضحك وصاح:

- اشربه يا دي بونو بما أنه قُدم لك.

ثم تقدمت المسيرة بعيدًا عن الرجل الذي قدم له الشراب ولم يرَه في ذلك اليوم مرة أخرى.

في غضون ذلك، تصاعدت النشوة والفوضى. انضم المزيد من الناس مع اقتراب المسيرة من الناديين السياسيين في البلدة. كانا يتنافسان في العيد حول من يقدم أفضل عرض موسيقي في أثناء تقدم المسيرة.

قال جيرالدو:

- دعنا ندخل النادي قبل أن تصل المسيرة إلى هناك.

وبجهد شقَّا طريقهما بين الحشد أمام باب النادي حيث الشمس ورائحة العرق. كانا يتدافعان بين الرجال والنساء، بعضهم غارق في العرق، حتى تمكنا من دخول الممر الذي يفضي إلى الحانة الكبيرة. خلف البار كان ثلاثة شبان، شابان وفتاة، يحاولون جهدهم لتلبية الطلبات المنهمرة كالمطر من الويسكي والجعة. في ذات الوقت، كانوا يكدسون أطباقًا بالفطائر المحشوة بالتونة ولحم الخنزير وصناديق البيرة وغيرها من المشروبات، تحت إشراف رجلين يرتديان ربطات عنق وجاكيتات حمراء داكنة. وبمساعدة مجموعة شبان آخرين، ينقلون كل ذلك إلى خارج الغرفة. «أسرعوا، أسرعوا»، حثهم أحد الرجلين بالسترة الحمراء. «المسيرة على وشك الوصول، انتظروا أنتم الآن»، خاطب المحتشدين الغاضبين خلف البار. «الفرقة أولًا».

في النهاية، حصل جيرالدو وأنجلو على كأسي جعة كبيرتين، جيرالدو طلب من النادلة الشابة خلف البار أن تقدم المشاريب لمجموعة في الركن على حسابه.

رغم الضوضاء وازدحام الحانة، كان هناك من يحيي جيرالدو ويرحب به بأفضل ما في وسعه وسط كل ذلك الصخب. في تلك الأثناء، انضم إلى الحشد مجموعة من الرجال يعرفهم جيرالدو. الشابة خلف البار وجهها يلتمع من شدة العرق، قدمت لهم مشروبات مقدمة من زبائن آخرين. وسرعان ما نشبت نقاشات مضحكة وكلمات ذات معنى مزدوج بين جيرالدو وأصدقائه، حتى إن أنجلو انزلق فيها أيضًا، كما لو كان يعرفهم منذ زمن بعيد. كما أنه بدأ يقدم لهم المشروبات. المسيرة كانت قد توقفت أمام النادي تمامًا، حيث اشتدت ضراوة الاحتفال بالعيد بنفس الوتيرة كما كانت في الخارج.

توقف العزف تكريمًا للنادي كي يتسنى لأفراد الفرقة تناول بعض الطعام والشراب. خبت الضوضاء قليلًا رغم الازدحام. وفجأة لاحظ أنجلو أن جيرالدو يحادث امرأة بدا له أن صديقه يعرفها جيدًا. عيناها تتلفتان بسعادة فيما وجهها المستدير ضاحك تحت شعرها الأسود المتساقط بسلاسة على كتفيها، كانت تبتسم له فيما هو سعيد برؤيتها، لأنه حتى داخل الزحام الشديد، نظرته لم تتزحزح عن صدرها الذي كان مكشوفًا تمامًا تحت الفستان الذي كانت ترتديه من دون حمالات. المرأة كانت قد لاحظت على الفور أين كانت تحدق عيناه، لكنها لم تكترث. بدت أنها كانت معتادة على ذلك ولم تُبدِ أي انزعاج.

- إذن هل انتقلت إلى صفوفنا؟

كان يخبرها.

- ماذا تفعلين هنا؟

- هل هو يوم العيد؟! الجميع يذهب لزيارة الجميع. ألا تفعل ذلك أنت أيضًا؟

أحضر لها كأسًا، ثم قدمها لأنجلو؛ كارول، حيته بابتسامة عريضة، إلا أنه كان جليًّا أنها لم تكن ترى سوى جيرالدو، كأنها كانت تخطط للقائه. انفجر الضجيج والصراخ تحية لأعضاء الفرقة من حولهم وهم يغادرون النادي استعدادًا لمواصلة المسيرة.

مرة أخرى، وجد أنجلو نفسه مع جيرالدو في منتصف الطريق الكبير في أعقاب المسيرة التي واصلت تقدمها بحماس، ورغم ازدياد حرارة الطقس، استمر الحشد في النمو حتى أصبحت الشمس الحارقة تغطي كامل الطريق المؤدي إلى الساحة الرئيسة حيث كانت تتجه المسيرة، صاهرة رائحة الأجساد بمزيل العرق والجعة والويسكي وبقايا رائحة بارود الألعاب النارية.

انتهى بهما المطاف أمام بار في حانة أخرى مزدحمة، حيث دخلا لترطيب جوفيهما بعد تلك الشمس اللاهبة، غارقين في العرق والجفاف من الداخل. لسبب ما لم يستطع أنجلو فهمه، ظهرت برفقتهما امرأة أخرى اسمها كارول، مكتنزة مثل كارول الأولى، لكن شعرها كان أشقر فاقعًا. كانت بصحبة رجلين بدا أنهما متوتران رغم التودد والتظاهر بالضحك مع الآخرين. أنجلو قدم لهما

الشراب على حسابه، بعد ذلك بقليل، قام أحد الرجلين بفعل الشيء نفسه. الجميع كان يتحدث في نفس الوقت والكل كان يفهم ما يريد فهمه مما يقال، لأنه في تلك الضوضاء، من الصعب معرفة من يتحدث وماذا يقول.

عينا كارول ظلتا مثبتتين على جيرالدو طوال الوقت، وهو بدوره لم ينزع عينيه عن صدرها. بدا أنه متلهف للغاية، وبالشراب الذي تناوله لم يستطع إخفاء تلك اللهفة. هذا كله لم يضايقها. أنجلو حاول تبادل الحديث مع صديقة كارول والرجلين الثملين برفقتهما اللذين ما انفكا يرددان كم كان الاحتفال باهرًا هذا العام. قالت كارول:

- والآن عليكما أن ترافقانا إلى النادي الآخر، نادينا.

قال جيرالدو باشمئزاز:

- هذا ما ينقص.

أجابته:

- الجميع يزور الآخرين في مثل هذا اليوم. ألم آتِ إلى ناديكم؟

سأل جيرالدو أنجلو محتارًا:

- ما رأيك؟

- بالنسبة لي لا مشكلة، كما تشاء.

قال أحد الرجلين، يبدو أنه لم يكن راضيًا عما يدور:

- أما أنا فلا أطأ هناك حتى لو منحوني الذهب.

حدجته كارول بنظرة غاضبة، وكي يتجنب أي مشادة معها سارع بطلب ويسكي للجميع.

مرة أخرى مشيا في الطريق المرصوف تحت أشعة الشمس الحارقة. ولكي نقول كل شيء، أنجلو لم يكن يعلم بالضبط إلى أين هم ذاهبون ومن برفقتهم. ما زالت المرأتان، كارول والشقراء، برفقتهما، وأحد الرجلين بالإضافة إلى زوجين آخرين لم يلاحظ من أين أتيا، لكن يبدو أن جيرالدو يعتبرهما من خيرة أصدقائه. ارتفعت الصيحات والقفزات والتصفيق من حولهم كالرغوة، حتى انخرط الجميع مع الفرقة في النشيد الوطني. لعدة

مرات حاول بعض الرجال من هنا وهناك تحريف كلمات النشيد في كلمات نابية، ولكن سرعان ما تعالت أصوات من أماكن أخرى لإسكاتهم وإكمال الترنيمة كما كتبها الشاعر الوطني.

قالت كارول وهي تشد قميصها كي تغطي صدرها المتعرق:

- حسنًا فعلوا.

قالت بصوت عالٍ وهي تنظر حولها بتحدٍّ:

- دعنا نستمتع بوقتنا، لا تخلقوا المتاعب.

جيرالدو وافق على كل ما قالته. المزيد من الرقص والصخب والصراخ. تساءل بعينين لامعتين:

- ما البهجة في كل هذا؟

وافقه الكثيرون، فيما أنجلو بذل قصارى جهده كي لا يدع الخمر وشدة الحر تذهبان بعقله. صديقه في أوج سعادته، مضمخ بالسعادة والعرق، فيما كارول، عيناها لا تقلان لمعانًا عن عينيه، لا تفوتها فرصة واحدة كي تستمتع بوقتها. في هذا الخضم، وجد أنجلو نفسه مثل صديقه، عيناه لا تفارقان ثدييها، تواكبان كل حركة يقومان بها، تكسوهما طبقة من العرق أكسبتهما مزيدًا من الاستدارة. في أثناء انزلاق نظرته إلى الأسفل، حيث انحسرت البلوزة عن بطنها المتعرق، بدأت الأسئلة تتدفق في ذهنه: «كم هي كثيفة الشعر هذه المرأة ذات الشعر الأسود، إن لم يكن شعرها مصبوغًا أصلًا! وما لون الشعر أسفل بطنها؟ بين فخذيها؟».

كانوا الآن في نادي كارول، حيث يبدو أن جيرالدو لم يكن معتادًا على الدخول إلى هناك. انفجرت ضاحكة عندما تبدلت ملامح وجهه وبدا فجأة غاضبًا. قالت ساخرة قاصدة إغاظته:

- هل تخشى أن يظنوا أنك خنت الحزب؟!

في هذه الأثناء دخلت المسيرة إلى النادي لبعض الوقت ثم تابعت مشيها. كان المكان مكتظًّا بأناس أتوا لتناول الخمر، غالبيتهم ليسوا من البلدة. الثلة التي تجلس هنا عادة غادرت خلف المسيرة التي تقترب من الساحة أمام

الكنيسة ونادي الفرقة المجاور لها. كارول وجيرالدو قررا أن عليهما الالتحاق بهم، خاصة عندما تصل الفرقة أمام ناديها، من حيث انطلقت المسيرة.

مرة أخرى، وجدوا أنفسهم في حانة مكتظة بأناس يجاهدون كي يحصلوا على كأس من الشراب. قالت الشقراء صديقة كارول:

- الوقت يمر بسرعة، سرعان ما سيبدأ الجميع بالمغادرة.

لم يبدُ أن شيئًا سيحدث وسط هذا الصخب والضجيج كما لو أنهم في بداية الاحتفال، رغم انتشار كؤوس الخمر الفارغة وبقايا الطعام في الأطباق على المقاعد والموائد وفي كل مكان من حولهم. عدا أنجلو، كانت مجموعتهم مكونة من جيرالدو وكارول وصديقتها، وأحد الرجلين اللذين كانا برفقتهما في البداية لأن الآخر أوفى بكلمته ولم تطأ قدماه المكان، بالإضافة إلى ثلاثة رجال آخرين برفقة نسائهم لم يكن أنجلو متأكدًا ما إذا كانوا معهم أم لا.

داخل ذلك الحشد، لم يتعرف عليهما سوى القليل، على العكس من كارول التي بدأت تنهال عليها المشروبات من كل حدب وصوب، لكنها كانت تصيح بأنها لن تشرب سوى الماء، لأن الجعة ستجبرها على الذهاب إلى المرحاض طوال الوقت. صديقتها بقيت قابعة في مكانها، تشرب بنهم وتراقب ما يجري من حولها بتلكما العينين الزرقاوين الكبيرتين، أو ربما كانت عدسات لاصقة. مهما يكن من أمر فقد تجاهلت أنجلو تمامًا وتحدثت فقط مع الرجل الذي تبقى بصحبتهم.

عندما قرر أنجلو المغادرة، شعر بأحدهم يشده من ذراعه.

- أنت هنا إذن؟

سأله ريجو مبتسمًا.

- لماذا؟ هل كان عليَّ ألا أُوجد هنا؟

- على العكس، نحن نسعد برؤية الجميع هنا، سواء كنا على وفاق أو خلاف.

أحضر له كأسًا.

- ماذا تشرب؟ هل أنت مع هؤلاء؟

قال مندهشًا عندما أدرك أن جيرالدو الذي لم يسبق له أن كان هنا برفقتهم.

- حسنًا. قدِّم لهم ما يشاءون.

قال للنادل خلف البار، رجل عجوز هذه المرة، خلافًا لما عليها الحال في الحانات والنوادي الأخرى.

- لقد سررت برؤيتك. ما الذي أتى بك إلى هنا؟ لم أكن أعلم أنك تحب هذه المناسبات.

- لا حساسيات لدي.

- ولكن هنا؟

كان ريجو الوحيد في ذلك الصباح الذي كان يرتدي جاكيتًا بُنيًّا فاتحًا فوق قميص أزرق فاتح. كان قد سمن منذ آخر مرة رآه فيها بعد فترة وجيزة من الانتخابات. كان قد شرب كثيرًا لكن نظرته وكيفية إمساكه بكأس الشراب أظهرتا أنه ليس ثملًا تمامًا. بل كان يراقب ما يجري من حوله ويزنه جيدًا، فيما عيناه تتفحصان كارول خلسة.

- لم لا؟ اصطحبوني إلى هنا ودخلت. هذا الصباح تجولنا في جميع النوادي. ألم تقُم بذلك أيضًا؟

- تمنيت لو كان بإمكاني. لكن عليَّ انتظار وصول الوزير. لو تأخر قليلًا، ستفوته المسيرة.

- ولكن الانتخابات ما زالت بعيدة.

ضحكا وقدم لأنجلو الشراب مرة أخرى. شيئًا فشيئًا بدأت الجموع بمغادرة القاعة لحضور ختام المسيرة أمام نادي الفرقة. ريجو كان ينظر إلى ساعته طوال الوقت، قلقًا لأن الوزير لم يحضر بعد.

- أعلم أنه لا يؤمن بهذه الموشحات.

تمتم حانقًا.

- لكن بإمكانه ألا يُظهِر ذلك بهذا الوضوح.

ضحك أنجلو، لكن وحده هذه المرة. ريجو نظر إليه ببرود:

- ربما لديك ما يُضحك.

ثم أضاف:

- سيما أنك تعلم أنني لا أعلم أين نقلوك.

حاول أنجلو تذكر آخر مرة رأى فيها ريجو؛ كان يغذ الخطى على الجانب الآخر في شارع مركانتي، بدا مثقلًا بالمسؤوليات الجديدة التي لا علم له بها. حيَّيَا بعضهما بعجالة. ريجو كان في عجلة من أمره، وأنجلو حاول التظاهر بأنه مشغول.

عندما ذكر أنجلو أنه سعيد في قطاع الإسكان حيث أعادوه، ريجو تجرع كأس الويسكي دفعة واحدة من دون أن يتفوه بكلمة. خفتت الرؤية في الداخل رغم تناقص أعداد الناس. جيرالدو أومأ لأنجلو بأنه وكارول والبقية سيغادرون للحاق بالمسيرة.

أجابه أنجلو:

- سأوافيكم هناك.

أدرك أن صديقه غير سعيد بعلاقته الوثيقة مع ريجو.

- هل ستبقى في انتظاره؟

سأل أنجلو.

- إن لم يحضر قريبًا، فسوف أغادر.

- أنا أيضًا، أنوي العودة إلى المنزل.

ثم قال ريجو فجأة من دون أن يشعر أنه مضطر إلى اللجوء للمواربة:

- كنت قد أخبرتك. كان عليك الاستماع إلى نصيحتي. في وقت الحاجة لم يجدوك. لم نجدك عندما كنا بحاجة إليك، رغم أنك لست مع الحزب الآخر، فنحن نعرف بعضنا من أيام الدراسة. ماذا فعلت حول المعلومات التي طلبتها منك حول رصيف الميناء؟ لم يكن عليك نسيان ذلك، بالإضافة إلى أشياء أخرى، مثل المقالات التي كان بإمكانك أن تكتبها من أجلنا.

اندهش أنجلو من كيفية إطلاق ريجو العنان للسانه، وبدا أنه وجد الفرصة للبوح بكل ما كان يزعجه لفترة طويلة. لم يكن ذلك من جراء الخمر التي

شربها الاثنان منذ الصباح. قال:

- لم تكن معنا، ولا معهم.

- ولكن كيف يمكنك ذلك؟

- قل ما شئت، هذا هو الواقع.

- كيف يمكنك أن تكون على الحياد بين الخطأ والصواب؟

- من هو على الصواب؟ ومن المخطئ؟ من يكسب؟ أليس كذلك! أنظر إليك يا ريجو، أظن أن أمورك تسير على ما يرام مع من هم على صواب من وجهة نظرك.

- في حياة الإنسان هناك أوقات تعيسة وأخرى سعيدة. نحن الآن في أوقات سعيدة علينا اغتنامها. ما الخطأ في ذلك؟ وعلينا أن نفتح أعيننا جيدًا كي لا تُسرق منا هذه الأوقات السعيدة.

- فعلًا! أتمنى لك حظًّا طيبًا.

- لا تهزأ بي، كما تعلم، لم أهزأ بك قَط. لكنك اليوم...

- أنا؟ اليوم؟ أنا ما زلت أنا. لم يتغير أي شيء.

- إذن أخبرني قبل أن نأخذ آخر كأس...

الرجل العجوز خلف البار كان يتابع حوارهما فصب لهما على الفور كأسين مزدوجتين.

- أخبرني، ما هو المبدأ في كل هذا؟ مع من أنت حقًّا؟

- هل تنتظر مني أن أخبرك أنني معكم أو مع الآخرين أو مع أي طرف آخر؟ هل تمزح؟! أنا مهندس معماري فحسب. أعيش من أجل وظيفتي، ما رأيك؟ أنظر إلى كليكما من منظور معين، هل تفهمني؟ عدا ذلك...

- لا تقلق، أعلم ما تعنيه كلمة منظور.

قال ريجو وهو يبتلع الشراب ولأول مرة بدا أنه على استعداد للتملق. لم يكن أحمق، فقد فهم أن أنجلو يحاول التلاعب به ولم يكن مستعدًّا للسقوط في الفخ.

- لطالما كان لدي تقدير كبير لك وكنت أؤمن دائمًا أنه يمكنك أن تكون في صفنا، لأنه معنا سيكون لديك مستقبل مشرق. من الحكمة دائمًا أن تستقطب أناسًا بمثل مكانتك. وصحيح، على حد علمي لم تختلط مع الآخرين، ولكن هذه مجرد أقاويل. لا يمكنك الوثوق بكل ما يقال، ولكن أخبرني عن هذا المنظور، أي منظور هو؟

أدرك أنجلو أن لسانه قد ذهب بعيدًا. لقد كان حريصًا على الدوام على عدم كشف أوراقه، وها هو اليوم، عدا كل الأيام، في هذا المهرجان المثخن بالعرق والفوضى، يجد من يحاول إخراجه -ضد إرادته- من قوقعته. سُمع بوق سيارة يصدح من بعيد. بماذا سيجيب؟ حضرت كلمة في ذهنه لم يفكر بها من قبل، لكنها بدت دقيقة وتجنبه الخوض في جدالات لا تهمه على الإطلاق.

- هل تريد حقًّا معرفة المنظور الذي أنظر من خلاله؟ لا تسخط مني، فأنا ببساطة، أشعر باللا مبالاة تجاه كل ما يشغلكم.

بمجرد أن تفوه بكلمة لا مبالاة، حتى شعر أنها الأكثر تعبيرًا عما كان يقصده.

- ماذا تعني هذه الكلمة؟

سأل مردفًا كأنه يتذوق قدح ويسكي جديد.

- وما علاقتها بالموضوع؟

في الخارج ازدادت أبواق السيارات. فجأة ترجل ريجو من مقعده المرتفع خلف البار. قال:

- أخيرًا وصل الوزير! عليَّ المغادرة، لقد سررت بلقائك. علينا تكرارها مرة أخرى. من حسن حظ الوزير أنه قد حضر، لأنه كان سينال حنق النادي والفرقة، بالتأكيد كانوا سيزدرونه.

جرع ما تبقى من الويسكي في كأسه وخرج مسرعًا.

- إيه، ريجو هذا لا نظير له. يعمل بجد ونشاط.

قال الرجل العجوز خلف البار.

لم يتبقَّ في الحانة سوى عدد قليل من الرجال الثمالى. قدم مشروبًا للرجل العجوز خلف البار. شرباه دفعة واحدة معًا.

- لا أحد يضاهي ريجو.

كرر الرجل العجوز.

- أرجو ألا نفقده.

خرج أنجلو من الحانة إلى الطريق الذي أصبح مثل الحانة، شبه خالٍ تمامًا باستثناء أشعة الشمس اللاهبة وفوضى قصاصات الورق والزجاجات والعلب الفارغة واللافتات المحترقة وبقايا النفايات المنتشرة في كل مكان. في القريب، في الساحة خلف الزاوية، كان يُسمع غناء الجمهور وآخر صيحاته. لا بد أن سيارة الوزير وريجو بداخلها قد دخلت الميدان. توجه أنجلو نحو سيارته التي تركها في طرف البلدة. وجدها تغلي تحت الشمس الحارقة. كان يتصبب عرقًا وازداد تعرقًا بمجرد أن دخل السيارة التي كانت تشبه الفرن تمامًا.

* * *

- 13-

متحول

- هل سبق أن ضاجعت امرأة كانت رجلًا؟

- ما هذا السؤال؟!

لماذا كان ينتهي بهما المطاف للوقوع في هذه الاستجوابات التافهة؟ كان قد توصل إلى استنتاج مفاده أن هذه كانت حيلتها كي تتجنب ممارسة الجنس معه. إن كانت الحال كذلك، فلماذا لا تخبره من دون مواربة؟ في الماضي كانت تؤرقه بسؤال أكثر تفاهة: «كم تحبني؟»، نهض من فوقها وغادر الغرفة.

ذهب إلى المطبخ. سكب كوبًا من عصير البرتقال وجلس يقرأ ما كان مكتوبًا أسفل صورة كبيرة لدب كوالا على روزنامة من أستراليا معلقة على الثلاجة. بدا الأمر وكأنهما كانا يعلمان سابقًا أنهما سيتشاجران... إن كان شجارًا. عندما عاد إلى غرفة النوم وجدها في انتظاره.

- هل ضاجعت أحدهم أم لا؟

- لا، على حد علمي. ألم نناقش هذا من قبل؟

- على حد علمك! ما معنى هذا؟ عندما تناقشنا لم تقُل ذلك.

- لا أفهم ماذا تقصدين.

- هل ضاجعت أحدهم أم لا؟

- لقد أخبرتك، على حد علمي لم أضاجع شخصًا متحولًا، ولكن ماذا عنكِ أنتِ؟

- بعد أن قرأت روايتك الأخيرة... هذا ما يتحدثون عنه عندما يذكرونك. امرأة كانت رجلًا... لكن من أين لك بكل هذه التفاصيل؟ هل نقلتها من مكان ما؟ أم مارستها بنفسك؟

أدرك أنها تبذل قصارى جهدها لافتعال شجار. ظل هادئًا.

- أجب. هل ابتلعت لسانك؟

- ما زلت في انتظار إجابتك. هل ضاجعتِ أحدهم؟

صمتت طويلًا ثم اعتدلت في السرير وأضاءت المصباح الجانبي:

- أعتقد أنني فعلتها مرة. ضاجعت رجلًا كان امرأة.

- أنتِ تعبثين بالحقائق. لم تذكري هذا من قبل ثم تتهميني به.

- بماذا؟

- وهل كنتِ تعلمين سابقًا أنه كان متحولًا؟

- ماذا؟

- هل كانت امرأة؟

- ما هذا السؤال؟!

كان قد تيقن أنها كانت تفعل كل ما بوسعها لإثارة حفيظته.

- هل كنتِ تعلمين أم لا؟

- ربما. لا أدري ما أهمية ذلك بالنسبة لك.

- أنتِ من بدأ بالسؤال، والآن عليكِ أن تخبريني: هل استمتعتِ بذلك؟

- هذا ليس من شأنك.

- ولو أتيحت لكِ الفرصة مرة أخرى، فهل ستفعلينها؟ أم أنكِ فعلتها بعد تلك المرة؟

- هل تريدني أن أخبرك بكل شيء؟

- قولي ما ترغبين في قوله.

- حسنًا. فعلتها مرة أخرى.

- ولكن هل أنتِ على استعداد للقيام بذلك مرة أخرى؟

- إن كانت الظروف ملائمة، فلم لا؟

- ولكن عندما تضاجعينه أو تضاجعينها، بماذا تشعرين؛ كامرأة أم كرجل؟

- وأنت؟ بماذا تشعر؟ تحاول دائمًا معرفة كل شيء حولي ولا تتفوه بشيء عن نفسك. أخبرني، بماذا تشعر حيال نفسك؛ كرجل أم كامرأة؟ أم أنك من أولئك المتحولين حسب الرغبة؟

- أنا أم أنتِ؟

الاستنتاج الذي بدأ به كان خاطئًا. فخلال تلك الليلة، رغم المرارات الطويلة التي كانت تتراكم بينهما لدرجة أنهما لم يتحدثا لبعضهما بهذه الطريقة الفجة من قبل، انتهى بهما الأمر لقضاء الليلة ملتحمين بعنف حتى الفجر. في خريف العمر، أو بالأحرى في الشتاء الذي كُتب عليهما أن يمضياه معًا فيما بعد، أصبحت تلك الليلة الماجنة والصباح الذي تلاها بما حمله من إعياء وخمول وغضب، من أغرب ذكريات حياتهما.

- 14 -

أنا

عندما وصل إلى الندوة اندهش من عدد النساء الحاضرات. لوهلة قال لنفسه بمرارة ساخرة، إن هذا بسبب إشاعة مفادها أنه جذاب للنساء. فيما بعد أخبره أحدهم أن «أنا والآخر» قد تم إدراجها ضمن قائمة الكتب المقترحة لطلاب تلك السنة حول التمييز الجنسي، والذي تضمن الكثير من الطالبات. لم يتفاجأ بذلك الاهتمام برواية «أنا والآخر» والجدل الذي أثير حولها، وهذا قد ساهم في بيع الكتاب حسب الناشر، لكنه أثار موجة من السخط من قبل المثليين، رجال ونساء. فقد هاجمه الفريقان: أولئك الذين خلقوا هذا الجدل لأسابيع طويلة، وكل من شعر أنه مهدد بشكل أو بآخر بسبب ميوله الجنسية.

قيل له إن راعي الندوة بروفيسور لديه مؤهلات أكاديمية في الأدب والاجتماع، وإنه قد عاد لتوه من بلد أوروبي بعد فصله كأستاذ جامعي بسبب تقشف الإدارة العامة، فوجد ملاذًا في مالطا. استقبله أمام المكتبة ورافقه إلى صالة متداعية حيث كان بعض الأكاديميين يتناولون القهوة والبسكويت حتى حضر أحدهم ليخبرهم أن القاعة قد امتلأت بالحضور.

في أثناء انتظارهم اتفقوا حول كيفية إدارة الحوار. البروفيسور الذي يتحدث بصوت منخفض ولطيف سيطرح عليه بعض الأسئلة التي اتفقا عليها سابقًا، بعدها سيقدم أنجلو ملخصًا قصيرًا حول الرواية ثم يفتح الباب للنقاش من قبل الطلاب وبقية الحاضرين، فالندوة كانت مفتوحة للجميع بمن فيهم أناس من خارج الجامعة. من الطريقة التي تحدث بها البروفيسور أدرك أنجلو أنه لا يعلم شيئًا عن كتاباته، باستثناء ما نُشر مؤخرًا في بعض الصحف، بهدف تسويق «أنا والآخر». استغرب كيف اختاروه لإدارة ندوة كهذه لا يعلم فحواها جيدًا. قيل له لاحقًا إن الضيوف اعتذروا الواحد تلو الآخر بحجة أو بأخرى بسبب سخونة الموضوع، وإن الأمر في النهاية أوكل لهذا القادم الجديد الذي سرعان ما وجد عملًا أكاديميًّا بسبب نفوذ أسرته بعد أن طُرد من أسكتلندا.

في الواقع كان النقاش فاترًا جدًّا. في البداية كان سينتهي الأمر بمجموعة من التصريحات التافهة (التي أدلى بها أنجلو) بسبب الأسئلة السخيفة التي بدأ البروفيسور بطرحها عليه. بماذا تجيب عندما يسألك أحدهم: ما هي أطول رواية كتبتها ولماذا؟ أو: ما هي الشخصية التي أثارتك كثيرًا في أثناء الكتابة عنها؟ تشعر أنك في برنامج حول الطبخ في محطة تلفزيونية لا شيء مفيدًا لديهم لعرضه.

لكن علينا القول إن البروفيسور الفطن الذي سيقود الندوة لم يكن أحمق. كان يدرك أن زملاءه قد ورطوه في هذا كي لا يحرقوا أصابعهم. لكنه لن يحرق أصابعه أيضًا، لذلك فهو يناور لقتل أي اهتمام مثير للجدل بأسئلته الفارغة. كان هناك من ينظر إلى ساعة يده بضجر، وثمة رجل وامرأة قد غادرا بالفعل.

قرر الالتزام بما كان قد أعده ليقوله. الناشر أخبره أنه من المفيد إعادة إثارة الجدل حول الرواية لأن المبيعات أخذت في التناقص، وأن ذلك ربما يغري آخرين جددًا لشرائها.

تحدث عن موضوع الكتاب، وكيف تطور العمل، وكيف تم استقباله، الانتقادات وحتى التهديدات التي وجهت له. في أثناء حديثه أدرك أن البروفيسور بجانبه لم يكن راضيًا عن سير الأمور. لم يحقق هدفه في قتل الحوار ومنع الحضور من الإصغاء وتدوين الملاحظات. في النصف ساعة التالية بعد أن انتهى أنجلو من الحديث، بدأت تنهال عليه الأسئلة والتعليقات من كل أطراف القاعة. بعضها انتقاد له ولأسلوب الكتاب، أو الطريقة التي لم يسمح بها للقارئ من الاقتراب مما يقوله أو يدور في رأسه، وحول الصورة التي تعكسها رواية «أنا والآخر» للمجتمع اليوم: كان هناك من يعتقد أنها تعكس صورة حقيقية وجميلة، ومن يظن أنها قبيحة للغاية.

بدا البروفيسور متوترًا جدًّا عندما تعلق الأمر بإيقاف سيل الأسئلة، لأن وقت الندوة قد شارف على الانتهاء، نظر إلى أنجلو كي يعطي إجاباته.

ليست لدي طريقة أفضل للإجابة عن كل ما طرح من أسئلة»، قال» مستعدًّا لما ينتظره من انتقادات إيجابية أو سلبية، «سوى أن أخبركم بالقليل عن نفسي. قد يسبب هذا معضلة بالنسبة لي لأنني منذ سنوات طويلة كنت حريصًا قدر الإمكان على عدم التحدث عن نفسي، وقد تعرضت لانتقادات كثيرة بسبب ذلك. عدا ذلك، عندما أكون بصدد التحدث عن نفسي، فأنا بصدد شيء لا خبرة ولا أسلوب لدي فيه. لذلك قد أقوم به بشكل خاطئ. ولكن، هناك نقطة سأظل مصرًّا على توضيحها دائمًا، وهي عندما أُقدِم على القيام بشيء ما، فسوف أبذل قصارى جهدي للقيام به على أكمل وجه، أنا لا أقول هذا بدافع المديح، صدقوني! هذا لا يعني أبدًا أن ما أراه جيدًا هو كذلك بالنسبة للآخرين، فقد شاهدنا في هذه الأمسية من يعرض رأيًا، وآخر يطرح العكس تمامًا. هذا لا يعني أن أحدهما على صواب وأن الآخر على خطأ. ربما كلاهما على حق، لكن دعوني أعود إلى حيث بدأت: «من أنا؟»».

الوقت المخصص له كان عشرين دقيقة لكنه استغرق نصف ساعة، وتجاهل إشارات البروفيسور بجانبه لإنهاء السهرة، لأن المزيد من الوقت المتفق عليه يعني المزيد من النفقات والمال. عندما انتهى قوبل بتصفيق حار لم يكن يتوقعه.

* * *

- 15 -

كلاتونيا

لا أحد يذكر كيف ومتى انهارت إمبراطورية مورا. حسب كبار السن الذين عاشوا لقرون في أكناف سلافية فقد كانت ذات يوم مدينة كبيرة، ثم أصبحت خرابًا وبضعة منازل حقيرة بلا نوافذ متناثرة هنا وهناك، ولكنها بعد ذلك بدأت باستعادة شكلها ببطء كمدينة جميلة. الإمبراطورية كانت قد بدأت تتآكل من الداخل. كان في قلبها الكثير من الفساد، والكثير من التبذير، والكثير من التقاعس، والكثير من الهراء والاستغلال. هذا أغضب القبائل الكبيرة التي ساندت الإمبراطورية منذ بدايتها واستمروا في اتخاذ أفضل القرارات حتى النهاية. يبدو أن قادة مورا على مر السنين فقدوا الإرادة للتشبث بالسلطة التي أبقتهم حذرين ومتيقظين حتى في أحلك الأزمان.

أول من شعر بوطأة التغييرات الخطيرة كان قبائل المناطق الخارجية، بما في ذلك مقاطعة كلاتونيا، سيما بعد أن تلقوا أوامر بالانسحاب من حدود المناطق المحيطة بالإمبراطورية. وفي خضم ذلك، بدأت قبائل البربر في التوغل من الشمال والشمال الشرقي، وشرعوا في القتل والحرق والنهب والتنكيل.

في البداية، كان البرابرة عبارة عن خليط من القبائل المنتشرة في الغابات الكبيرة. لفترة من الزمن تفوق النورمانديون على جل خصومهم. كانوا معروفين بالسلب والنهب أينما حلو. ثم ينسحبون تاركين من تبقى من السكان كي يتعافوا لبضعة عقود، قبل أن ينقضوا عليهم مرة أخرى. وقد حدث هذا لقرون عديدة.

هذه الاستراتيجية أضعفت إرادة كلاتونيا في المقاومة والدفاع عن حدودها. كل هجوم من البرابرة كان يعقبه غزو آخر من جهة أخرى، قبل أن يتعافوا من آثار الدمار السابق. دخان أسود كثيف يجتاح قرى ومزارع كلاتونيا. كانت الأرض مروية بدماء الفلاحين وعائلاتهم والكثير من القتلى. السماء تدوي

بصرخات اغتصاب النساء، هذا إن لم تُشَق بطونهن بطعنة حربة بعد اغتصابهن.

أرض كلاتونيا، سيما حول سلافية، كانت خصبة جدًّا ومعتدلة المناخ، وسرعان ما تظهر الخضرة والوفرة بعد الخراب. لذلك كان سلوك القبائل البربرية والقبائل النورماندية غريبًا جدًّا. كان بمقدور البرابرة احتلال كلاتونيا بسهولة -كما فعل إمبراطور مورا لاحقًا. كانت الأرض بالنسبة لهم غنيمة عظيمة. لكن يبدو أن البرابرة والنورمانديين لم يرغبوا في الاقتراب من كلاتونيا؛ أرادوها أن تظل جاهزة كلما حضرتهم الرغبة في القتل والنهب والاختطاف. لم يميلوا إلى الاستقرار في المدن وترك الغابات والبحيرات حيث اعتادوا العيش منذ الأزل.

على مر السنين، بل حتى القرون، سلَّم أهل كلاتونيا بأن محنتهم باقية ولا يمكن تغييرها، لأن القدر أرادهم كشعب أن يتجرعوا بلاء البرابرة. كأمة، لم يكونوا عرقًا صافيًا. في زمن الإمبراطورية، اختلطت دماؤهم بكثير من الجند والخدم العاملين في الحصون المترامية على أطراف سلافية. كما أنهم تزاوجوا مع التجار والعبيد الذين كانوا يتوافدون في قوافل طويلة لشراء التوابل والحبوب والأقمشة والزيوت الثمينة التي تشتهر بها كلاتونيا منذ زمن بعيد بسبب خصوبة أرضها. على مر القرون، ونتيجة لعمليات السبي والاغتصاب، انحدر جيل من صلب النورمانديين والبرابرة وآخرين، ورغم أنهم كانوا جميعًا كلاتونيين، بعضهم نقي العرق وبعضهم مختلط الدماء، فإن شيئًا ما جعلهم يخشون أن يصبحوا أمة واحدة.

خلال هذا الوقت العصيب، انفصلت كلاتونيا تمامًا عن بقية الأقاليم التي كانت تُشكِّل جزءًا من الإمبراطورية في السابق. أصبح تجارها وحرفيوها يخشون السفر إلى ما وراء البحيرات الجنوبية الشرقية أو خلف الجبال الجنوبية التي تتوسط مورا القديمة وكلاتونيا. فضلًا عن ذلك، حسب الروايات القديمة التي لا يُعرف مدى مصداقيتها، فقد ضربت الأرض زلازل عظيمة أطاحت بالجبال وأنشأت أخرى، وشقت أودية عميقة لم يعبرها أحد من قبل،

ثم نمت غابات جديدة ساهمت في فصل كلاتونيا عن بقية المقاطعات والأراضي التي كانت تُشكِّل جزءًا منها في السابق.

ويبدو أن التجار من بقية الأقاليم، أو بالأحرى أحفاد أحفادهم، قد نسوا أهمية التجارة التي كانت تتم مع كلاتونيا في الماضي. فقد توقفوا عن الذهاب إلى سلافية للبيع والشراء. في عزلتهم تلك، انغمس الكلاتونيون بشكل أعمق في عاداتهم وتقاليدهم القديمة، متأثرين بالتغييرات التي حدثت خلال قرون من حكم الإمبراطورية. وكان أكثر ما تمسكوا به هو الدين الذي انتشر في الإمبراطورية في النصف الثاني من الحكم الإمبراطوري لكلاتونيا.

من ناحية أخرى، بدأت لغة الإمبراطورية بالتلاشي إلى أن تُنسي لسان مورا تمامًا. في بداية غزوات القبائل البربرية، حرص الرهبان في الأديرة على إخفاء أمهات الكتب والمخطوطات المكتوبة بلغة الإمبراطورية في أقبية سرية حفاظًا عليها من البرابرة.

حدث في إحدى الغزوات أن ذبح النورمانديون جميع رهبان كلاتونيا. كأن مهمتهم كانت هدم كل كنيسة ومعبد ودير، وقتل حراسها بلا رحمة. بمعجزة تَمَكَّن أسقف عجوز من النجاة من تلك المذبحة العظمى في كلاتونيا؛ مرسارا. حدث هذا لأنه قبل وقت قصير من هجوم النورمانديين، كان قد التجأ إلى الغابة بحثًا عن أعشاب قد تخلصه من مرض جلدي عضال ألم به.

المعجزة التي أبقته على قيد الحياة ساهمت في تحفيز شبان كلاتونيا على الدخول في الرهبنة وإبقاء الديانة حية. ومع ذلك، لم يتمكن من بعث لغة مورا القديمة بينهم كي يعيدوا نشرها في كلاتونيا. ربما بسبب ظروف المحنة لم يكن الرهبان الجدد مستعدين جيدًا. في البداية بالكاد كانوا قادرين على القيام بواجباتهم، كما أنهم لم يتعلموا بما فيه الكفاية لغة الإمبراطورية السابقة. فقد دمر النورمانديون جميع المعاهد التي تُعلم لغة مورا كي لا يتمكن أحد من التأمل في النصوص المقدسة.

الاحتفالات الدينية كانت تُقام بلغة الإمبراطورية التي كما يتذكرها الرهبان الجدد، ومثل بقية الكلاتونيين، لا أحد يفقهها. بمرور السنوات، أصبحت اللغة

الكلاتونية لغة العبادة في الكنائس، وتم إهمال لغة الإمبراطورية تمامًا، لدرجة أنها لم تعد تعني أي شيء لمن ينطقها، أو من يسمعها.

بعد نسيان الكتب والمخطوطات من عصر الإمبراطورية في الأقبية السرية، عُثر عليها مصادفة في نهاية عهد السلطان توماس في نفق خفي في أطراف مرسارا القديمة، وقد أثارت جدلًا كبيرًا. نُقلت في موكب مهيب شارك فيه السلطان بنفسه إلى الدير، حيث يقيم كبير أساقفة سلافية عندما يزور مرسارا. لكن لم يتمكن أحد من فك طلاسم تلك المخطوطات.

ذكرنا للتو السلطان توماس، جد نيريكو، وهو من بدأ نهضة كلاتونيا. أسرته النبيلة، الملقبة بالنسور، كانت من كبار القوم في البلاد، ومعروفة بقدرتها على رعاية الأراضي الكبيرة التي ظلت بحوزتها على مر القرون، وبولائها لحكام كلاتونيا. خلافًا لسياسات والده رفض الدوق توماس العيش تحت رحمة النورمانديين ليدمروا كلاتونيا كلما حلا لهم -أو ربما لم يحاول كبح جماح نفسه.

تمرد على فكرة أن دور الكلاتونيين مقتصر على توفير الهدوء والسعادة للنورمانديين. منذ صغره اعتبر أن هذا من أبشع أنواع العبودية. وجد أن عددًا من الشبان من عائلات نبيلة وغير نبيلة يشاركونه أفكاره. معًا وتحت قيادته، قرروا تحدي النورمانديين.

بينما تخلف كبار السن، شكَّل هؤلاء الشبان جيشًا صغيرًا وتوجهوا نحو الأراضي النورماندية. كانت أول مرة تغزو فيها كلاتونيا أرض النورمانديين. ولدهشة الجميع، تمكن جيش كلاتونيا، بقيادة الدوق توماس، من التوغل وسط قبائل النورمانديين الذين فيما يبدو، كانوا يمرون بفترة خلافات فيما بينهم. في موقعتين في الغابة حيث كل شيء كان في صالح النورمانديين، أجهزت قوات توماس عليهم تمامًا. قتلوا الآلاف من العدو. عندما عاد الدوق توماس ورفاقه إلى سلافية، تم الترحيب بهم بشكل مهيب في جميع البلدات والقرى التي مروا بها، كما انضم الكثير من شبان كلاتونيا إلى الجيش الفتي، وتم تقسيمهم في مجموعات كي يتدربوا على أساليب القتال الجديدة التي أدخلها توماس.

ولكن سرعان ما تحولت فرحة الكلاتونيين بانتصاراتهم السريعة إلى قلق كبير. أنباء الانتصارات كانت صادمة للنبلاء الذين اعتادوا رغد العيش كعبيد. أي خلاف بالنسبة لهم مع النورمانديين سيزول بسرعة.

بعد تَكَبُّد البرابرة عدة هزائم فادحة، جمعوا كل حلفائهم حتى أقاصي الغابات في الشمال، وشكلوا أكبر جيش شهدته تلك المناطق لغزو كلاتونيا وتدميرها إلى الأبد. الجواسيس الذين نقلوا أخبار اقتراب القوات المعادية من كلاتونيا أثاروا الفزع بين الكلاتونيين. الشبان الذين تحلقوا حول الدوق توماس بدوا محبطين.

مع توارد الأنباء السيئة حول استعداد جيش النورمانديين لعبور الوديان الشمالية لدخول كلاتونيا من منطقتين، رجل واحد ظل ثابتًا وهادئًا؛ توماس نفسه. يبدو أنه كانت لديه خطة سابقة واضحة في هذا الأمر. قسَّم محاربي كلاتونيا -أولئك الذين رافقوه في التوغل في أراضي النورمانديين، والجدد الذين انضموا إليه بعد تلك الانتصارات- إلى جيشين. أرسل أحدهما شرقًا تحت قيادة فارس محل ثقته، والآخر نحو الغرب.

لم يتوقع النورمانديون قَط أن يلاقيهم الكلاتونيون في السهول المفتوحة. خمنوا أنهم سيواجهون الكثير من المصاعب في أثناء عبورهم الأودية والجبال التي تفضي إلى السهول، ومع ذلك اتخذوا كل الاحتياطات اللازمة. قرروا توحيد كل محاربيهم في جيش واحد بعد أن يعبروا الأودية لشن هجوم ماحق على كلاتونيا. دائمًا اتبعوا نفس التكتيك ونجحوا في كل غزواتهم، ولهذا لم يروا سببًا لتغيير طريقتهم في الهجوم.

لكن هذه المرة، اكتشفت جحافل النورمانديين القادمة من الأودية نحو السهول أن قواعد اللعبة قد تغيرت. نسي النورمانديون، أو ربما لم يكونوا يعلمون، أن الفجر على هذا الجانب من الصخور يحل أبكر بساعة قبل أن ينتقل إلى الجانب الآخر. يومًا تلو آخر كان عليهم أن ينتظموا في ثلاث أو أربع مجموعات كبيرة، أولئك القادمون من السهول مع الذين عبروا الوديان قبلهم.

المعركة، أو بالأحرى المعارك، انتهت بكارثة بالنسبة للنورمانديين. قبل الفجر بقليل، انقضَّت قوات توماس على النورمانديين وحلفائهم. وبمرور الأيام، انتهى القتال بمجزرة. هذه المرة رُويت أرض كلاتونيا بدماء النورمانديين. كان جيش كلاتونيا واثقًا جدًّا مما يقوم به، وعندما وردت أنباء أن التجمع الأخير للنورمانديين خلف النهر كان يتقهقر خارج الوادي، أمر توماس بملاحقتهم. ورغم أن جنود كلاتونيا كانوا منهكين من القتال، فإنهم نفذوا أوامره على الفور. لحق الكلاتونيون بالنورمانديين قبل أن يتمكنوا من الهروب عبر الوديان عائدين إلى غاباتهم. ووقعت مجزرة أخرى.

في هذه الأثناء، كان جيش كلاتونيا الثاني بقيادة القائد الذي يحظى بثقة توماس يغزو أرض النورمانديين من الجهة الأخرى. بعد ذلك بثلاثة أشهر، وسط بهجة وحماس الناس، قام كبير أساقفة سلافية بتتويج الدوق توماس كأول ملوك كلاتونيا.

* * *

بمرور الأيام كانت مخاوف كبير الأساقفة أولاف تتزايد. هناك القليل من الأخبار القادمة عن الحملة الكبيرة التي يقودها السلطان نيريكو ونبلاؤه في أرض النورمانديين. يبدو أن البرابرة كانوا يعلمون بما كان يخطط له نيريكو ويبذلون قصارى جهدهم لتجنبه. وفي الوقت نفسه يستدرجونه للتوغل في غاباتهم. منذ عهد السلطان توماس لم يتوغل أي جيش من كلاتونيا في أعماق الغابات الشمالية. أولاف يشك بأن هناك جاسوسًا في جيش الملك، ربما صديق متخفٍّ للخائن تيليموس باع نفسه للنورمانديين، وهو من يرسل لهم المعلومات حول كل ما يجري في معسكر نيريكو. عندما يفكر في الأمر يستشيط غضبًا من نفسه لأنه سمح للملك بإقناعه بالبقاء هنا بدلًا من مرافقة الجيش. قال له نيريكو: «لدي ما يكفي من المحاربين؛ أنا بحاجة إلى شخص شجاع وحكيم لديه القدرة على رعاية المملكة والملكة إيرين في أثناء غيابي؛ أنت فقط، يا صديقي، من يمكنه القيام بذلك».

ندرة الأخبار بدأت تزعج السلطانة إيرين أيضًا. كانوا يجتمعون كمجلس إلى جانب المستشار الكبير لوريس الذي لم يكن سوى تكملة عدد. يستمعون إلى آخر التقارير ويتظاهرون بعدم القلق. في البداية أظهرت إيرين شجاعة صلبة، وظلت تبتسم على الدوام. لكن بمرور الأيام بدا وجهها الجميل شاحبًا، وعيناها فقدتا بريقهما، وكتفاها العريضتان تدليتا إلى الأسفل.

في غضون ذلك، خيم جو من الهدوء في جميع أنحاء كلاتونيا، بدا أن هناك ثقة تامة بين النبلاء والمواطنين الذين بقوا في سلافية ومرسارا وفي بقية قرى ومدن البلاد، بأن كل شيء يسير على ما يرام، وعندما يعود جيش السلطان نيريكو، سيحتفلون بانتصارات عظيمة مرة أخرى.

وجد كبير الأساقفة نفسه ينخرط بشكل متزايد في اللقاءات اليومية التي كانت تجمعه مع القس الشاب ستيفنوس من ناكور، الذي أرسله له الناسك منسونيوس. أولاف استمع لنصيحة منسونيوس. مع القس الشاب، شرع في إعداد قائمة بالكلمات من لغة إمبراطورية مورا التي يختزنها ستيفنوس في ذهنه، وكان يعلم معانيها بالكلاتونية. كان القس شابًّا لكنه بدا مُثقلًا بالسنوات، ومُقِلًّا جدًّا في الكلام.

كانا يلتقيان في الحجرة المقدسة في كاتدرائية سلافية، والتي كانت بمثابة مكتب كبير حيث تجري من ضمن أمور أخرى تسوية مدفوعات الكاتدرائية بأكملها. أولاف كان يطلب منه أن يترجم كل ما تقع عليه عيناه في الحجرة أو كل ما في المخطوطات التي كان يعرضها أمامه. من دون أي تردد كان ستيفنوس يجيب طائعًا ببرود وهدوء، من دون أن تتوقف عيناه الصغيرتان عن التلفت هنا وهناك. بدأ هذا العمل يأخذ المزيد من صباحات كبير الأساقفة. قائمة الكلمات المترجمة من اللغة القديمة المنسية للإمبراطورية إلى الكلاتونية -وبالعكس- كانت في اضطراد دائم. هذا ساعدهما على تجاهل القلق من الأخبار التي كانت تشغل كبير الأساقفة.

ثم خطرت له فكرة جديدة قام على الفور بشرحها لستيفنوس من ناكور. ماذا لو يحضرون إحدى المخطوطات المحفوظة في الأقبية السرية للدير في

مرسارا ويحاول ستيفنوس فك طلاسمها وترجمتها إلى اللغة الكلاتونية؟ لأن كل ما فعلاه حتى الآن هو ترتيب الكلمات كما في المعجم؛ الكلمة بالكلاتوني وما يقابلها بلغة الإمبراطورية القديمة حسب ستيفنوس.

وافق القس الشاب على الفور على اقتراح كبير الأساقفة. لو انتبه أولاف لكل ما كان يحدث حوله كالمعتاد، لكان قد لاحظ بريق الانتصار في نظرة ستيفنوس. تلك النظرة كانت ستثير فيه كل غرائز الحكمة التي جعلته الذراع اليمنى الأقوى للسلطان نيريكو الذي كان يبدي له ولاء لا يتزعزع. الأسابيع الطويلة المريرة من الانتظار التي مر بها كبير الأساقفة أولاف تراجعت وطأتها أمام هذا الاكتشاف الباهر الذي يقوم به هذا الشاب في فك طلاسم قرون مما كان يُقال في الإمبراطورية القديمة، بل أضعفت من يقظته الشديدة كمحارب قديم عليه أن يكون متيقظًا طوال الوقت.

تم إحضار حقيبتين مليئتين بالوثائق والمخطوطات المكتوبة بلغة الإمبراطورية من أقبية مرسارا السرية. تفحصها كبير الأساقفة أولاف عن كثب في حجرة الكاتدرائية المقدسة؛ استغرقه الأمر أكثر من ساعتين للقيام بذلك. تفحصها صفحة تلو الأخرى من دون أن يفقه أي شيء منها -باستثناء بعض الكلمات التي تعلمها من ستيفنوس. ثم أرسل في طلب القس الشاب. كان الظلام قد أرخى سدوله في نهاية عصر ذلك اليوم الخريفي. أمر كبير الأساقفة بإضاءة جميع الشموع والشمعدانات الكبيرة حول جدران الحجرة المقدسة. عندما دخل الشاب اقترب من المائدة الخشبية حيث وضع أولاف المخطوطات أمامه وراح ينظر إليها بصمت. في ضوء الشموع بدت اللفائف أكثر اصفرارًا والحبر أكثر دُكْنة مما هو في الواقع.

ثم فتحا معًا أكبر لفافة بحرص شديد كي لا يتلفا الأوراق التي كانت تنتظر قرونًا كي يعيد أحدهم فتحها كما يفعلان الآن. كانت جافة ورقيقة لدرجة أنه إذا وضعتها أمامك في تلك الحجرة المضيئة، فإن بإمكانك رؤية بقية الحجرة من خلالها. بدأ القس الشاب بالقراءة من دون أن يترجم كلمة بكلمة، بل أخذ بتفسير الجمل والفقرات باختصار. أصغى إليه كبير الأساقفة أولاف بعناية

شديدة؛ كان أمامهما نص يصف الأيام الأولى القديمة لمورا، وهي حكاية كانت معروفة منذ قرون، لكن تم نسيانها تمامًا على مر القرون.

تملكت أولاف رغبة عارمة في معرفة المزيد. تلك كانت أطول جلسة بينهما مع تلك اللفافة. غادرا الحجرة المقدسة قرابة منتصف الليل بعد أن وضع كبير الأساقفة دعامة قوية خلف باب الحجرة لمنع أي شخص من دخولها، حتى كبير الكهنة الذي يصل في الصباح باكرًا لإقامة أول قداس. في اليوم التالي حرص على نقل جميع الرقوق واللفائف إلى القاعة الصغيرة للمجلس. منذ مغادرة السلطان نيريكو لم يُعقد أي من الاجتماعات هناك.

وهكذا بدأت سلسلة من اللقاءات الطويلة، ترجم خلالها كبير الأساقفة والقس الشاب أكبر لفافة فتحاها. كان من الغريب أن كبير الأساقفة لم يدع الشاب يعمل بمفرده رغم أن الشاب هو من كان يقوم بكل العمل. بقي يلازمه كظله. كما أنه أحضر رجل دين أبكم معروفًا بقدرته على كتابة الخط الكلاتوني بخط جميل. علاوة على ذلك، راجع أولاف الترجمة التي كان يقوم بها الشاب وقارنها بالكلمات التي ترجماها من لغة الإمبراطورية عندما كانا يعملان على المعجم الذي اقترحه الناسك منسونيوس.

لم يعثر كبير الأساقفة على أي اختلاف أو تناقض فيما قاله ستيفنوس من ناكور مع الترجمة التي قاما بها بعد فتح اللفائف القديمة، مما عزز في ثقة أولاف بأن الشاب كان صادقًا فيما يقوله ويفعله.

يومًا بعد آخر، في أثناء اجتماعاتهم في القاعة الصغيرة للمجلس، وتحت أعين كبير الأساقفة الساهرة، ترجم ستيفنوس من ناكور كل الكتابات القديمة التي كانت أمامهم، وكان رجل الدين ينسخ الترجمة على رقوق جديدة. ولأنه كان أبكم لم يستطع إخبار أحد بما كانوا يفعلون. لذلك اختاره أولاف، كما أنه وضعه تحت مراقبة مستمرة للتأكد من أنه لن يفشي شيئًا مما كانوا يقومون به.

ولكن، إن كان كبير الأساقفة قد ظن أن بإمكانه إخفاء ما كان يحدث عمن حوله، فقد أخطأ. من المستغرب أن رجلًا مثله يتمتع بخبرة كبيرة في القيادة

والفراسة، لم يدرك أنه من الصعب إخفاء مقدار الوقت الطويل الذي يمضيه بحماسة في هذا العمل الذي انبثق فجأة من دون سابق تبرير. حدث أيضًا أن قراءة الأحداث المنسية عن الإمبراطورية القديمة التي تركت بصمتها القوية على كلاتونيا أنست كبير الأساقفة المخاوف التي بدأت تتفشى في أرجاء المملكة، حيث لا أخبار عن بعثة السلطان نيريكو إلى أرض النورمانديين، سوى أن الجيش الكلاتوني قرر أن ينشئ معسكرًا كبيرًا لقضاء الشتاء في بونا.

كل الخرائط تُظهِر أن بونا تقع في أقصى الشمال حيث لم تتوغل قوات كلاتونيا من قبل، حتى في زمن السلطان توماس. لكن الرسول الذي نقل الخبر، وهو فارس مقدام يحظى بثقة السلطان نيريكو، أوضح كيف تمكنت قوات كلاتونيا من السيطرة على موقع مهم في بونا يُمكِّنهم من متابعة كل تحركات العدو. ولكن، تساءل كبير الأساقفة أولاف: كيف سيحصلون على الطعام والإمدادات الأخرى خلال أشهر الشتاء القاسية؟ لم يكن لدى الفارس المقدام أي إجابة.

السلطانة إيرين كانت أول من لاحظ كيف توقف رئيس الأساقفة أولاف عن القلق بشأن نيريكو وجيشه، وقد كان حتى وقت قريب شديد القلق بشأن الحملة. عندما تزوجها نيريكو كانت لا تزال فتاة يافعة تتمتع بجمال باهر، لكنها سرعان ما نضجت وأصبحت امرأة مقلة في الكلام وتتمتع بحكمة كبيرة، تعرف جيدًا كيف تُقيِّم من حولها وتحافظ على آرائها الخاصة. أحاطت نفسها بمجموعة مصطفاة من الوصيفات من بنات النبلاء ممن لهم نفوذ واسع بين العائلات المهمة في سلافية. مع كبير الأساقفة شكلت سندًا قويًّا للسلطان نيريكو، الذي إن كان لديه عيب، فهو إطلاق العديد من الأفكار والمشاريع التي سرعان ما يمل منها ويتحول إلى أشياء أخرى. كانت تحثه على مراقبة ما التزم به قبل الخوض في مجالات جديدة، وإلا فسوف يبدد جهده ولن يحقق شيئًا. كانت أكثر حجة وإقناعًا من أولاف نفسه عندما تجادله بهذه الطريقة.

مع كبير الأساقفة كان نيريكو يبتسم ويخفض رأسه كأنه لم يسمع شيئًا، مما يصيب أولاف بغضب شديد، رغم أنه لا يمكنك البقاء غاضبًا على السلطان نيريكو. في المقابل، غالبًا ما كان يستمع لنصائح إيرين بل وينفذها في كثير من الأحيان. كان هذا سببًا آخر وراء نجاح زواجهما، على الأقل كما يبدو من الخارج. اعتبره الجميع زواجًا مثاليًّا لإحياء سلالة السلطان توماس ووضعها على رأس كلاتونيا. ولكن ظل هناك خطب واحد يشغل عقل كبير الأساقفة ويتداوله الآخرون علانية: لماذا لم ينجب الزوجان الملكيان بعد كل هذا الوقت؟

إيرين كانت أول من لاحظ أن كبير الأساقفة لم يعد قلقًا لشَحَّة الأخبار عن حملة السلطان نيريكو. فوجئت بهذا وسرعان ما واجهته بالأمر. ازدادت دهشتها عندما ظل واجمًا وبدا وكأنه لا يدري كيف يجيب.

رغم مظهره الفظ وحضوره القوي، كان أولاف رجلًا لا يقوى على الكذب. كان عليه أن يخبرها بكل ما يجري مع القس الشاب ستيفنوس من ناكور. أصرت السلطانة إيرين على مقابلة هذا الشاب. أرادت حضور الجلسات التي تتم فيها ترجمة رقوق الإمبراطورية القديمة إلى لغة كلاتونيا. لم يستطع كبير الأساقفة أن يرفض طلبها.

للمرة الثانية، رغم أنه كان خبيرًا في رؤية ما يحدث من حوله والتأمل فيه، لم يلاحظ أولاف وميض الفرح الذي سرى في عينَي ستيفنوس من ناكور عندما حضرت فجأة السلطانة إيرين من دون سابق إنذار بينما كانا يعملان على مخطوطة قديمة. لم يتفاجأ كبير الأساقفة بهذه الزيارة، بل ظهر أنه كان يتوقعها، كما فهم ستيفنوس على الفور. أوضح أولاف أن السلطانة أرادت أن تتابع بنفسها ما يقومان به، وأنها حريصة مثله -كبير الأساقفة- على معرفة ما تحويه تلك الرقوق. القس الشاب لم يَقُل شيئًا. بعد أن انحنى تعظيمًا للملكة عاد لمتابعة عمله، بل إنه ازداد حماسًا ورشاقة في ترجمة لغة الإمبراطورية المنسية. سألته إيرين كيف اكتسب هذه القدرة التي فُقدت منذ قرون. لم تكن لديه إجابة غير تلك التي أعطاها لكبير الأساقفة: «ربما ولدت بهذه

القدرة المنسية». كانت الملكة تنظر مباشرة في عينيه. أدرك أن هذه المرأة ستكون خصمًا أشد وأقسى بكثير من كبير الأساقفة.

في الأيام التي تلت انضمت إليهما إيرين بروحها وجسدها. بالنسبة لها ولكبير الأساقفة، كعضوين في المجلس، فقد خفف التنقيب في أسرار الإمبراطورية من قلقهما الذي بدأ يتصاعد بحلول فصل الشتاء. ماذا حل بجيش السلطان نيريكو؟ الأخبار الواردة من معسكر نيريكو شحيحة ومقتضبة.

نظرة الشك والريبة من قبل السلطانة إيرين نحو ستيفنوس من ناكور بدأت تتلاشى تدريجيًّا في أثناء انغماسهم في العمل على الرقوق في القاعة الصغيرة للمجلس، في حضور رجل الدين الأبكم الذي كان يُدوِّن كل ما يُملى عليه بكل حذافيره. واصل الشاب العمل من دون أن يرتكب خطأ واحدًا. الوثائق التي كانوا يفكون رموزها بموهبة الشاب، أخيرًا، بعد كل تلك القرون، حضرت لتُلقي الضوء على ماضي كلاتونيا، وعلى عاداتها ومعتقداتها التي لا يعرفها أحد اليوم، ومن أين جاءوا. عثروا على إجابات للعديد من التساؤلات المراوغة حول سبب تصرف الكلاتونيين بطريقة ما دون أخرى. حول هذه الأسئلة، بدلًا من إجابة حصيفة، نجد حكماءهم وكهنتهم يجيبون: «هكذا خُلقنا في كلاتونيا. ألم يُخلق آدم كما هو؟ وكذلك حواء التي خرجت من ضلعه؟ نحن من نحن. وما ينطبق على آدم وحواء ينطبق علينا جميعًا».

لكن على سبيل المثال، من خلال قراءة الوثائق التي ترجمها القس الشاب، أصبح من الواضح أن عادة الاحتفال بالمهرجان في أوائل الربيع من كل عام قد أتت من مورا، وأن القانون الذي بموجبه يقتصر تقسيم الإرث بين أول مولودين فقط لم يكن شيئًا ابتدعه الكلاتونيون، بل قانونًا سنَّه أباطرة الإمبراطورية القديمة.

مثل كبير الأساقفة أولاف افتُتنت السلطانة إيرين بالمعلومات التي كان يميط اللثام عنها ستيفنوس. انغماسهم الأربعة في العمل (أضفنا الرجل الأبكم) مكَّنهم من تناسي عدم ورود أنباء جديدة عن السلطان نيريكو. ويجب

التنويه هنا على أن الملكة لم تعد تنظر إلى القس الشاب بريبة، بل بدأ يثير لديها اهتمامًا قويًّا لمعرفة من هو هذا الرجل الغامض الذي انبثق من العدم ليكشف أعمق أسرار كلاتونيا.

أخيرًا، وصل رسول من جيش نيريكو. كان يلهث وبالكاد يقوى على الكلام، ويعاني من حمى شديدة بسبب جراح ملتهبة. في أثناء عبوره الغابة إلى كلاتونيا تمكن أحد المحاربين النورمانديين من طعنه بحربة في فخذه.

الرسول أخبر أولاف أن جيش السلطان نيريكو محاصر في معسكره الشتوي، وأن الطعام في تضاؤل كبير، والمرض قد فتك بالكثير من الجند، وأن البرد شديد لدرجة أن بعض الجنود ماتوا متجمدين. علاوة على ذلك، شن النورمانديون هجومًا عنيفًا في ذروة الليل. بذلوا قصارى جهدهم لإحراق المعسكر الكلاتوني. وفي وقت خاطف تمكن النورمانديون من قتل الكثير من قوات كلاتونيا. الوضع في المخيم الشتوي كان يسير من سيئ إلى أسوأ.

فور ورود الأنباء خيم ظلام دامس على مواطني سلافية. بالتأكيد لم يتوقعوا مثل هذه الكارثة. يمكننا القول إن كل أسرة كان لديها ابن أو قريب أو صديق في قوات السلطان نيريكو. لكن هذا هو التغيير الكبير الذي حدث بين الكلاتونيين خلال السبعين سنة الماضية أو نحوها؛ أي منذ زمن النهضة الذي قاده السلطان توماس، حيث كانت مثل هذه الأنباء تسحقهم تمامًا، تاركة إياهم لليأس والإحباط، لكنهم اليوم، رغم الحزن والكرب، يدركون جيدًا أن عليهم التوحد من أجل مواجهة هذا التهديد الوشيك.

شعر كبير الأساقفة أولاف أن عليه على الفور تشكيل جيش جديد لدعم السلطان نيريكو المحاصر في غابات النورمانديين. لم يعارضه أحد، وفي الأيام التي أعقبت وصول الرسول (الذي توفي من حمى العدوى التي ألمت به، بعد أن أعطى معلومات كاملة عن موقع معسكر الجيش الكلاتوني)، تمكن أولاف من حشد ثلاث كتائب مزودة بالذخيرة والمؤونة اللازمة للتوغل في الأراضي النورماندية. بعد بضعة أيام كان الجيش جاهزًا للتحرك تحت قيادته.

بهذه المناسبة أقيم احتفال كبير ومهيب في كاتدرائية سلافية، حيث بارك كبير الأساقفة الجند الذين سيرافقونه. كما أقيمت صلاة تضرعًا إلى الله كي يأخذ بيد السلطانة إيرين في إدارة المملكة التي أصبحت الآن تحت إمرتها كوصية على العرش. في صباح يوم ماطر من أواخر الشتاء تجمع الجيش بقيادة كبير الأساقفة أولاف في الساحة الرئيسة في المدينة. تحلقت حولهم جماهير غفيرة. السلطانة إيرين حيَّت الجيش من المنصة، وتمنت لهم النجاح في مهمتهم. بعد ذلك بقليل غادر الجيش سلافية.

في صباح اليوم التالي أرسلت السلطانة إيرين في طلب الشاب ورجل الدين الأبكم لمواصلة العمل على كشف أسرار مخطوطات مورا القديمة.

مهنة

في أثناء حديثه إلى المدير اقترب من النافذة الكبيرة المفتوحة تاركًا مشهد المرفأ يغمره. كان البحر راكدًا يعكس خيوط الشمس وما وراءه حتى بلدات الجنوب. تحت أحد جدران البلدات شاهد مقدمة سفينة عملاقة راسية في الميناء لإجراء بعض الإصلاحات ربما، مما جعل منازل البلدة والقلعة المجاورة لها تبدو كدمى صغيرة. أمام الناقلة تستعد سفينة ركاب أصغر حجمًا للرسو. في الطريق تحت النافذة المطلة على المرفأ تحت أسوار فاليتا شاهد زوجان يسيران، كان الرجل يرتدي بنطالًا قصيرًا وقميصًا مفتوحًا، والمرأة ترتدي حمالة صدر وتنورة حمراء طويلة. كانا يمشيان بتلكؤ.

كل ما قاله المدير كان يعلمه سابقًا، لذلك تابع المشهد من دون أن يُظهِر له أنه لم يأتِ بأي شيء جديد. اتفقا على كيفية حل المشكلات العالقة من الأسبوع الماضي. كرر المدير نفسه أكثر من مرة للتأكد من أنه لم يُفهم خطأ، بينما كان يمرر إصبعه باستمرار على شفتيه تحت أنفه الكبير. كان يعلم بكل تعقيدات القسم وعلى دراية بكل شأن من ألفه إلى يائه. ولكن لسبب ما كان يتردد كثيرًا قبل أن يتخذ أي قرار، خشية أن يرتكب خطأ ما، لذلك كان دائمًا بحاجة إلى أحد بجانبه، كي يشاطره القلق.

قبل أن يترك النافذة التقط أنجلو ملف القضايا التي عليهم معالجتها، وعندما هم بمغادرة المكتب استوقفه المدير بإيماءة من رأسه:

- قل لي...

كأنهما ما زالا يناقشان ترميم الأرصفة وإصلاح الطرقات التي كانت في ذلك الوقت تقع تحت إشراف قسمهما.

- هل تنوي أن تصدأ هنا؟

اندهش أنجلو من السؤال.

- أصدأ؟!

- لأنه لا توجد مهنة لك هنا، تعلم هذا! لا مال ولا اهتمام ولا احترام. يعاملونك مثل القمامة، من الوزير حتى الدرك الأسفل. تبد وكأنك ترغب في أن تتعفن هنا.

- لست متضايقًا هنا.

- دعنا نواجه الأمر. إذا كانت هذه الحكومة لا تفعل شيئًا والمَدحلة في الوزارة، فسيجعل البلد يفيض بالمباني. سيكون هناك الكثير من العمل للمهندسين المعماريين في القطاع الخاص من أمثالك.

- سيُؤخذ معظمهم من قبل أصحاب الشركات الكبيرة.

- إنهم متعبون ولا يفعلون شيئًا سوى سلخ كل من يلجأ إليهم. لو أنهم يفعلون هذا مع الأسر البسيطة، فلن يلاحظ أحد ذلك. لكنهم بدأوا يزاحمون رجال الأعمال وأبناء النخبة. لكن حتى لو ابتلع الكبار العقود الكبيرة، فسيظل هناك ما يكفي للمنافسة.

- هل تقصد الفنادق بالعقود الكبيرة؟ لأن المطار جاهز. ماذا بقي؟ أم العقارات السكنية؟ يومًا ما ستنفد هي الأخرى.

- لا تنسَ البنايات التجارية! ولكن قل لي، هل حقًّا ستبقى هنا؟

أصبحت ضحكة المدير قوية وعكرة أيضًا لأنه تذكر كيف كان يفكر بنفس الطريقة وظل قابعًا هنا، واليوم لم يبقَ له سوى المرارة والأسى.

- أحب عملي وتعجبني أوقات العمل.

نظر إليه المدير بطريقة مريبة.

- هل أنت واحد منهم؟

- واحد ممن؟

استمرت شكوك المدير في التزايد.

- منذ أسبوع سألني فنسنت عنك، سكرتير الوزير الخاص، أراد أن يعلم ما طبيعة العمل الذي نكلفك به. هل أنت من طلب منه أن يسألني؟

- أنا؟

ضحك أنجلو.

- أنا لا أعرفه حتى. عادة عندما يرسل الوزير بطلبنا دائمًا يكون تشارلز برفقته، وليس هذا...

- فنسنت في أمانة الحزب مع المَدحلة. ألا تعرف من هو؟

- لا، ولكن سمعت به. لكني لست متأكدًا مما إذا كنت أرغب في البقاء هنا إلى الأبد. في غضون ذلك يعجبني العمل، وتعجبني أوقاته أيضًا ولست مكتئبًا.

لم يخبر المدير أنه لا يرغب في الكثير من المشاغل والمتاعب، ويفضل أن يكون لديه الوقت الكافي خارج العمل لمتابعة اهتمام حياته الكبير الذي ظل يرافقه منذ أن خط أول كلمة على دفتر والده القديم. لم تكن المهنة هي التي تهمه كما تخيل المدير.

- 16 -

مصادفة

استدار فشاهد مورين خلفه، ضحكت لأنه تفاجأ.

- لا تقل إنك لم تشاهدني؟

سألت بصوتها الصارخ.

- لا.

لم تصدقه.

- هل تقصد أنك دائمًا تعيش في السحاب؟ إذن ماذا تفعل هنا؟ هل تعد لرواية أخرى لن يقرأها أحد؟

- أنا هنا لألتقي بوفدين من المشاركين في مؤتمر المعماريين الحكوميين في حوض المتوسط. سيصلون متأخرين بعض الشيء. وأنتِ؟

- لقد أوصلت صديقة للتو، أعتقد أنك تعرفها؛ ديجي. هل تذكرها؟ قالت إنها اعتادت أن تكون برفقتك أنت ونيكي، واثنين آخرين.

لم يكن طابور المسافرين والآخرين الذين ينتظرون شراء القهوة أو بعض المعجنات طويلًا، لكن الخدمة بشكل عام كانت بطيئة. يبدو أن الأمر سيستغرق بعض الوقت كي يحين دورهما. ومع ذلك لم يزعجهما ذلك. سعدا بهذا اللقاء. أنجلو أعجبه أسلوبها الرياضي، واهتمامها بالتنس وكرة القدم والوقت الذي تمضيه في ممارسة التمارين الرياضية خارج ألعاب التنس. ما دام نيكي سعيدًا، فليس لديه ما يقوله. لكن اليوم وبشكل غير متوقع، خطرت في ذهنه فكرة أن هذا المظهر الرياضي يزيد من فتنة مورين. كانت ترتدي معطفًا صوفيًّا خفيفًا أسود اللون، كتفاها صلبتان وفخذاها مستقيمتان، مما أعطاها مظهر امرأة لم تعد صغيرة ولكنها أجمل بكثير مما كانت عليه في أي وقت سابق. حتى البقع التي كانت تشبه الندوب على خديها، ضاعت خلف الابتسامة الكبيرة على وجهها التي جعلتها تبدو أكثر جمالًا. وبخلاف العادة،

صوتها المزعج الحاد، بدا جميلًا. ربما كانت تبادله نفس الاهتمام لأنها قالت له مبتسمة:

- لم أكن أعلم أنك ترتدي ملابس أنيقة للغاية في العمل.

- حقًّا؟ أردت أن أبهر هذين الوفدين. إنهم إسبان.

أخيرًا وصلا إلى رأس الطابور. دفع الفاتورة كما توقعت منه أن يفعل. حمل الكابتشينو إلى مائدة جانبية حيث استمرا في الحديث كما لم يفعلا من قبل. تكلما حول الأولاد، عن نيكي ودينيس، والإجازة الأخيرة، وعن الرواية التي يستعد لكتابتها، وعن بطولة التنس القادمة التي تُحضِّر لها... استمتعا برفقة بعضهما لدرجة أنه لم يدرك أن موعد وصول الطائرة قد حل فاضطر إلى الاعتذار بشكل مفاجئ وهرول نحو صالة وصول الركاب، ولحسن الحظ وصل في الوقت المناسب، فقد كانوا خارجين لتوهم من بوابة الوصول. ذلك كان أول لقاء بينهما ضمن سلسلة من اللقاءات الودية التي بدأت مصادفة -وخلال عامين ونصف لم يذكرا شيئًا عنها لسبب غير واضح.

* * *

كان عليه أن ينتبه لأن هناك شيئًا غريبًا يتم تحضيره، بحكم أنه سمع لأول مرة عن الاجتماع من ريجو. منذ متى كان ريجو يهتم بالأدب؟ ربما في سابق الأيام عندما كان أصغر سنًّا كانت تغريه الأفلام الإباحية. في ذلك الوقت كان منشغلًا بالتودد للمقاولين كي يمنحوه بعض الأعمال الصغيرة في أحد المباني، لكنه كان على صلة وثيقة برجال الأعمال الذين يعلمون أين عليهم الذهاب للحصول على تصاريح معينة. كان قد بدأ يحتك بحزب المعارضة وأحيانًا كانت تنتشر بعض الشائعات بأنه سيمثلهم في الانتخابات القادمة. ريجو لم يفهم قَط كيف بقي أنجلو يعمل في القطاع العام؛ طلب منه مرة الانضمام إليه كشريكين في بضعة أعمال معمارية، وكي يغريه أخبره أن ليس عليه ترك وظيفته. تفاجأ عندما اعتذر أنجلو.

- أخبار تهمك بالتأكيد؛ كروميو هابيلا سيطلق رواية جديدة في فندق كبير في فاليتا، وهناك الكثير من الاهتمام بها.

- منذ متى أصبحت تهتم بالروايات؟

سأله بدهشة بينما لم تخامره أي شكوك لأن ريجو كان دائمًا يهوى نقل الأخبار التي تهم أصدقاءه بابتسامة ماكرة، عدا الهواية الأخرى؛ إسداء النصائح غير المطلوبة.

بعد عدة أيام تلقى دعوة من الناشر لحضور أمسية إطلاق الكتاب. حسب الدعوة، ستتم مناقشة رواية «اغتيال الورود» للكاتب كروميو هابيلا وتقديمها للجمهور من قبل أربعة محاورين؛ أكاديميان واثنان آخران على دراية بالسياسة. وغني عن القول أن الغرض من كل ذلك هو إثارة الاهتمام في وقت يسود فيه احتراب سياسي يتسم بالعنف، ففي الوقت الذي يصرح فيه الجميع علانية باشمئزازهم من السياسة، يقوم السياسيون أنفسهم بجر المراسلين والكاميرات خلفهم بغرض الدعاية.

في البداية شعر برغبة غريزية في تمزيق الدعوة: «كم يبالغون!»، تذمر بمرارة. «هل يعتقدون أنهم بذلك سوف يملأون صالة الفندق؟». لكنه يكن تعاطفًا كبيرًا لكروميو هابيلا، حتى وإن كان يعتبره ساذجًا في الطريقة التي يتعامل بها مع الحياة. في الفترة الأخيرة، انتقل كروميو إلى أسلوب في الكتابة أثار إعجاب أنجلو. كان يقدره أيضًا لأنه لم يكن متعاليًا على من حوله، حتى أولئك الذين يمقتونه بسبب المنافسة. قلة من الناس كذلك. من جهة أخرى، بمرور الوقت، بدأ أنجلو يتردد في قبول السذاجة، لذلك فضَّل البقاء على الهامش.

تقديرًا لكروميو قرر الذهاب لحفل إطلاق كتابه. تفاجأ عندما وجد صالة الفندق مكتظة. تمنى لو حظي بربع هؤلاء الحضور عندما أطلق روايته «كرات النعناع» قبل عام في قاعة بائسة لجمعية ثقافية متواضعة. شعر بالغيرة تجاه كروميو.

كانت هناك جلبة لم يستطع فهم مصدرها. إلى اليمين عند مدخل القاعة وجد مائدتين تعرضان الكتاب للبيع، حولهما حشد صغير. يبدو أن كل من حضر إلى هنا اشترى الكتاب. حتى هو نفسه اشترى نسخة. لمح ريجو بجانب أحد

الأعمدة في القاعة، لكنه لم يقترب منه. عثر على مقعد في آخر الصفوف، معظمها كان شاغرًا. لكن ما إن بدأت الندوة بعد بضع دقائق، حتى امتلأت جميع المقاعد، بل كان هناك العديد وقوفًا.

في النهاية تحلق المحاورون حول المائدة. بعضهم يتصفح الكتاب الذي اشتراه لتوه، وبعضهم يحاول الابتعاد عن الضيف الجالس بجانبه بسبب رائحة العرق الكريهة المنبعثة من تحت إبطيه، والبعض الآخر يحاول أن يعالج خللًا في الميكروفون أو أنه لا يسمع جيدًا.

سرعان ما شعر أنجلو بالضيق. يبدو أن المناقشة لا تدور حول كتاب كروميو، ولكن حول الوضع السياسي الرديء في البلاد. لم يبدُ أن كروميو الذي كان يجلس بين المحاورين متضايقًا. سُمعت بعض الصيحات من الجمهور تؤيد ما يقوله هذا أو ذلك. اندلعت عاصفة من التصفيق عندما قال أحد المتحدثين إنه متعصب لحزبه. ثم انهال سيل من التعليقات المماثلة لإثارة المزيد من التصفيق. فجأة من جانب القاعة خرج شبان يحملون كاميرات لتصوير الحدث. كان الجمهور أكثر حماسًا لسماع المزيد.

أحد المتحدثين لم يكن معجبًا بكتاب كروميو -وقد طرح وجهة نظره؛ ولكن هل كانت وجهة نظره سياسية أم أدبية؟ مهما يكن من أمر، فالجمهور لم يتفق معه. يبدو أنه لا يعلم إلى أين أتى. هذه ليست أمسية أدبية، بل مهرجان سياسي، وكان التزام أنجلو الأكبر ولا يزال أن يظل بعيدًا عن السياسة؛ حياته كانت في الكتابة، لا أكثر ولا أقل. بقي في القاعة حتى حان دور كروميو في الحديث. ثرثر طويلًا حول الرواية وحول ما كان يحدث في البلد، وحول ما حدث قبل مائة عام، في خلط كثير في الحقائق والآراء التي تدفقت جياشة من فمه. ورغم كل ما ثرثر به، فقد التهبت القاعة حماسًا.

مشكلة أنجلو -كما قال لنفسه لاحقًا، لفهم ما حدث- أنه كان منعزلًا جدًّا عن الحراك الذي كان يحدث في البلاد، ولا يكترث بمن يحكمها... ما لم تصبح الأمور قذرة جدًّا. صحيح أن الأمور لم تكن جيدة، لكن يتعين عليها أن تصبح «أكثر قذارة»، وليقُل ما يشاءون مناهضو الحكومة، في نهاية المطاف، أيًّا

كان من في سدة الحكم، فسوف تبقى الأوضاع سيئة -سيئة ولكن ليست قذرة بعد، لأنه مهما قالوا، فهذه دولة يديرها أناس حذرون يحسبون عواقب كل شيء. بغض النظر عما يحدث، سيبقى خارج اللعبة، سيعيش «في الداخل»، لكنه في الواقع سيكون في الخارج. لو أراد خلاف ذلك لفعل مثل بقية زملائه -تركوا العمل مع الحكومة واتجهوا إلى القطاع الخاص.

نهض قبل انتهاء الأمسية، كان عليه إخراج الصف بأكمله كي يتمكن من المرور. سمع همهمات تذمر لأنه أزعجهم. وفيما كان خارجًا من جانب القاعة حيث الجميع يتابع بشغف الجولة الأخيرة بين المتحدثين الضيوف، قام أحدهم بالربت على ظهره من الخلف.

- هل أنت ذاهب؟

كان ريجو بصحبة رجل بدين في منتصف العمر، تذكره لأنه حاضر دائمًا في كل المناسبات الأدبية.

- أنا في عجلة من أمري.

أجابه أنجلو على مضض.

- متى ستمنحنا كتابًا مثل كتاب كروميو؟

سأل ريجو.

- ننتظر منك كتابًا الآن، وأن تتكلم بصوت مرتفع، سيما في مثل هذه الأوقات الرديئة.

الرجل السمين أومأ برأسه مبديًا أنه يتفق مع ريجو.

بحلول مساء اليوم التالي كان قد قرأ رواية كروميو. في البداية خالجه الخوف والغيرة. من يدري ما إذا كان كروميو قد كتب ما أراد هو كتابته منذ مدة طويلة، أو ما زال يستعد لكتابته. لكن سرعان ما هدأت مخاوفه. لم يناقش «اغتيال الورود» مع أحد ولم يشعر بالحسد تجاه النجاح الذي حققه كروميو خلال الأمسية، عدا البيع المثير الذي حققته الرواية. «اغتيال الورود» جعلته يشعر بفتور شديد.

* * *

- 17 -

امرأة

نينا سخرت منه كثيرًا، ليس لأنها أحبت حماقته، بل لأنها أدركت مدى نفاقه.

لا يدري لماذا بدأ يتحدث عن أنه سيكون أمرًا مثيرًا لو أنه ودينيس أصبحا جدَّين. كانت عينا نينا تفيضان بالسخرية. لكن، كان فيهما شيء آخر لم يتمكن من تحديده. لا، كان يعلم ما هو لكنه فضَّل ألا يكون متيقنًا. وجه آخر من نفاقه، أسوأ مما قبله.

جرعت الفودكا بعصير البرتقال ونهضت من على المائدة من دون أن تنتظره حتى ينتهي من شرب الجعة، تكاد لا تسيطر على نفسها من الضحك. ذهبت لدفع الحساب وأجاز لها ذلك. في العادة، عندما يحضران إلى هنا لتناول شيء ما تخليدًا للذكريات عندما كان يحضرها هي ومارجون إلى الأراجيح أمام الكافيتريا، كان يصر على دفع الفاتورة وكانت تسمح له بذلك. لم يكونا يشربان الخمر. هذه المرة الأولى. لكنها أصبحت تشرب الفودكا أكثر من ذي قبل، وفي أوقات من النهار حيث لا ينبغي لها أن تفعل ذلك -(لكنه يفعل نفس الشيء رغم أنه يشرب الجعة)، هذا لا يعني أنهما يأتيان إلى هنا كثيرًا، أو أنهما يلتقيان كثيرًا، ولكنهما يقومان بذلك من وقت إلى آخر.

- هلا أخبرتِني لماذا كل هذا الضحك؟

سألها بعد أن ابتلع آخر جرعة من الجعة ولحق بها إلى موظف الصندوق.

- بسببك!

قالت له وانفجرت ضاحكة من جديد.

- تواصل التظاهر بأنك لا تعلم شيئًا عنا. بما في ذلك أن مارجون لا يضاجع النساء.

* * *

في ذلك المساء تمكن باولو من مضايقة نيكي بأسئلته المزعجة. لطالما كانت لديه هواية انتقاء الألفاظ بعناية كي يضايقه. كم كان أصغر سنًّا؟ سنتان

أو أكثر بقليل، لكنها السنوات التي كانت تجعل ولدًا أو بنتًا أكبر أو أصغر من الآخر.

- إذن من اختار لك اسمك؟ بابا أم ماما؟ وهل ينادونك بهذا الاسم منذ ولادتك؟ نيكي؟ هل تدري لماذا أسأل؟ لأن نيكي اسم امرأة. أعتقد أنك تعرف جوني، وتعلم أن لديه ابنة عم اسمها نيكي؟ مثلك تمامًا. أنا شخصيًّا التقيتها. لكن حقًّا، هل كانوا ينادونك بهذا الاسم على الدوام؟ هل هذا صحيح يا أنجلو؟

أنجلو أومأ برأسه موافقًا.

- هل اعتقدوا أنك بنت عندما ولدت؟! لا بد أن شيئًا كهذا قد حدث!

نيكي بدأ يستشيط غضبًا.

أصبح الأمر واضحًا بمجرد وصولهما إلى المنزل، حيث وجد أنجلو وشقيقه والدتهما جالسة بمفردها في المطبخ. سألها نيكي عن والدهما فأجابته بأنه سيأتي قريبًا. وبالفعل وصل بعد فترة وجيزة، شاحب الوجه. لم يفهم الصبيان أنه كان ثملًا. الزوجة لاحظت ذلك على الفور وبدأت بالسباب والصراخ في وجهه. فجأة تدخل نيكي وقال إنه يريد تغيير اسمه لأنه اسم بنت وليس اسم ولد، وأنه ولد وليس بنتًا. لم يستطع الأبوان فهم كيف تجرأ على التدخل بشكل غير متوقع في الخلافات المعتادة بينهما. في البداية ظنا أنه يمزح وأراد إغاظتهما. انزعجا لأنه قاطع مشاجرتهما اليومية.

لكن نيكي هذه المرة لن يسمح لهما بتجاهله. إن تجاهلاه فلن تُحَل المشكلة، وقد أصبح الأمر فعلًا يثقل كاهله. ظل يبكي ويصرخ أنه يريد تغيير اسمه:

- أنا لست بنتًا. نيكي ليس اسم ولد، نيكي اسم بنت.

أخذ الأبوان يحدقان فيه. نسيا شجارهما الذي كان جزءًا من حياتهما ودليلًا على أنهما ليسا موفقين في زواجهما. خشيا أن يكون نيكي ليس على ما يرام.

* * *

في وقت متأخر من الليل كان الجزء العلوي من التلة مضاءً. انقضت حركة موكب السيارات القادمة على السفينة من جويرة قوزو؛ يمكنه القيادة كما يشاء، لكنه الآن يقود بتمهل، بما أنه تجاوز التلة.

على الجانب الأيمن من الطريق في ضوء الفوانيس الصفراء لمح ثلاثة أشخاص؛ امرأة عجوزًا تمشي ممسكة بعصا، ورجلًا طويلًا رشيقًا يسير خلفها ويراقب خطواتها، وخلفهما امرأة ليست طويلة ولا قصيرة، جنباها وكتفاها نحيفة، وفخذاها مستقيمتان تحت تنورة من قماش خفيف يصل حتى الركبة. كم من الوقت استغرقه لرؤية هذا المشهد حتى وإن كان يقود ببطء شديد؟ كان الأمر أشبه بالتقاط صورة لا تُمحى أبدًا. مظهر تلك المرأة في ضوء الفوانيس الصفراء أو البرتقالية ظل في مخيلته بعد أن تجاوز الثلاثة أفراد هابطين من التلة نحو الفندق بجانب البحر، بعد أن تجاوزهم، كان على يقين من أنه لن يشاهدهم مرة أخرى. مشهد تلك المرأة التي ليست بالطويلة ولا بالقصيرة، بتلك التنورة من قماش خفيف تتدلى من خصرها حتى فخذيها، تعكس كل حركة من جسدها وبطنها النحيف، أو هذا ما تخيله. في أثناء قيادته ببطء، كان يجردها من ملابسها قطعة تلو الأخرى، ويستمتع بتضاريس جسدها، ثم يمددها عارية، ويتحسس كل استدارة في جسدها، ويلامس فخذيها، ويعد أضلاع ظهرها ضلعًا ضلعًا، ثم يضمها إليه. كل هذا في أثناء قيادته نزولًا نحو الشاطئ، ثم يلبسها ملابسها مثل دمية، أو ذكرى لدمية أثارته بشكل مفاجئ، لمجرد أنه شاهدها مصادفة في أثناء هبوطه قمة التل، هذه المرأة التي لم يشاهدها من قبل ولن يتسنى له معرفة المزيد عنها أبدًا، تسير في شفق ليل صيفي، خلف المرأة العجوز بالعصا والرجل الطويل، مرتدية فستانًا صيفيًّا طازجًا يشهد على جمالها، أو هذا ما ظنه لأنه لم يلمح وجهها قَط، بل تخيله.

ترحاب

حضرت الحشود من كل حدب وصوب. كانت الأخبار قد انتشرت كالنار في الهشيم في خضم عاصفة جوية. اصطف مواطنو سلافية على جانبي الطريق

الواسع المؤدي من بوابة المدينة حتى الساحة الرئيسة. فاضت الحشود خلف البوابة فاضطرت الحشود إلى التجمع في الحقول الخضراء المنبسطة على طول السهل الذي يمتد بين المدينة والتلال المحيطة بها. كانوا جميعًا سعداء بانتصار جديد في سلسلة الانتصارات التي حققتها كلاتونيا منذ عهد الملك توماس. بين الجموع كانت هناك أسر ممن ذهب آباؤهم أو أبناؤهم برفقة جيش نيريكو، والآن، في خضم هذه البهجة، كانوا في غاية الترقب. هل سيعود أحباؤهم ممن غادروا مع الملك هذا الصباح؟ هل هم حقًّا في طريقهم إلى سلافية؟

الشمس كانت قد أشرقت منذ فترة طويلة واقترب النهار من الظهر ولم يظهر الجيش من الوادي بين التلال المؤدية إلى السهل. الجميع كان يحدق في ذلك الاتجاه. حاول البعض التقدم لتحية الجيوش وهي تشرف من الوادي على مشارف سلافية، لكن صدرت أوامر لا أحد يعلم مصدرها، واعترضهم حراس غلاظ مسلحون حتى أسنانهم وأجبروهم على العودة من حيث أتوا. تقرر الترحيب بالملك المنتصر نيريكو عند مدخل سلافية وداخل طرقاتها وليس قبل ذلك.

كانت الخطة تقتضي أن يدخل الجيش المنتصر سلافية بعد الفجر بوقت قصير. كان هذا اقتراح كبير الأساقفة أولاف الذي وافق عليه نيريكو. لكن الجيش تباطأ في أثناء مسيرته ليلًا، ولأنه كان مثقلًا بعدد كبير من الجرحى قرر الملك ألا يتقدموا بسرعة، خلافًا لما اقترحه كبير الأساقفة، وأصر على إقامة معسكر في تلك الأودية والتوقف للراحة كي يبدو الجند أقوياء عند وصولهم إلى المدينة بعد المسير لأيام طويلة.

في حقيقة الأمر راق للملك قضاء ليلة أخرى في خيامه. أولاف كان يعلم السبب الحقيقي، لكنه آثر الصمت ووافق على تغيير الخطة. في هذا الوقت أخذت نخبة الجيش قسطًا من الراحة في الوديان المحمية بالصخور وملأوا بطونهم بما تبقى من المؤونة التي سلبوها من أراضي النورمانديين. ومع هذا أصر أولاف على إرسال سرية من الجند في المقدمة كي تهيئ لوصول

الجيش. كانت الخوذ المعدنية للجند تلمع في ضوء الفجر وهم يعبرون جانب الجبل الأخير المؤدي إلى سهل سلافية، هذا ما لمحته السلطانة إيرين من فتحات حجرة نومها، في تلك المسافة بين التل والقلعة الملكية.

نيريكو لم يفِ بوعده بمتابعة المسير عند الفجر. شيء ما أخَّره في مخدعه، وعندما خرج لتفقد الأفواج المنتظرة على طول الوادي، كانت الشمس قد أشرقت منذ مدة. عندما انطلقوا إلى السهل باتجاه جموع السلفيين المحتشدين أمام بوابة المدينة، اتخذت مسيرة الجحافل المسلحة إيقاعًا مهيبًا.

في المقدمة سارت أول الأفواج التي غادرت مع نيريكو، يتوسطهم السجناء الذين أحضروهم معهم، رجالًا ونساء وأطفالًا من النورمانديين، مرتدين ملابس ممزقة، ويحملون على ظهورهم أو يجرون خلفهم عربات من الغنائم التي تم سلبها من البلدات والقرى التي دُمرت وأُحرقت خلال الحملة.

خلفهم سار الرهائن الذين أُخذوا من قبائل النورمانديين كضمان للحفاظ على السلام في المستقبل. شبان ورجال ونساء من خيرة أبناء نبلاء النورمانديين، يرتدون ملابس أفضل من الأسرى الآخرين. ورغم أنهم كانوا يحصلون على طعام أوفر وأفضل من أقرانهم، فإن وجوههم كانت فزعة، مليئة ببؤس من يُساق إلى الموت.

تبعتهم الكتيبتان اللتان غادرتا لنجدة الجيش مع أولاف. مشيتهم كانت أكثر صرامة من الأفواج الأخرى، شهادة على شدة الانضباط الذي حافظ عليه كبير الأساقفة. لم يُسمح لأسراهم بالسير وسط جنود كلاتونيا، بل حملوا على عربات منخفضة محملة بالغنائم التي استولوا عليها من النورمانديين. كانت العربات تُجر من قبل أقوى رجال العدو، تحت حراسة مشددة من حراس أقوياء تم اختيارهم بعناية كي يسوقوهم تحت السياط.

بين فوج كبير الأساقفة وجحافل الفرسان في أبهى حللهم يمشون بخطى ثابتة حول الملك، كان هناك رجلان ضخمان مقيدان ببعضهما بسلاسل غليظة، يجران خلفهما قفصًا خشبيًّا مسطحًا، لا يزيد ارتفاعه على خاصرة رجل،

بداخله يقبع مخلوق يشبه رجلًا، هذا إن استطعنا أن نطلق عليه رجلًا وليس حيوانًا يتلوى في زاوية القفص، يحاول تفادي الصدمات من جراء جر القفص فوق الحفر حيث تسير الكتائب الظافرة. ربما كان الشيء الأكثر غرابة هو تلك الرائحة الكريهة التي تنبعث من القفص، والتي كان الجميع يتظاهر بأنه لا يشتمها؛ فقد كانوا يلقون ببراز الخيل باستمرار على المخلوق أو الرجل القابع داخل القفص، والذي كان يأكل ما يلقونه له من طعام، ملوثًا بالأوساخ، بالإضافة إلى الأوساخ الصادرة عنه نفسه، إذ كان مصابًا بإسهال شديد. الغريب في الأمر أنه لم يفارق الحياة منذ أن وضعوه في ذلك القفص عندما بدأوا طريق العودة إلى كلاتونيا. ففي طريقهم مرض أكثر من ثلاثة رجال ممن كانوا يجرون القفص، وتُركوا على جانب الطريق ليلاقوا حتفهم من جراء التقيؤ والتقرحات والصديد. ظل الفرسان حتى النهاية يتظاهرون بعدم شم الرائحة الكريهة المنبعثة من القفص حيث يحتجز الخائن تيليموس.

بملابسهم المزينة، وبابتسامة عريضة، تقدم الفرسان ببطء على ظهور جياد بيضاء وسوداء، برفقة عربات كبيرة مكشوفة تُجر بخيول بيضاء وسوداء، وكان بداخلها السلطان نيريكو مع كبير الأساقفة وكبار ضباط الجيش الذين كانوا يحظون بثقة كليهما. علينا ألا ننسى أنهم عندما اقتربوا من أسوار سلافية بدأ جميع أفراد الجند يطرقون بسيوفهم -الفرسان المرافقون للملك قاموا أيضًا بالطَّرق على دروعهم.

يبدو أن جيش كلاتونيا قد قرر العودة إلى الديار في عاصفة من الضجيج، أو هكذا بدا لأهالي سلافية الذين تسلق بعضهم أسوار المدينة ليكونوا من أوائل من يرحب بالجنود المنتصرين.

جمال الطقس في ذلك اليوم، وبهجة الجنود العائدين إلى منازلهم وأحبائهم، وتصفيق وصيحات أهل كلاتونيا المحتشدين فوق وتحت أسوار المدينة وفي الساحات، والضجيج الذي كان يُصدره الجند من خلال طرقهم بسيوفهم على دروعهم، زاد من هيبة الجيش المنتصر العائد إلى سلافية. لقد كان ذلك الصباح حقًّا ترحابًا عظيمًا.

عندما عبر الجيش السهل في الوقت المحدد، خرجت مسيرة حاشدة من نساء النبلاء وكبار رجال البلاط من البوابة الرئيسة للمدينة، على رأسهم السلطانة إيرين، للترحيب بهم.

بعد عبور البوابة صعدن إلى منصة خشبية أُعدت سابقًا كي يشاهدن تقدم جحافل الجيش المنتصر، فيما قام الفرسان الذين تبقوا في المدينة لحماية السلطانة والمدينة بقرع الطبول وعزف الموسيقى احتفاءً بالسلطان نيريكو وكبير الأساقفة. عندما ظهرت إيرين فوق المنصة، انفجرت الحشود في تصفيق حاد. لوحت لهم السلطانة بحركة خفيفة من يدها اليمنى مما فاقم من حماس رعيتها. القليل منهم انتبه أنها كانت منهكة وربما سقيمة.

تصاعد صخب الحشود عندما وصل الجيش تحت الأسوار وبدأ بالاحتشاد حول المنصة. بلغ التصفيق وقرع الجنود على الدروع بسيوفهم أشده. بعد موكب أولاف تقدم الفرسان الذين كانوا برفقة الملك. توقفوا أمام المنصة حيث كانت إيرين مع حاشيتها. غني عن القول أن الحشود الضخمة التي تحلقت حول القفص الذي احتُجز فيه الخائن تيليموس عاريًا ومصابًا بجروح ورضوض قاتلة، تابعت السباب والبصاق على الخائن تيليموس.

في النهاية وصل السلطان نيريكو برفقة كبير الأساقفة أولاف تحت المنصة. بابتسامة شاحبة انتظرت السلطانة إيرين أن يصعد السلطان درجات المنصة إلى جانبها، خلفه أولاف ببضع درجات. في أثناء صعوده الدرجات بحذر، لاحظ كبير الأساقفة أن الملكة متعبة وتتكئ على ذراع وصيفة كأنها تخشى أنها ستسقط مغشيًّا عليها. نظرته تكدرت. «كم مضى على مغادرتي؟»، سأل نفسه. «أربعة أشهر؟». نيريكو لم يلاحظ، رغم أن عينيه كانتا مثبتتين بوضوح على إيرين، أنها كانت سقيمة. جل تفكيره كان منصبًّا على أن يبقى اللقاء مع الملكة أمام هذه الحشود المتلهفة، بعد أن غادر سلافية منذ أكثر من عام، ضمن إطار رسمي.

هذا ما حدث. عندما قبَّلت إيرين نيريكو على خده مثل أي امرأة ترحب بعودة زوجها بعد انفصال طويل، انفجرت الحشود في تصفيق حاد. فقط كبير

الأساقفة لاحظ أن السلطانة ليست على ما يرام، وأنها قد تنهار في أي لحظة.

بعد ذلك غادر نيريكو والملكة المنصة وركبا العربة الملكية التي كانت في انتظارهما. سرعان ما أحاط بهما الفرسان على ظهور خيولهم وسط تصفيق هادر من الجماهير. غادر الموكب المنتصر المنصة المقامة أمام أسوار المدينة ودخل عبر البوابة الكبيرة نحو ساحة سلافية الرئيسة. كان من المقرر إقامة قداس مهيب شكرًا لله في الكاتدرائية المطلة على الساحة. في أثناء جلوسهما في الكاتدرائية داخل غابة من الحراس المحيطين بنيريكو وإيرين، اقترب كبير الأساقفة أولاف من الملك وقال له: «من الحكمة أن تشكر الله على حملتك وعودة جيشك ظافرًا، بأن تعلن على الملأ أنك ستمضي ثلاثة أو أربعة أسابيع في الدير بعيدًا عن مشاغل الحكم والأسرة، للتفرغ للعبادة والصلاة».

أدار السلطان نيريكو عينيه الفارغتين مبتسمًا نحو كبير الأساقفة، وقد باغته اقتراح أولاف في هذا الوقت بالذات. نظر إلى الملكة التي أيضًا استغربت من نصيحة كبير الأساقفة.

هذا ما فعله السلطان توماس بعد انتصاره الكبير على النورمانديين»، قال» أولاف وقد لاحت نظرة كريهة في عينيه. ازدادت دهشة الملك رغم أنه معتاد على مزاج كبير الأساقفة المتقلب. وافق على الاقتراح من دون أن يُفصِح عن مشاعره تجاه النصيحة.

فقد كان قلقًا بشأن اصطحاب جلورما معه إلى الدير، فهناك لديه العديد من الأصدقاء الرهبان الذين سيغضون الطرف إذا ما أمضى الملك وقته في التأمل كما نصحه كبير الأساقفة بصحبة محبوبته الأسيرة التي جلبها معه من أرض النورمانديين.

رصيف

أنجلو؟ هل أنت هنا؟ أم ذهبت لأخذ قيلولة مثل الآخرين؟». كان صوت» الوزير صارمًا كالمعتاد، ولكن عندما يتحدث إليه تتلاشى تلك الصلابة التي

يخاطب بها الآخرين على الدوام من مسؤولين وفنيين ومقاولين. في البداية عندما عيَّنوه في دائرة الإسكان، وكانا قد التقيا وجهًا لوجه لأول مرة، كان الوزير قد وبَّخه بشدة حول بعض الجوانب الفنية لأحد المشروعات. لا عجب أنهم لقبوه بالمَدحلة، قال أنجلو يومها في سريرته. ازداد غضب الوزير عندما ظل أنجلو يصر على آرائه من دون أن يأتي بأعذار كما يفعل الكثيرون لتفادي غضبه. ولكن لاحقًا، عندما تبين بشكل واضح أن أنجلو كان على حق، وأنهم كانوا سيهدرون الكثير من المال، كان الوزير شجاعًا بما يكفي لتقبل أنه كان على خطأ من دون تقديم أي اعتذار. بعدها ازدادت ثقة الوزير بأنجلو أكثر من أي شخص آخر. هذه الثقة جلبت له الكثير من الغيرة والحسد من بعض زملائه. ربما هذا ما كان قد خطط له الوزير.

«من الجيد أنك هنا. سنحضر الآن برفقة الخبير التشيكوسلوفاكي لمعاينة العمل. يُقال بأنه صارم ولا يعرف المواربة، هذا ما قاله رئيس الوزراء، وبأنه قد حضر إلى مالطا بناء على طلبه. لديه خبرة كبيرة في بناء أرصفة البحر، رغم أنهم في تشيكوسلوفاكيا ليس لديهم بحر!». سُمعت قهقهة استهزاء على الجانب الآخر: «انتظرونا، سنغادر الآن، وأخبر مديرك بأن يكون هناك، أم أنه غائب بحجة حشو أضراسه مرة أخرى؟».

بعد قرابة أربعين دقيقة وصلت ثلاث سيارات أمام البوابة الحديدية الصدئة التي تغلق المدخل المؤدي إلى المكان الذي يتم فيه الحفر لإنشاء رصيفين كبيرين، وفي الجهة الأخرى كانوا يجرفون قاع البحر بواسطة حفارة بحرية تغرف الطمي والحجارة الثقيلة. قدَّم الوزير الخبير الأجنبي -رجل طويل ونحيف له لحية رمادية، مثل عينيه- للمسؤولين الذين كانوا في انتظاره، ومن جديد أحرج أنجلو أمام زملائه كما يفعل عادة، لأنه فور تقديمه للخبير، ربت على كتفه وسأله: «هل كل شيء على ما يرام يا صديقي؟»، وضحك بتلك الطريقة الخبيثة.

أدخلوا الخبير إلى المكاتب الفوضوية حيث كان يُدار المشروع بأكمله، سواء بشكل صحيح أم خاطئ. موائد كثيرة مبعثرة عليها خرائط الحفر في

الصخور، تجريف قاع البحر، والأرصفة التي بدأت تتخذ شكلًا. في الموقع، كانت هناك غرف صغيرة مطلية بلون الخردل حيث يتم إجراء الحسابات وإعداد أجور العمال... وما يشبه قاعة اجتماعات، ربما لأنها كانت مجهزة أفضل قليلًا من المكاتب الأخرى، لأنك عندما تمعن النظر عن كثب، ستلاحظ أن المائدة ماهوجني والمكتب الذي خلفها والأرائك الثلاث السوداء في حالة مزرية. باختصار، هنا يستقبلون كل من يزور المشروع بمن فيهم الوزير. جلس الوزير على رأس المائدة والخبير الأجنبي عن يمينه وطلب من مدير المشروع تقديم ملخص حول كيفية سير العمل.

أُحضرت خرائط من قبل شبان وُظفوا مؤخرًا لعمل التصميمات. شرح مهندس معماري ومهندس من المجموعة أسباب قيامهم بالحفر بتلك الطريقة. جلبت امرأتان تقومان بأعمال التنظيف في المكاتب قهوة سوداء رديئة جدًّا. استمع الخبير إليهما باهتمام وطرح بعض الاستفسارات من دون أن يعاود تذوق القهوة بعد أول رشفة. بعدها شرح الوزير الأهمية السياسية والوطنية للمشروع الذي سيفتح آفاق شحن جديدة وضخمة للبلاد. تلاه رئيس المشروع الذي تحدث عن كيفية تنظيم العمل -وعلى الفور كافأه الوزير بأن طبطب على ظهره وهو يخبره بأنه ينسى بعض التفاصيل هنا وهناك.

باختصار، كان لدى الوزير نزعة اغتنام كل فرصة لإظهار مدى كراهيته لرئيس الوزراء -رجل ضخم وعريض مثل وزيره إلا أنه كان خجولًا جدًّا، ويتردد كثيرًا في اتخاذ القرارات، ويخشى كثيرًا من المسؤولية. أو كما يُقال: مهما يفعل، فسوف ينتقده الوزير.

فجأة قال المَدحلة:

- لماذا لا نأخذه في جولة ليرى المشروع؟ هل سنبقى حبيسين هنا؟

ردد الجميع:

- نعم نعم، من الأفضل عدم البقاء هنا.

استمع الخبير -ماذا كان اسمه؟ نوفاك؟ هذا لقبه أم اسمه. جيري ربما؟- باهتمام كبير إلى كل ما كان يُقال، وأبدى موافقته على الفور. نهضوا جميعًا

وغادروا القاعة.

لم يكن على الجميع مرافقتهم. طلب منه الوزير فيما حدجه المدير بنظرة مقيتة:

- تعالَ معنا أنجلو.

لو كان الأمر بيد أنجلو لبقي في المكتب، فقد كان لديه الكثير من العمل المتأخر. لكنه كان مجبرًا لا بطل.

صادف أن كانت السماء صافية بلا سحب تعكر زرقتها، فيما البحر يعكس لونًا زيتيًّا تحت أشعة الشمس. كان هناك القليل من العمال في موقع العمل، لأن الشركات التي تزودهم بالخرسانة وغيرها من المواد امتنعت عن إرسال المزيد حتى تتم تسوية مدفوعاتها، على الأقل المتعلقة بالعام السابق. لم يكن هناك سوى سفينة الحفر تعمل في الشاطئ وكان بالإمكان سماع صوت تهشم الحصى وهو يتصاعد منها. «غدًا خذوه على متن السفينة»، أمره الوزير. «حاول أن تقرأ أفكاره حول سفينة الحفر هذه. منذ مدة وأنا أردد أنهم قد أدخلونا في مصيدة بهذا الصدد».

كانوا على حافة حفرة عميقة بجانب الشاطئ بدأوا بحفرها للتو، وكان من المخطط أن تصبح رصيفًا كبيرًا، عندما حضرت فجأة إحدى النساء ممن قدمن لهم القهوة الرديئة لاهثة:

- مكالمة من رئاسة الوزراء للوزير.

قال الوزير بصوت حانق:

- ماذا يريد بحق الجحيم الآن؟

ثم هرع إلى المكتب. أحد الرجال الذين حضروا معه -رجل سمين يرتدي بنطالًا غامقًا يكاد أن يسقط عن كرشه الكبير- هرول بسرعة في إثره.

تابعوا إطلاع نوفاك على المشروع من الجانب الآخر للشاطئ وهم يدورون بحذر حول الهياكل الخشبية والحديدية التي ستعمل على تثبيت الخرسانة والصخور في مبنى واحد كرصيف متصل بالشاطئ من قاع البحر. كان رئيس المشروع يراوغ حول كيفية سير العمل. عندما كان الوزير بمعيتهم أخذ يتوه

في إجابات مبهمة ومرتبكة كلما سأله نوفاك عن الإنتاجية في العمل، أو عما إذا كانوا متأخرين عن الموعد النهائي الذي تم تحديده حتى نهاية المشروع.

في غياب الوزير أطلق رئيس المشروع عنان لسانه. شرح مشكلات الحفاظ على الانضباط بين العمال، وما إذا كانت تصاميم الرصيف ملائمة من الناحية الفنية، وأبدى تحفظه على إنهاء العمل في الموعد المحدد. تابع الخبير كلامه بابتسامة صغيرة، كما كان في السابق، كأنه يستمع ويشاهد شيئًا قد سمعه وشاهده سابقًا. دارت عيناه الفاتحتان والمحايدتان بين الفنيين من حوله والهياكل الخرسانية الخارجة من الصخور. نظر بفتور إلى سفينة الحفر في الشاطئ، ومرة أخرى إلى رجال المشروع الذين يحيطون به من كل جانب.

كان رئيس المشروع أول من شاهد السكرتير الخاص للوزير يعود مهرولًا نحوهم، رغم ثقل بطنه. مرة أخرى، بعد وصول السكرتير الخاص، أصبح الحديث حول المشروع مبهمًا وغير واضح.

قال السكرتير البدين لاهثًا:

- تم استدعاء الوزير من قبل رئاسة الوزراء. سيتعين علينا المغادرة على الفور. وأنت -لرئيس المشروع- طلب الوزير أن ترافقه. وأنتما -مساعدا رئيس المشروع- من الأفضل أن تأتيا معنا أيضًا، لأنه سيُثار الكثير من القضايا الساخنة حول المشروع على ما يبدو. هيا، بسرعة، فهم في انتظاركم. وأنت أنجلو، الوزير يطلب منك البقاء هنا وإطلاع صديقنا التشيكي على ما نقوم به.

تحت نظرة الخبير الأجنبي المستغربة، بدأ أعضاء الفريق بالعودة من حيث أتوا. رئيس المشروع شرح لنوفاك ما قد حدث بطريقة مشوشة زادت من حيرة الرجل الغريب.

الموظفون الذين تعين عليهم مرافقة الوزير إلى رئاسة الوزراء بدا عليهم الضيق وبدأوا يتذمرون:

- لدينا بالتأكيد ثلاث ساعات من الانتظار في الممر حتى يسمحوا لنا بالدخول، وبعد ذلك سيتم توبيخنا، يا لها من بهدلة!

مساعد رئيس المشروع قال:

- من الأفضل أن أغلق المكتب لأني بالتأكيد لا أنوي العودة إلى هنا اليوم، هذا ما ينقصني!

ثم هرع مسرعًا إلى مكتبه.

عند بوابة المشروع الصدئة ركب الرجال في سيارات كانت في انتظارهم وتوجهوا خلف سيارة الوزير نحو العاصمة. شعر أنجلو أنه بقي بمفرده مع نوفاك، بقية المسؤولين الآخرين الذين لاذوا بالصمت في حضور الوزير سرعان ما بدأوا يتسللون عائدين إلى مكاتبهم بحجة أن لديهم ما ينجزونه أو حتى من دون عذر، يعلم أنهم سيغلقون الملفات المفتوحة في حواسبهم وسيهرعون إلى منازلهم.

انتهى الأمر بأنجلو ونوفاك بمفردهما في مكتب أنجلو. أنجلو أعاد شرح كيفية العمل. الخبير التشيكي استمع إلى أنجلو بنظرة ثابتة نصف مبتسم، كما لو أنه فهم أن هناك قصة خفية في القصة التي يرويها أنجلو. ثم قال:

- وأنت؟ ما الذي تفعله هنا؟ هل أنت هنا منذ وقت طويل؟

استمع إلى أنجلو بصبر واهتمام. في النهاية قال:

- لديكم الكثير من المشكلات. أشك في أنكم ستنجزون العمل في الموعد المحدد.

ثم بدأ يشرح كيف ولماذا لن ينجزوا العمل لأسباب وتفاصيل لم يتطرق لها الوزير أو مدير المشروع، ولا حتى أنجلو نفسه.

ما يقوله هذا الخبير التشيكي صحيح. لكن من أين حصل على هذه المعلومات التي قادته إلى هذا الاستنتاج؟ أم أن ما شاهده على أرض الميدان جعله يصل إلى هذه النتيجة التي تمس عظم الحقيقة؟

سأل نوفاك مشيرًا إلى زاوية صخرية بعينها:

- ماذا ستفعلون عندما تصلون إلى هذا الجانب؟ ...

فعلًا، جميع العاملين في المشروع كانوا قلقين من هذا الجانب، الأمواج في ذلك المكان قوية جدًّا وهم لا يبنون بالصلابة الكافية.

فجأة توقف نوفاك عن طرح الأسئلة. تفحص أنجلو بابتسامة باردة:

- وأنت -إن سمحت لي بطرح سؤال شخصي- يبدو أنك تعرف عملك جيدًا. كيف انتهى بك الأمر هنا؟

- أنا أعمل مع الحكومة. أذهب حيثما يرسلوني.

- لكن في هذا البلد يمكنك إقامة شركتك الخاصة.

- أنا قانع هكذا. أبذل قصارى جهدي أينما يرسلوني.

بابتسامة باردة، أظهر نوفاك أنه لا يفهم:

- في ظل كل هذه المشكلات؟!

كان دور أنجلو أن يبتسم ببرود، لكنه ظل صامتًا. بالطبع لن يخبر نوفاك أن مشكلات الرصيف في الوقت الحالي لا تزعجه بقدر رواية «أيوب»، فهو في منتصفها، أو هذا ما يعتقده نظرًا إلى المدى الذي وصل إليه في نسج الأحداث. لكن في الأسابيع الأخيرة يبدو أن غمامة سوداء قد انسدلت على جميع أحداث الرواية. كان قد بدأ يشعر أنه غير قادر على مواصلة الكتابة. يبدو أنه عالق. ما أهمية متاعب الرصيف أمام هذه المعضلة الكبيرة؟

نَمَش

يمكننا القول إنهما في أول يومين بالكاد غادرا الفندق، إما لتناول الإفطار في نفس الفندق أو لتناول الغداء في مطعم إيطالي على بُعد خطوات منه. كان قد أصر على تعريفها بأجمل معالم لندن، وهي المدينة التي لم تَزُرها دينيس قَط لسبب غريب، رغم أنها زارت جنيف وباريس وروما وعواصم أخرى، وكانت روما هي مدينتها المفضلة. كان مترددًا في إقناعها بالذهاب إلى لندن لقضاء «شهر عسل جديد»، كما وصفته بابتسامة ساخرة: «لقد وافقت على هذا لأني وافقت على هذا، مدينة النمش هذه لم تعجبني قَط».

من يدري لماذا؟ فأسرتها -رغم نفوذهم التجاري- معروفة بولائها للإيطاليين، وإن كان بحذر. في الواقع، بعد الحرب العالمية الثانية، نمت علاقاتهم التجارية مع الشركات البريطانية بشكل متسارع.

بناء على اقتراح منه، أمضيا عدة أيام يغادران الفندق باكرًا -حسنًا، لا يمكن التذمر من ذلك- ينطلقان كل صباح من شارع أكسفورد الجديد وويست إند، لزيارة مَعْلمين أو ثلاثة في المدينة، حيث يكون هو دليلها السياحي كي يثبت لها كم كانت مخطئة حول موقفها السابق من لندن. وبناء على اقتراح منها، اتفقا على عدم تناول وجبة الغداء كي لا يهدرا الوقت وأن يكتفيا بوجبة فطور دسمة في الصباح إذا لزم الأمر، ثم في المساء يذهبان إلى مطاعم فاخرة، يابانية وإسبانية وفرنسية، كي يختبرا جودة الطعام في المدينة.

لم تجرِ الأمور كما خططا لها تمامًا. لكن هذا لم يزعجهما، بل على العكس، ضاعف من بهجتهما. ضحكا شفقة على نفسيهما لأن كل ما خططا له تقريبًا باء بالفشل وباتا تائهين في طرقات لندن الخادعة وربيعها الآسر، بمناظرها ومطاعمها ومسارحها وحاناتها التي شاهداها وتلك التي لم يتسنَّ لهما زيارتها.

في البداية، نادرًا ما غادرا الفندق باكرًا، بل في أثناء هبوطهما إلى الطابق السفلي يكون مطعم الفندق قد توقف عن تقديم وجبة الإفطار. التأخير كان أحيانًا بسببها وأحيانًا بسببه، وأحيانًا بسببهما معًا، لأنهما يتصرفان كما لو أنهما يرقدان معًا لأول مرة، أو حتى مع شخص غريب. بسبب مغادرتهما الفندق في وقت متأخر، فشلت خطط أنجلو لزيارة ثلاثة أو أربعة معالم بحلول المساء. لم يتمكنا من زيارة أكثر من معلمين.

وبما أنهما لم يتمكنا من تناول وجبة الإفطار، فقد وقعا في إغراء التوقف لتناول بعض الطعام والشراب في الظهيرة، مما أدى إلى اختصار الوقت المخصص لزيارة المتاحف والحدائق والتجول في شوارع المدينة. في المساءات على الأقل نجح برنامج دينيس في ارتياد مطاعم فاخرة ومختلفة، بقائمة طعام وتقاليد مختلفة، ولكن قبل المطاعم كانا يمضيان وقتًا طويلًا في غرفتهما، أحيانًا أطول مما ينبغي إن كان بنيتهما اللحاق بالمطاعم في ذروة تقديمها الخدمة لزبائنها.

بالإضافة إلى زيارة المعالم المهمة في المدينة، فقد أراد أن يأخذها إلى الحانة التي ارتادها مع نيكي عندما أمضيا شهرين هنا في المرة الأولى التي

سافرا فيها على الإطلاق. لم تُبدِ أي ممانعة. في الواقع، كانت هي من اقترح أن يتوقفا هناك لتناول شيء خفيف كونهما متأخرين قليلًا عن وجبة الغداء. لم يكن قد تناول الطعام هنا قَط، عندما كان يحضر مع نيكي وبعض الأصدقاء، كانوا دائمًا يأتون لاحتساء الجعة.

- هل تغير المكان منذ ذلك الوقت؟

سألته بفضول وهما يحتسيان النبيذ الأبيض باهظ الثمن في أول حانة أخذها إليها في جزء من المدينة يزوره القليل من السياح، ليس بعيدًا عن منطقة يقطنها العديد من المالطيين.

- قليلًا.

أجاب وهو ينظر حوله من دون أن يبدو متضايقًا. الطرق المحيطة بالمكان امتلأت بأشخاص جدد.

قالت له:

- لم أشاهد سوى آسيويين وهنود وأفارقة.

- صحيح، ليس هناك الكثير من أصحاب النمش المفضلين لديك.

- لا تكن عنصريًّا.

حذرته.

- أنا؟

أجابها متفاجئًا.

- عندما تنعتين الإنجليز بأصحاب النمش، أليست هذه عنصرية؟!

وافق على الفور على اقتراحها بطلب الطعام. شربا المزيد من النبيذ. أخبرها بما فعله هو وشقيقه عندما كانا نزيلين في الشارع الخلفي حيث كانت الحانة. استمعت إليه بابتسامة ودودة وكبيرة. لاحظ ذلك فقال لها:

- الآن عندما نذهب إلى روما، عليكِ أن تخبريني عن مغامراتك هناك.

- حسنًا.

أجابته وكانت على وشك أن تسأله متى سيذهبان إلى روما عندما قال لها محاولًا إغاظتها:

- في السابق كانت هذه المنطقة ستنال إعجابك، لأنها كانت ما زالت مليئة بأصحاب النمش. كان يمكنك رؤية الكثير منهم.

عندما غادرا الحانة كانا ثملين ويتحدثان بخليط من اللغة المالطية والإنجليزية بصوت مرتفع أثار انتباه المشاة في الطريق.

- ألم تلاحظي أن أصحاب النمش قد تلاشوا؟

قال ضاحكًا بصوت مرتفع.

- لا يوجد هنا سوى الأفارقة والباكستانيين.

- اخرس.

قالت له منزعجة من نظرات العابرين في الطريق. وما زاد الطين بلة، أنهما سلكا طريقًا خاطئًا وابتعدا كثيرًا عن محطة المترو التي قدما منها سابقًا.

استغرقهما الأمر بعض الوقت كي يعثرا على طريق العودة. السعادة التي اعترتهما منذ فترة وجيزة سرعان ما تلاشت في أثناء عبورهما أمام متاجر البقالة والملابس والأحذية الرخيصة. ظل يتذمر حتى بدأ بالتعرف على بعض المباني أو المعالم التي قد تدلهما على الاتجاه الصحيح.

دينيس حاولت تلقينه درسًا حول كيفية إدارة بقية رحلتهما التي كان قد انقضى نصفها.

- لقد شربنا الكثير من الخمر!

تذمرت أكثر من مرة. كانت حتى قبل ذلك بكثير تأخذ كل شيء على محمل الجد، وإذا ما ارتكبت خطأ ما، تراجع نفسها كي تغير رأيها أو سلوكها. هذه المرة لم يستغرقها الأمر طويلًا كي تنسى القرارات التي اتخذتها لكليهما؛ أي أن يكونا أكثر حرصًا على الالتزام بالوقت وعدم الإفراط في الشراب. في اليوم التالي تابعا نفس الحماقات التي منحتهما الكثير من المرح.

استمرت حكاية عد الأشخاص بالنمش في كل مكان يذهبان إليه. أصبحت لعبة أخرى بينهما تمنحهما الشعور بأنهما حقًّا زوج وزوجة. كانا في حانة في وقت متأخر من الليل يحصيان عدد الأشخاص بالنمش عندما أدلت دينيس

برأيها الغريب. أنجلو لم يتمكن قَط من نسيان ما قالته حتى بعد مرور العديد من السنين.

كانا قد أخذا كأسي جعة وذهب إلى البار لطلب المزيد. عندما عاد بالأكواب الممتلئة بالرغوة، لاحظ أن مزاجها قد تغير فجأة وبدت قلقة.

- ماذا حدث؟

سألها.

- كأنكِ على وشك الاعتراف أمام القس.

- كنت مستغرقة في التفكير...

قالت مبتسمة.

- حولنا بالتأكيد!

- كيف عرفت ذلك؟

- وعن المستقبل... ولكن هكذا فجأة؟

- أجل.

- وأنا كنت أتساءل كم ارتفع سعر الجعة هنا.

- كنت أتساءل، كما قلت، حولنا وحول المستقبل.

- آه! سوف يكون مستقبلًا باهرًا مليئًا بالفرح والمغامرات، والكثير من الأولاد والبنات، والكثير من المال. سنكون أثرياء جدًّا، سنصبح من أصحاب الملايين. ألا يرضيكِ هذا؟

ضحكت:

- ليس هذا ما كنت أفكر به، ولكن ما إذا كنا نتوقع نفس الشيء من المستقبل.

- ما هذا السؤال يا حبيبتي؟! بالطبع نعم. أخبريني: ماذا تنتظرين من المستقبل؟

لم تُجِب على الفور.

- أخبرني أنت أولًا.

- حسنًا. أريد حياة وادعة وهادئة تتيح لي كتابة أفضل رواية في العالم.

ضحكت بحرارة.

- والآن أخبريني أنتِ.

أصر عندما لاحظ أنها على وشك تغيير الموضوع.

ظلت صامتة.

- هيا، لا يمكنكِ التهرب من السؤال.

هزت كتفيها.

- سأكون راضية إذا منحني المستقبل السعادة والسكينة.

لسبب غريب لم يستطع فهمه، أصيب بدهشة كبيرة. لم يكن يدري كيف سيجيب. حرك شفتيه بسرعة نحو الكوب المليء برغوة الجعة. بعد أن أخذ رشفة كبيرة، وجد طريقة للتعبير عن نظرته حول المستقبل. أشار نحو مدخل الحانة حيث العديد من الشبان البريطانيين.

- انظري هناك.

قال لها مازحًا.

- أخيرًا ستحققين رغبتكِ في رؤية الكثير من أصحاب النمش.

مسودات

مشاهد...

دي بونو صغير، سمين بعض الشيء؟ دي بونو كبير، طويل القامة، مهمل اللباس، لكن لسبب ما، يمشي منحني الكتفين للأمام قليلًا، لم يكن شيئًا قبيحًا. كلما تقدم في السن، ازداد حرصًا وثقة بالنفس. شيء غريب؟

دينيس شابة، امرأة مالطية ممشوقة القوام، نحيلة الوجه ممتلئة الشفتين والثديين، جميلة بطريقة ما. فجأة متقدمة في السن، نحيفة، شعرها أشيب (لا تصبغه جيدًا). أخيرًا، جلورما؟

إيرين، دمية جميلة، صامتة إلا من عينيها، تبحث عن ماذا: القوة؟ الحب؟ الحرية؟ الأسرة؟ الانتقام (من ماذا؟): ترتدي معطفًا أسود طويلًا.

مارجون شاب في العشرين، تهيمن عليه نينا؛ لماذا؟ لكنه متمرد، مصيره بين يديه، ويبدو أنه يعرف ما الذي يريده.

مورين، سمراء، وجهها مستدير، كتفاها عريضتان (لماذا؟). غيِّر تلك الصورة، فهي ليست مربوعة، ومع ذلك فهي جذابة. إذن توقف.

وزير أو وزير سابق... ذكريات أم تفاصيل؟

نيريكو، طيب القلب؟ أم قاسٍ من دون أن يعلم؟ أناني؟ ونيكي؟ صار أطول من أخيه، يجذب النساء إليه ويعلم ذلك. لعوب ومتلاعب، يوظف الصداقة لأغراض العمل؟ عندما يكبر: سيبقى جذابًا للنساء في مثل سنه بل ومن هن أصغر منه؟

نينا، طفلة رضيعة صغيرة، سمينة، شقية، ناضجة، مستقلة. شيء ما يؤلمها، ما هو؟ تشبه أمها كثيرًا.

أولاف كبير الأساقفة، عيناه تشيان به، رجل طويل القامة، قوي البنية، ملتحٍ، لكنه ليس محاربًا بارعًا مثل لورنس أوليفيه.

باولو، شاب يافع، أرمل ثم رجل ناضج.

(لاحقًا)...

طويلة جدًّا/ هذه مالطا. ليست كاليفورنيا.

ملابس

أظهر مع مرور الوقت تغيرًا في نمط الملابس: هل تصف الملابس الزمن؟ فكرة. لكن هذا مقرف للغاية. عليك أن تكون خبيرًا في الموضة والملابس.

كمبيوتر، تلفاز، هاتف، بريد إلكتروني، إنترنت، رسائل نصية، فيسبوك، تويتر.

كيف؟

* * *

المراجع:

أدب/ كتب.

معجم سرتشينو أنجلوت

(لا سي إس لويس، تولكين، هاري بوتر. مسرحية دكتور فوستوس!).

أوليفر فريجيري.

غابرييل دانونزيو (لا! لمَ لا؟).

دبليو. إي. جونس؟

أنوك إيمي... (حاجبان. الحياة حلوة).

موسيقى

ترانيم عيد الميلاد/ إيمي... افي ماريا؟ (أليست هذه التي يستخدمونها؟) مندلسون؟ بينك فلويد. ماهلر (مرة أخرى؟).

أماكن

كوسبيكوا.

منحدرات دنجلي، دنجلي، قرية زبوج-الكنيسة.

فاليتا العاصمة، شارع الجمهورية، أزمان مختلفة.

الفوارة

الأورة

لندن. سوهو. أكسفورد ستريت؟ الحانات؟ خارج مركز المدينة.

مرسى شلوك. مرسى الفرن. الميناء الحر.

جبال (رياح موسمية).

روما - ساحة نافونا؟ أم هذه في إسبانيا؟ سلافية، قصر الملك.

سانت جوليانز

سليما. الشاطئ.

الجامعة؟ المكتبة؟ غرفة المؤتمرات؟

* * *

ملحوظة: كن حريصًا. أنت تثرثر كثيرًا سابقًا عن شيء غير منجز بعد -وهذا أسوأ شيء- حتى حول إف إس؛ أغلق فمك حتى تتأكد.

المزيد...

اللاهوت/ الفلسفة.

لا شيء؟

السياسة/ علم الاجتماع

لا مبالاة؟ فرنسوا ميتران؟ ...

*** * ***

- 18 -

مصلى

بعد كل تلك السنوات كانت الساحة الخارجية كما يتذكرها، فارغة ونظيفة، كما لو أنها قد كُنست للتو. محفوفة بنباتات السردينيل التي تفيض بورد أحمر، كأنها ما زالت نفس النباتات ونفس الزهور منذ كل تلك السنوات. في الداخل لم يكن هناك أحد على المائدة في المكتب الصغير. عبَر من خلاله إلى الممر الواسع والطويل، والذي كما يذكره مضاء بنيونات منخفضة، ولكن ضوء النهار كان يملأ المكان من البوابتين الزجاجيتين الكبيرتين اللتين تمثلان نهايته. ثم لاحظ ظلًّا يقترب منه من الجهة اليسرى، بل إنه كان يناديه باسمه: أنجلو!

- صوتك لم يتغير قَط. لقد عرفتك على الفور في الأمس على الهاتف.

هذه كانت أول مرة يتعانقان فيها منذ تعرفا على بعضهما منذ فترة طويلة.

- لم تمضِ سنوات كثيرة.

قال باولو. وكان يرتدي سترة سوداء وسروالًا رماديًّا وقميصًا أبيض اللون مفتوحًا عند الرقبة.

- أنت أيضًا لم تتغير كثيرًا.

- إذن أنت تقيم هنا؟

بالأمس تفاجأ عندما أخبره صديقه بمكان إقامته.

- في المصلى، ليس بعيدًا عن منزلكم القديم، حيث كنا نلعب كرة القدم.

اتفقا على أن يلتقيا هناك.

- في الغد سأخبرك بكل شيء.

وهذا ما شرع به وهو يقوده عبر الممر إلى باب جانبي يفضي إلى ملعب كرة قدم كبير. أخبره أن والدته مريضة جدًّا وأن والده وأخته يسهران على رعايتها بمساعدة ممرضة تقيم معها أحيانًا. شعر أن وجوده سيعيق روتين رعايتها، وأن أقرب منزل تملكه طائفته الدينية كان بعيدًا جدًّا. فكان الخيار الأفضل أن يقطن في مكان قريب حتى يكون حاضرًا إذا ما احتاجت إليه

العائلة، من دون أن يزعجهم. تفاجأ أنجلو عندما علم أن صديقه يقيم هنا منذ ثلاثة أسابيع، لكنه لم يقل شيئًا. توقف باولو عن الكلام عندما دخلا الملعب.

- هل تتذكر هذا المكان؟

- بالطبع أذكره. يا لها من ذكريات! ولكن كيف سمحوا لك بالإقامة هنا؟

- في السنوات الأخيرة أصبح التعاون بين الرهبان والفرق المسيحية وثيقًا جدًّا. هذا المكان أصبح مفتوحًا للجميع، خاصة لمن لديهم مدعوون من الخارج، أو لمن يرغب في اعتزال الحياة اليومية. وبالنسبة لي كما أخبرتك، هذا يناسبني، لأنه قريب من المنزل. لكن لم تخبرني، ألا يبدو أن شيئًا لم يتغير؟ أم أنك جئت إلى هنا سابقًا؟

- لم أحضر إلى هنا منذ سنوات طويلة.

- للوهلة الأولى تظن أنه لم يتبدل، ولكن الأمر ليس كذلك. لم يعد الأولاد يأتون للعب في المساء أو في نهاية الأسبوع. يعتقد الرهبان أن السبب هو حضانات أندية كرة القدم. لكني لست مقتنعًا بأن هذا هو السبب. بداية فقد تقدم العمر بالقاطنين هنا، كما أن العديد من الرهبان أنفسهم قد فارقوا الحياة. الكثير من الحجرات التي كانت تستخدم لتدريس العقيدة المسيحية أصبحت شاغرة الآن. عندما أخبرتهم أنه يمكن استخدام هذا المكان لاستقبال اللاجئين الأفارقة لم يعجبهم الأمر.

لاحظ شيئًا غريبًا في طريقة كلام صديقه، فقد كان باولو يتحدث بسرعة، أو بالأحرى أسرع مما كان في السابق. دارا حول الملعب ثم دخلا ساحة لعب أخرى فارغة إلا من رجل عجوز يدفع أمامه عربة.

- وأنت ماذا عنك؟ كيف هي أحوالك؟ أصبحت مُقِلًّا في الكتابة.

- نتحدث لاحقًا.

- هل تعبت من زيارة الماضي؟

أجاب باولو بابتسامة. كان قد نحف من كتفيه، وسمن من بطنه، وأصبح أكثر اسمرارًا وخفيف الشعر، بل إنه أصبح أصلع تمامًا من الأمام. أدرك الآخر أن صديقه كان يتمحصه ولكنه لم يقل شيئًا.

- أين تفضل الجلوس؟ في غرفة المعيشة أم في حجرتي؟ الآن عليك تناول الغداء معنا، لا يمكنك الاعتذار. لقد وعدت الآخرين بأنك ستبقى معنا لتناول الغداء. اثنان منهم متلهفان للقائك، سيما لأنهما يتابعان المشهد الأدبي في مالطا. لم تُجِبني؟ أين تفضل الجلوس؟ في حجرتي أم في غرفة المعيشة؟

- ما الفرق؟ بالنسبة لي سيان.

- في غرفة المعيشة يمكنني تقديم الشاي أو القهوة لك. وقد يقاطعنا الآخرون. في الغرفة لدي زجاجة ويسكي وأخرى من النبيذ.

لم يعتد بعد الطريقة الخاطفة التي كان يتكلم بها باولو.

- إذن في حجرتك، رغم أن الوقت ما زال مبكرًا على الشراب.

بعد أن أمضيا بعض الوقت في غرفة باولو في الطابق العلوي -كانت واسعة جدًّا، ومجهزة بسرير وخزانتين ومغسلة، ومكتب كبير ورف من الكتب، ومقعدين تحت النافذة التي تطل على الملعب الذي تمشيا حوله لتوهما- بعد ذلك، عندما جلسا أمام بعضهما على المقعدين وشربا أول كأس من الويسكي من زجاجة أحضرها باولو من خزانة مقفلة بالمفتاح؛ كأسًا صغيرة بناء على إلحاح أنجلو، بعد قدح الويسكي، بدا له أن صديقه قد عاد يتحدث بشكل طبيعي مرة أخرى من دون خطف الكلام. تساءل ما إذا كان باولو متوترًا بشأن لقائهما، لكن في النهاية ألم يكن باولو من اتصل به وأخبره أنه في مالطا؟ -منذ ذهابه كمُبشر إلى البرازيل لم يسمع عنه شيئًا تقريبًا.

أراد باولو أن يعرف عن حياة أنجلو؛ عن انفصاله النهائي عن دينيس، وكيف يدبر حياته كعازب، وكيف هما نينا ومارجون (ما زال يتذكر اسميهما). سأله عن العمل، وابتسم عندما علم أن صديقه أصبح خبيرًا بجميع لوائح وقوانين البيئة.

- وماذا عنك؟ ألن تخبرني بأي شيء عن نفسك؟

سأله أنجلو في النهاية.

- كنت مشغولًا جدًّا. فقد أرسلوني للتعليم في إحدى المدارس الدينية في واحدة من أرقى المناطق في المدينة، وبالكاد أمكنني مواكبة ما يحدث.

- وماذا عن اللغة؟

- لقد تعلمتها. في العام الأول كنت مُنكبًّا على ذلك فقط، لكن سرعان ما تتعلمها. وضع أمي يزداد سوءًا وأخشى أن هذه آخر مرة أتمكن من رؤيتها.

- هل وضعها حرج إلى هذا الحد؟

أجابه باولو بإيماءة خفيفة من رأسه وحاول على الفور تغيير الموضوع:

- أخبرني الآن عن كتبك، سيكون هناك من سيسألك عنها في أثناء الغداء. لقد كنت منقطعًا تمامًا هناك، على الجانب الآخر من العالم، حيث عليك أن تدخل في حياتهم بالكامل. لا توجد طريقة أخرى إذا كنت حقًّا تريد أن تصبح جزءًا من المكان. لدينا خبير أدبي هنا. أخبرني أنك نشرت شيئًا آخر. لا تنسَ، آخر كتاب أذكره لك هو رواية أيوب. هل تعتقد أنني أخذتها معي إلى البرازيل؟

كان قد وجد طريقة لصرف ما كان يفكر فيه أنجلو حوله. أنجلو فهم هذا لاحقًا، لكنه في ذلك الوقت انطلق يتحدث بإسهاب حول كيف تلقى الجمهور روايته الجديدة التي تلت رواية أيوب.

- فعلًا.

قال باولو.

- ماذا كان الخبير الأدبي الذي يقيم هنا قال إنها كانت رواية مثيرة للجدل -عنوانها؟

- أنا والآخر.

- ولكن لماذا مثيرة للجدل؟ ما هو المثير للجدل في هذا الزمان؟ بعد عام أو اثنين على الأكثر، يُنسى كل شيء، وتسير الأمور بشكل عادي كما في السابق.

أخذ يتحدث عن روايته، فيما استمع إليه باولو -كما كان يفعل في أزمان أخرى، بنظرة فاحصة على وجهه- كمن لا يصدق كل ما يسمعه. ما إن فرغ الكاتب من مرافعته حول كتابه حتى دق الجرس، كانا قد شربا كأسهما الثانية.

- إنهم يدعوننا لتناول الطعام.

فجأة قال أنجلو:

- هل أنت متأكد من أنني لن أكون متطفلًا؟

- هم من أخبروني بأن أدعوك.

- أنا لست معتادًا على تناول الطعام مع الرهبان.

- بل قسيسون.

- وما الفرق؟

- نحن فقط نعرفه. آه، سوف نفتح زجاجة نبيذ على شرفك.

هبطا إلى الطابق السفلي يضحكان متكأَين على بعضهما كما كانا يفعلان في الماضي. في آخر الدرج التقيا برجل طويل ونحيف، وجهه يشي بألم ما ولكنه لم يتوقف عن الابتسام والترحيب، كان أيضًا يرتدي زيًّا مدنيًّا. باولو قدمه إلى أنجلو. كان قسًّا من قوزو يعيش في طرابلس وقد جاء إلى هنا للتعافي من مرض عضال عانى منه طويلًا في العام الماضي. دخلوا جميعًا إلى حجرة الطعام، حجرة مربعة نوافذها تطل أيضًا على أرضية الملعب.

سأل أنجلو:

- ألم يكن هنا المقصف؟

- هذه الكلمة لم تعد تستخدم.

قال القس من قوزو، والذي صادف أنه كان أحد المتحمسين للقائه. -وفقًا لباولو يُدعى الأب سبيرو.

جلس الخمسة إلى المائدة تحت نافذة تفضي إلى الملعب. كان الاثنان الآخران من الرهبان الذين يعيشون في مالطا ويعانون أيضًا من مشكلات صحية كبيرة، إن كان أنجلو قد فهم جيدًا؛ من السرطان. أحدهم شاب طيب ذو بشرة خضراء حول زوايا وجهه وذقنه، باولو قدمه على أنه ديفيد، مفتخرًا أنه عثر فيه على صديق جديد؛ كان القس الآخر من قرأ كل روايات أنجلو.

بدأوا بملء الأطباق من على مائدة فولاذية في نهاية القاعة يشرف عليها رجلان من الدير، وفقًا لباولو. كان هناك حساء خضار ساخن وسلطة جرجير وخس بالأرز والتونة، وشرائح الدجاج والبطاطس المقلية وماء وعصائر. كان من الواضح أنهم أعدوا طعامًا أكثر من العادة. بالإضافة إلى مائدتهم، كان

هناك ثلاثة أشخاص آخرين يتناولون الطعام على مائدة مجاورة، فيما يتصحفون الصحف وبعض الكتب أمامهم على المائدة.

تمتم باولو:

- أعدوا الكثير من الطعام لأنهم كانوا يعلمون بحضورك.

قال أنجلو:

- حقًّا! لست ممن يلتهمون كل ما يرون أمامهم.

- صحيح.

تدخل الرجل الخامس على مائدتهم، رجل سمين ذو كتفين عريضتين، أحمر الوجه؛ كيف لرجل مريض بالسرطان أن يبدو مفعمًا بالعافية وهادئًا ومستعدًّا للإدلاء بدلوه؟ قدَّمه باولو على أنه مايكل من دون أن يضيف شيئًا آخر.

- عادة لا نحظى بكل هذه الوفرة من الطعام. وهناك النبيذ أيضًا.

قال ديفيد:

- نعم، سيحضرونه قريبًا.

أحد الخادمين أشار إلى باولو فنهض الأخير وأحضر زجاجة نبيذ أحمر مفتوحة. لكنه عندما عاد قطب شفتيه:

- هذان الأحمقان قاما بتبريده.

تذمر من تحت لسانه.

سأل الأب سبيرو باهتمام:

- أي نبيذ هو؟

أجاب باولو بانزعاج:

- كيانتي من الفاخر.

- حماقة كبرى أن تقوم بتبريده.

قال أنجلو محاولًا مواساته:

- الآن هذا ما لدينا.

ثم شرعوا في تناول الطعام. ظن أنجلو أنه سيشعر بالضجر برفقة رجال محبطين لا يمتون لحياته وآرائه بشيء، ولكنه بدلًا عن ذلك، استمتع جدًّا برفقتهم. تحدث مايكل مطولًا عن أنواع النبيذ المختلفة التي يمكن تذوقها، بما فيها كيانتي الذي أمامهم، لكنه لم يتذوق قطرة واحدة. الأب سبيرو لم يأكل شيئًا سوى بعض الجرجير بالخل، ولكنه ثرثر كثيرًا وشرب الكثير من النبيذ، لدرجة أنه عندما لمح باولو ابتسامة شقية على وجهه نهض سريعًا وعاد بزجاجة كيانتي أخرى وسط ذهول الخادمين مما يحدث. ديفيد أكل بشهية كبيرة وعاد لإحضار فخذي دجاجة بينما كان يسأل أنجلو باستمرار حول رأيه بشأن الطلاق والقتل الرحيم والإجهاض وزواج المثليين. عندما أخبره أنجلو أنه يتفق مع كل ما قاله، سأله ثانية:

- ولكن هذا لا يظهر في رواياتك! أنا شخصيًّا لا أتفق مع كل هذا، لكن لماذا لا تظهره في أعمالك؟

- لا أدري ماذا عليَّ أن أُظهر أو أُخفي. أنا مؤلف روايات ولست كاتب بيانات سياسية.

- كل رواية، بل كل عمل إبداعي، يجب أن يحتوي/أو عليه أن يتخذ موقفًا ما، سواء كان سياسيًّا أم لا، لا يهم. هذا ما نبحث عنه عند قراءة الروايات والقصائد والمسرحيات، إلخ. علينا قراءتها، مهما كان شكلها، كبيان سياسي أو اجتماعي، هذا يساعدنا على فهم معالم عصرنا بشكل أفضل. ولكن إذا كان المؤلفون أنفسهم يجهلون هذا -أو لا يكترثون به- أم كانوا مترددين في طرح ما يؤمنون به، فكيف سنتعرف على علامات عصرنا؟

- ولكن عذرًا، من أنتم كي تتعرفوا على علامات العصر من خلال ما يكتبه الروائي أو الشعراء؟ -رغم أنه لا إذن لدي بالتحدث نيابة عنهم! من أنتم كي تُملوا علينا ما نكتب؟ (قال ذلك بابتسامة هادئة، كي لا يُغضِب أحدًا).

- يعتمد على المجتمع الذي تعيش فيه.

قال الأب سبيرو.

- قبل أن تتوقع من الروائي أو الصحفي أو سائق التاكسي أو الأشخاص العاديين الذين تقابلهم في الطرقات التعرف على علامات العصر. أنا مثلًا، ورفاقي في طرابلس، هل تعتقد أننا كنا نفهم ما يجري من خلال متابعة ما تتحدثان عنه؟ فقد كنا غرباء هناك، وبقينا كذلك منذ دخولنا المدينة لأول مرة. ولكن الزعم بأننا كنا نعلم ما يحدث هناك، بصراحة، محض وهم. فقد كنا نعلم ما يحدث في مالطا أكثر مما يحدث هناك. على سبيل المثال؛ (واستدار نحو أنجلو) ربما أخبرك باولو، فقد بقيت أواكب ما يُكتب في مالطا، بما في ذلك، رواياتك. وهنا سأناقض نفسي، لأنني أتفق مع ديفيد، لكن بدا لي في أثناء قراءة أعمالك وكتب الآخرين التي كانت ترسلها لي الأسرة، بدا لي أنني كنت أقرب للحياة هنا في مالطا، وبأنني أفهم علامات العصر، إن كان هذا هو المصطلح الصحيح!

نشأ نقاش بين باولو وديفيد والأب سبيرو حول بعض روايات أنجلو دي بونو. استمع مايكل وأنجلو نفسه بصمت. بالنسبة لهذا الأخير، على المرء أن يعترف بأنها كانت تجربة رائعة. إذ لا يوجد شيء أكثر إثارة بالنسبة لكاتب، ولا شيء يمكن أن يثير غروره، مثل نقاش عفوي حول أعماله. على أي حال، استمر النقاش لعدة دقائق قبل أن يتدخل الأب سبيرو:

- لدي سؤال واحد.

وعندما دعاه أنجلو للمتابعة.

- أرجو ألا أضايقك به، لكنني كنت أتساءل. هل رواية «أنا والآخر» سيرة ذاتية؟

ضحك أنجلو من أعماقه.

- لقد طُرح عليَّ هذا السؤال كثيرًا، غالبًا لاكتشاف ما إذا كنت مثليًّا أم لا.

- لكني لا أحاول اصطيادك.

- حتى لو كان الأمر كذلك، لكني أفهم ما تقصد. الآن آمل ألا تتضايق أنت. بادئ ذي بدء، لا. أنا لست مثليًّا وقد قمت بالكثير -هل هذا ما نسميه اليوم؟- من البحث مع أصدقائي وغيرهم من المثليين حتى تبدو القصة واقعية وليست

من بنات أفكاري. ولكن يمكن اعتبار الرواية كدليل على أن المرء يمكنه العيش بين الناس بينما هو منفصل تمامًا عنهم، رغم أنه يعيش نفس الحياة مثلهم.

قال مايكل وهو يلتقط ما تبقى من السلطة بيده الكبيرة:

- لكن ألا يمكن أخذ هذا كتلميح عن السيرة الذاتية؟

أجاب أنجلو بابتسامة زائفة:

- وكيف ذلك؟

- دعنا نكون صرحاء، كل من يتابعك وحتى أصدقاؤك، يقولون إنك تقريبًا الوحيد من دون أي التزام، أعني، اجتماعي وسياسي. مع أي طرف كنت في الثمانينيات؟ لم تتحدث قَط عما كان يحدث من قِبل الطرفين. ولم تُدلِ بدلوك في الجدل حول الانضمام للاتحاد الأوروبي، لم نشاهدك في أي مكان كما يفعل الآخرون. يقولون إنك تعيش في عالم آخر.

- هذا صحيح، كثيرًا ما اتُّهمت بهذا.

قال الأب سبيرو ضاحكًا:

- مايكل لا يتهمك!

في وقت لاحق، عندما عادا إلى حجرة باولو وشرع الأخير في إعداد فنجان آخر من القهوة، قال:

- ربما لاحظت أن من يرسلونهم إلى هنا ليسوا من المتزمتين عقائديًّا.

- لقد لاحظت ذلك. والآخرون أين يرسلونهم؟ إلى مصلى آخر؟

باولو هز كتفيه علامة على أنه لا يدري، ثم أضاف أنجلو:

- كيف تسير حياتك الجديدة؟ هل هذا الوضع يناسبك؟

قبل أن يجيبه انتهى باولو من إعداد القهوة وأحضر له قدحًا. نظر في عينَي صديقه مباشرة.

- لقد قمتُ بالاختيار الصحيح أنجلو. لو لم أفعل ذلك لأصبت باليأس والقنوط.

حان الوقت لمغادرة دي بونو. كان باولو يقول:

- شيء واحد يأكلني من الداخل، لكني أعلم أنهم يفعلون ذلك كي يختبروني. كنت قد أخبرتك أنهم قد أرسلوني إلى معهد في وسط المدينة، إحدى أفضل المؤسسات في البلاد، لكني كنت قد طلبت منهم أن ينقلوني. حتى الآن، لم يحدث شيء.

- ينقلونك!

- لا أرغب في العمل مع أبناء الأغنياء في المدينة. افهمني، ليس لدي أي شيء ضدهم، بل على العكس، فهم حقًّا لطفاء، نشيطون ومجتهدون. لكن لديهم ما يكفي من الرعاية والعناية. بينما أطراف المدينة مليئة بالفقراء والبائسين. أرغب في التدريس هناك، فأنا الآن أعرف اللغة جيدًا، حتى لو في مدرسة إعدادية، لا يهم. أشعر أن واجبي ليس حيث أنا. ربما يردون على طلبي عندما أعود.

- كم ستمكث هنا؟

- أسبوعين. صحة والدتي في تدهور ولم يتبقَّ لها سوى القليل.

- هل ستبدأ بالرد على الرسائل التي يرسلونها لك أم لا؟

ضحك باولو:

- سأبذل قصارى جهدي، لكن هل تعلم كم أجد صعوبة في شراء طابع أو بطاقة بريدية.

- بالبريد الإلكتروني، لا حاجة إلى إرسال رسائل بالبريد العادي في الوقت الحالي. بالتأكيد لديك بريد إلكتروني. ما هو؟

خيم شعور غريب على كليهما بأنهما لن يلتقيا مرة أخرى. أعطاه باولو العنوان ضاحكًا، فكتبه على قصاصة من الورق وجدها في المكتب الخارجي الذي كان شاغرًا. أنجلو أعطاه بطاقة العمل وفيها كل شيء، ثم سأله:

- وفي أثناء وجودك هنا، هل زرتها؟

شعر فجأة بالخجل من فضوله.

باولو فهمه على الفور:

- هل تقصد قبر فاليري؟ زرتها مرتين. وقد أعود مرة أخرى قبل أن أغادر.

* * *

- قلت لا، لا أريد الذهاب، لا أريد الذهاب. لا أريد الذهاب إلى الدروس الدينية بعد الآن.

- لكن لماذا؟ لماذا؟

- كنت قد أخبرتك بأنهم يعاملونني كولد صغير، أنا لست طفلًا بعد الآن.

- ولكن أين؟ في الملعب؟

- ليس في الملعب فقط.

صوت الأم جاء مدويًا، كأنه قادم من بعيد:

- الولد خائف.

صوت الأب جاء مدويًا، كأنه قادم من بعيد:

- لا أحد يضربه. هذا ما قاله أنجلو.

الأم: أنجلو لا يكون معه طوال الوقت.

الأب: هل تريدين الحقيقة؟ لقد ضاق ذرعًا بالدروس الدينية، وهو يحاول التملص منها.

الأم: لكنه يقول إنهم يعاملونه معاملة سيئة في الملعب.

الأب: لقد سئم من دروس الدين ولا ألومه. لا بد أنها مملة. هل أقول له ماذا علينا أن نفعل؟ هل أخبره أنني سأرتب أمر التوقف عن الذهاب إلى الدروس الدينية وأن يقتصر ذهابه إلى الملعب فقط؟

- بالطبع سيجيبك بنعم، ولكن كيف سنخرج من المشكلة؟

- حسنًا، إذا اقتصر الأمر على الملعب فقط فنعم، نعم.

- 19 -

سلام

كانت معضلة السلطان آبيل: هل سيحذو حذو والده توماس ويقود الكلاتونيين في هجوم تلو الآخر على النورمانديين انتقامًا للقرون التي عاثوا فيها قتلًا ونهبًا وتخريبًا؟ هذا التكتيك أبقى العدو في ذعر دائم، مما ساعد على نمو قوة مملكته. كان يأمل أن انتصاراته المبنية على انتصارات والده ستقود كلاتونيا في النهاية، ولم لا، إلى الهيمنة على كل الأمم البربرية بجوارها.

أم عليه أن يمنح الرعية بعض أنفاس من السلام بعد سنوات طويلة من الحروب، كي يتمكن المزارعون من فلاحة أراضيهم من دون التوقف فجأة في موسم الحصاد للذهاب إلى الحرب، والرعاة من رعاية قطعانهم في السهول الخصبة الوفيرة، والحرفيون البارعون من إنتاج الفخار والملابس والأثاث والأدوات المعدنية الثقيلة، بدلًا من إمضاء السنوات في العمل كزبانية ومحاربين. يمكن لجميع هؤلاء أن يمارسوا أعمالهم، وبذلك يمكن لكلاتونيا أن تتقدم وتزدهر، بدل أن تجني ثروتها من السرقات وسطو المنتصرين على المهزومين في الحرب. يمكنها الاعتماد على مهارة وحرفية شعبها في سلام.

لم يخطر ببال أحد أن هذه الأمور تشغل الأمير آبيل لأنه كان جبانًا. خلال حياة والده شارك في العديد من الحملات في أراضي النورمانديين حيث قاتل بقوة وشجاعة. في الواقع، لم يكن أحد يعلم ما يدور في خلد آبيل حتى خلال الشهور التي أصبح فيها واضحًا أن صحة الملك توماس كانت في تراجع وكان يقترب من النهاية. آبيل استمر في لعب دور الابن الذي سيقتفي خطى والده. حتى النهاية، ظل السلطان توماس سعيدًا بولده الذي سيواصل ما بدأه إلى أن ترفع كلاتونيا رأسها عاليًا وتكتسب احترام ومهابة الشعوب الذين أذاقوها الذل على مر القرون.

مات توماس وتُوِّج آبيل ملكًا من دون أي معوقات. لم يعترض أي من النبلاء أو جموع المحاربين على هذا الاختيار. حُكمت كلاتونيا كمملكة لأول مرة عندما

تُوِّج توماس ملكًا بعد أن قاد الأمة للتحرر من النورمانديين. لكن ظل هناك تساؤل يطرح نفسه: ما الذي قاده لتعيين ابنه لخلافته؟ الآن قد تغيرت الأحوال، لا سيما أن كلاتونيا لم تُحكم بهذه الطريقة من قبل. في النهاية لم يُثِر أحد أي اعتراض أو قلاقل.

بعد تتويجه ملكًا، شرع آبيل في تنفيذ القرار الذي اتخذه من بداية أول حملة ضد النورمانديين بقيادة والده. القتل والتدمير والنهب واغتصاب الأبرياء من النساء والأطفال كان قد هز آبيل حتى النخاع. هذا الشاب الذي ربما ظهر ضعيفًا في ظل إرادة والده التي لا تتزعزع، كان أكثر دهاء من المحيطين به أو بوالده الملك توماس. فقد أدرك أنه إن أراد إيقاف الحروب والخراب والدمار، فعليه أولًا أن يكون بارعًا فيها.

وهذا ما فعله على مر السنين عندما كان ينطلق مع رفاقه في هجمات مدروسة جيدًا من قِبل والده السلطان توماس ومستشاريه العسكريين، والتي بلغت أقاصي قرى النورمانديين. هناك، مثل رفاقه، بل وأكثر منهم، كان يقترف أبشع أعمال القتل والحرق والاغتصاب، سيما ضد أولئك الذين لم يتسنَّ لهم الفرار. وبعد انتهاء العربدة والقتل والتنكيل، كان يستيقظ في الفجر متصببًا عرقًا إثر كوابيس القتل والدم والعربدة، ملتحفًا الضباب وقشعريرة الغابة، وسرعان ما يعترف أنه نعم، في نشوة الذبح والسطو، كان يفعل مثل أقرانه بل ربما أكثر منهم. بدا وكأنه منقسم إلى شخصين، أحدهما متوحش وشرير يسبي النساء لإشباع غرائزه الحيوانية مثل النبيذ الذي يسلبونه من أقبية القرى المحترقة، والآخر يشمئز ويلعن نفسه وكل من حوله على الفظائع التي يرتكبونها بلا معنى.

ما أدركه آبيل جعله عازمًا على تغيير الطريقة التي تُدار بها المملكة عندما تؤول الأمور إليه. لم يكن يؤمن أنه يمكن إقامة أواصر صداقة بين شعبه والنورمانديين، ليس في أثناء حياته، لكنه كان يهدف، في نهاية المطاف، إلى إقامة هدنة بين الشعبين يمكن من خلالها زرع بذور السلام.

لم يلاحظ أحد ما كان يدور في ذهن آبيل، سيما في السنوات الأولى من حكمه. لا، كان هناك من انتبه؛ الراهب منسونيوس، لأنه قبل اعتزاله للعيش في الكهوف المنسية بين الصخور في غرب البلاد حيث عاش حتى موته، كان مقربًا جدًّا من آبيل. فيما بعد، تعالت بعض الأصوات التي تشير إلى أن نصائح منسونيوس هي التي حملت الملك الشاب على الابتعاد عن سياسة والده وبالتالي تعريض المملكة إلى خطر النورمانديين من جديد.

خرافة أن آبيل رجل ضعيف سرعان ما تبخرت. وجهه الممتلئ المستدير وعيناه الزرقاوان، تعطي الانطباع لمن حوله، أصدقاء وأعداء على حد سواء، أنه رجل سطحي وليس عميق الفكر، وأنه يستدعي من يفكر بدلًا عنه. لذلك أرادت الحاشية من حوله، من محاربين وحرفيين وتجار ممن بنوا مصالحهم حول حملات والده السلطان توماس ضد النورمانديين، أن يتبع خطى والده توماس، وأن يمنحهم صلاحيات أكثر مما فعل والده، كي يملوا عليه ما شاء لهم. لم ينتبهوا أو ربما تنبهوا بعد فوات الأوان، أن آبيل، كان بروية وأناة يغير تفكير كل من حوله، وكيف تراجعت وتيرة غاراته على النورمانديين، وأنه لم يتوقف عن تسيير الرسل الموثوق بهم إلى الراهب منسونيوس في الكهوف الغربية.

تدريجيًّا، بدأت حاشية الملك تكتظ بأناس جدد ممن أثروا هم وأسرهم نظير الأعمال التي كانوا يقومون بها في الحقول والمراعي والمتاجر. دبت حياة جديدة في كلاتونيا. في سلافية والبلدات الأخرى شرع الناس في تشييد المنازل الريفية والفيلات الفارهة، مما ساهم في زيادة الطلب على البنائين والنجارين والحرفيين ونقاشي الرخام. تراجعت الحملات إلى أراضي النورمانديين بشكل تلقائي، وانشغلت الأمة في البناء والإنتاج والبيع والشراء أكثر مما كان يشغلها الإعداد للحرب.

هنا أيضًا، أظهر آبيل أنه يعلم ما الذي كان يفعله. أدرك أن الرجال الذين اعتادوا التكسب من الحروب -لأنهم أُعدوا منذ الطفولة كمحاربين وليست لهم حرفة أخرى غير القتال- يشعرون بالتهديد مما يحدث، لذلك حرص على

عدم تزايد أعدادهم، لكنه في الوقت ذاته، حرص على زيادة المنح والمزايا للطُّغْمة التي كانت تُشكِّل قلب الجيش الكلاتوني، كما بناها والده الملك. كما حرص على تكريمهم أمام الملأ، خاصة أولئك الذين لا يستحقون شيئًا. أنشأ العديد من نوادي الفروسية ورابطات المحاربين القدامى وثابر على حضور احتفالاتهم التي لا تنتهي. كل هذا ساهم بشكل كبير في الحد من التوتر الذي كان متوقعًا بين صفوف المقاتلين، بعد أن أدركوا، بمرور الوقت، أن حرفتهم في القتل والتدمير قد انتهت. في خضم ذلك، اندلعت محاولات شغب سرعان ما أُخمدت على الفور، وأُعدم من كان وراءها من دون شفقة.

ليس بهذا فحسب أثبت السلطان آبيل أنه لم يكن ساذجًا، رغم أنه ظل طوال فترة حكمه بذلك الوجه السمين، والعينين الزرقاوين المبتسمتين على الدوام، ومستعدًّا للاستماع والضحك مع الجميع. أو ربما كان يتلاعب بالجميع لكن أحدًا لم ينتبه، أو القليل جدًّا. كان برفقته أشخاص كسبوا على مر السنين تقديرًا كبيرًا بين الناس، منهم أتباع الراهب منسونيوس الذي رغم عزلته في الغابة الغربية، كان يحظى باحترام كبير في كلاتونيا، بل كان هناك من يُبجِّله ويسأله النصح. كانوا يبثون بين الناس أن كلاتونيا لا يمكن أن تحظى بقائد أفضل من آبيل، وأنه سيتفوق على والده السلطان توماس مجدًا وشهرة. لا أحد يدري إن كان منسونيوس خلف كل ذلك.

التقدير الذي كان يُبديه الناسك لما يقوم به آبيل أثار إعجاب أولاف بن سيلون عندما كان لا يزال مستجدًّا. كان والده الكونت سيلون من أقوى جنرالات توماس، بل ذراعه اليمنى في العديد من الحملات التي شنها ضد النورمانديين، كان مقاتلًا بارعًا. بالإجراءات التي قام بها آبيل لم يتمكن من العثور على وظائف لأبنائه كمحاربين، وقد كان لديه الكثير من الأبناء، بعضهم ولدوا من نساء نورمانديات كان قد عاد بهن إلى سلافية كسبايا. آبيل خمن أن أولاف سيصبح قسًّا رغم حرصه على تعلم فنون القتال. وهذا ما حدث، لكن أولاف ظل يتدرب على فنون القتال، بكل الجدية والشراسة اللتين ورثهما عن أبيه سيلون، عدا ذلك فقد كان يدين بولاء أعمى لأسرة السلطان توماس.

كنا نقول أظهر آبيل أنه لم يكن ساذجًا، فقد حظي بزيجة جيدة، من كاترينا، ابنة المحارب تارسيسيوس الذي مثل سيلون، قاتل جنبًا إلى جنب مع والده، وأنجب منها نيريكو وأوريانا التي أمضت حياتها في دير.

عندما حاول النورمانديون الاستفادة من حقيقة أن هجمات الكلاتونيين قد قلت وتيرتها وحاولوا أن يأخذوا بزمام المبادرة، كان السلطان آبيل يحشد الكتائب على الفور ويخرج لملاقاتهم. كان حريصًا في كل مواجهة على أن يجعلهم يدفعون الثمن خمسة أضعاف مقابل كل قتيل أو بشاعة يرتكبونها. لا أحد يمكنه اتهامه بالضعف أو التراخي. وهكذا، حتى العدو تعلم الدرس وسعى على مر السنين لإبقاء محاربيه بعيدًا قدر الإمكان عن كلاتونيا والمناطق التي تسيطر عليها.

بمرور الوقت تعود الكلاتونيون والنورمانديون على ترك بعضهما بشأنهما من دون مفاوضات أو معاهدات. بدا أن الهدنة التي طالما حلم بها آبيل قد تحققت أخيرًا، ولأن الطرفين كانا قد عانيا كثيرًا من ويلات القتل والخراب، سرعان ما نمت وازدهرت حياتهما.

ليس من قبيل المصادفة أن مؤرخي كلاتونيا عندما تحدثوا عن تلك الحقبة البعيدة وصفوهم كأبطال خارقين، وليسوا أناسًا عاديين. أطلقوا على آبيل لقب «الحكيم» وعلى أبيه لقب «الشجاع». لكن رغم حكمة السلطان آبيل، فشل في فهم مآلات ما كان يفعله.

بمرور الوقت أدرك المزارعون ومربو الماشية والحرفيون أن الطلب على منتجاتهم قد تراجع، أو بالأحرى لم يشهد زيادة بالقدر الذي اعتادوا عليه. هذا شيء مفهوم، فقد كان لدى كلاتونيا حد لمقدار ما يمكن شراؤه من أطعمة ومستلزمات يومية وملابس جديدة، من ضمن أشياء أخرى. من جهة أخرى بدأوا يواجهون نقصًا في المواد اللازمة للحياة اليومية والتجارة، مثل الملح والحديد، وكلاهما كان نادرًا في كلاتونيا. لم يكن هذا بسبب استنزاف الملح والحديد والمواد الأخرى، ولكن لأنها ما زالت تُستخرج بنفس الكميات السابقة

بينما زاد الطلب عليها. بدأ سعرها في الارتفاع، مما تسبب في ضائقة كبيرة أدت إلى ركود الزراعة وتربية المواشي وبقية الحرف اليدوية.

لم يستطع السلطان آبيل فهم سبب حدوث ذلك، بل إنه تيقظ عندما تعالت دعوات بين النبلاء، الذين أصبحوا يملكون مساحات كبيرة من الأراضي المخصصة لزراعة الحبوب والخضراوات، كي يعودوا إلى مهاجمة جيرانهم وسلب ما لديهم من مخزونات الملح والحديد. هذه الدعوات يمكنها تقويض سياسة السلام التي نجح الملك الحكيم في ترويضها. (هذا ما حدث، ليس في أيامه، ولكن بعد وفاته عندما كان ابنه نيريكو ما زال يبحث عن تثبيت قدميه كملك جديد).

الشيء الآخر الذي بدت فيه حكمة آبيل غير واضحة، هو الطريقة التي كان يتصرف بها في مجالس المملكة واحتفالاتها. كان رجلًا محبًّا للملذات والطعام والشراب، وقبل كل شيء: النساء. لم يجد المحللون الكثير مما يقولونه عن ذلك، ففي ذلك الوقت كان من المألوف أن يتصرف الرجل -سيما إذا كان لديه نفوذ وسلطة- كالحيوان كلما سنحت له الفرصة، أو كلما راودته الرغبة، وإن لم يفعل ذلك فقد يُنظر إليه على أنه خصي. ربما ظلت نزعة العنف والقتل والاغتصاب التي شهدها في شبابه، رغم أنها كانت تؤلمه في ذلك الوقت، تلازمه بعد أن أصبح ملكًا واتخذ مسارًا للسلام.

رغم التكتم الشديد وقلة عدد سكان سلافية، فإن الجميع كان يعلم ما يجري، من تحت أسوار قلعة الملك حتى أبعد زريبة خارج أسوار المدينة. كانت النساء من جميع طبقات المجتمع ومن جميع الأعمار يأتين لزيارة حجرات الملك؛ شابات وناضجات وعجائز ما زلن يرغبن في ذلك، نساء متزوجات ومطلقات وعذارى ومخطوبات وأحيانًا راهبات. كل شيء كان يتم بسرية حتى لا تُمس سمعة الملك بكلمة طائشة، ولا حتى في أكثر عنابر سلافية بؤسًا حيث يجتمع الرعاع لشرب خمر نقيع القمح.

غالبًا ما تُرجمت متعة السلطان آبيل عبر دموع مبللة بالدماء بين فخذين مفتوحتين من الألم. باستثناء حالتين، حيث رتب الملك لإجراء عملية إجهاض

لأن امرأة منهما كانت شديدة الارتباط بزوجها -أو بالأحرى مرتبطة بمنصب القوة والرفاهية الذي يتمتع به زوجها بمباركة السلطان- والأخرى أدركت بعكس الكثيرات غيرها، أن زوجها لن يتقبل تربية ابن الملك على أنه ابنه. باستثناء هاتين الحالتين (على حد علمنا) تابع السلطان آبيل إنجاب الأبناء غير الشرعيين الذين كان يوفر لهم حياة كريمة. نكرر: مؤرخو كلاتونيا لم يذكروا شيئًا عن هذا.

ولكن مهلًا، عدا الجنينين اللذين قُتلا في رحمَي أمهما على يد المشعوذة إيمونا التي لسبب غامض كانت على علاقة بالراهب منسونيوس، كان هناك ابن آخر لم يستطع آبيل التخلص منه بوضعه في دير أو السماح لأسرة أمه بأخذه في أحضانها؛ أنيلورا، ابنة دوق ميليم، كانت قد فتنت آبيل بشدة. لا أحد من الحاشية ممن حوله يمكنه أن يجزم إن كانت قد فعلت ذلك عن قصد. ربما المراوغة التي أبدتها له، لا سيما أنه لم يعد شابًّا، أيقظت فيه كل نيران الفحشاء التي نسيها عدا نيران جديدة لم يكن يعلم أنها موجودة.

على أي حال، أنجب منها تيليموس في إحدى الليالي الماجنة التي أمضاها مع أنيلورا التي لم تكن تخشى غضب أسرتها. أسرة دوق ميليم التي اضطرت إلى الاعتراف به سرًّا على أنه من نسلهم. بعد ذلك أرسل دوق ميليم أنيلورا لتعيش بقية حياتها في دير في جنوب البلاد ولم يأتِ أحد على ذكرها بعد ذلك ولم يشاهدها أحد مرة أخرى. يقال إنها ماتت بالسم بعد وقت قصير من وصولها إلى الدير.

قام الدوق بتربية تيليموس كابنه، وكان يصحبه معه في كل احتفالات المملكة لرؤية السلطان آبيل. فهم الملك ما كان يدور، ولكن ماذا عساه أن يفعل؟ فقد علم الدوق تيليموس أحسن تعليم، سواء في علم الكتب أو في فنون القتال. في الحالتين أظهر الشاب مهارات بارعة من دون أن يُبدي أي شعور بالغرور. كان منفتحًا للتعلم من الجميع والاستماع للنصائح بشأن دراسته، حتى إنه زار الناسك منسونيوس في قمة التل حيث يمضي أيامه في التأمل والصلاة.

عندما بدأ يكبر، وبتشجيع من دوق ميليم، أصبح أكثر انخراطًا في شؤون سلافية. أصبح على دراية بمتاعب المزارعين والرعاة والحرفيين المتزايدة. لكنه لم يتوانَ قَط عن الثناء على سياسة السلطان آبيل الجديدة. بل إنه كان يزعم أن هذا النهج من شأنه أن يجعل من الشعبين صديقين يعملان معًا لصالح كليهما.

عندما بدأت صحة السلطان آبيل في التراجع، بدأ يتساءل البعض: بما أنه يُقال إن تيليموس ابن أنيلورا هو سليل آبيل بقدر ما كان نيريكو، فلماذا لا يرث والده في الحكم؟ سيما أنه أثبت منذ نعومة أظفاره أنه بارع في مهارات القتال رغم تجاهل والده آبيل. كما أنه مطلع على مشكلات كلاتونيا الجديدة جيدًا.

بناء على نصيحة كبير الأساقفة أولاف، ومن أجل القضاء على الشائعات التي كانت تطلقها عشائر ميليم، استدعى آبيل مجلس الحكم في أيامه الأخيرة، وبناء على طلب من كبير الأساقفة، وتوصية من الملك، تم الإعلان رسميًّا عن أن وريث المملكة هو نيريكو، ابن آبيل، من زوجته السلطانة كاترينا. تململت قبائل ميليم، وعلى رأسهم تيليموس وجده الدوق، لكن تم نفيهم واتهامهم بالتحريض على الشغب. استمر آبيل من على فراش الموت يصدر الأوامر المتعلقة بحكم المملكة، وإلى جانبه، منتصبًا كالتمثال، أصغى نيريكو إلى والده يصدر أوامره الأخيرة، وبذلك كان هو بمثابة من يصدر الأوامر.

بما أن الملك قد باح بوصيته، رغم أنه كان يحتضر، على الفور امتثلت الأسر القديمة من النبلاء والمحاربين لأوامره. الاتهامات التي وُجِّهت إلى تيليموس وعشيرته لم تخرج قَط في العلن. بدأ الكثير في الاعتقاد أنها كانت مزيفة. بعد وفاة آبيل وتولي نيريكو مقاليد الحكم استمر التحريض ضد قبائل ميليم. في النهاية أعلن مجلس الحكم، بناء على اقتراح كبير الأساقفة أولاف، أن دوق ميليم وتيليموس ونبلاءها خارجون عن القانون ويتآمرون لقلب المُلك. تقرر إرسال كتيبة من المحاربين للقبض عليهم وإحضارهم إلى سلافية، إلا أنهم

تمكنوا من الفرار. وسرعان ما انتشرت شائعات بأنهم قد لجأوا إلى النورمانديين.

بعد فترة وجيزة من تتويجه ملكًا، كان على نيريكو أن يواجه مطالب النبلاء والمحاربين الذين ساندوه بضرورة غزو أرض النورمانديين في أقرب وقت ممكن.

- 20 -

حماقة

- سأحضره إلى مكتبك.

- لا داعي للحضور. يمكنك إرساله بالبريد الإلكتروني.

- حقًّا؟ وهل يصل كاملًا؟

- أوه، نعم! هل توجد فيه تصاميم؟

- تصاميم! لا.

- لا أدري! هذه ليست أول مرة تقوم فيها بتصميمات هندسية، هل هو طويل؟ كم عدد الكلمات؟

- لم أُحصِها.

- استخدم عداد الميكروسوفت وورد.

- نعم أعلم، لكني لم أعدها. يفترض أنه ليس طويلًا.

- حسنًا، أرسله بالبريد الإلكتروني إذن. استغرق الأمر أكثر مما أخبرتني.

- أسبوعًا واحدًا.

- لقد حشرتني في الزاوية.

- أخبرتك أن الأمر سيستغرق بعض الوقت. في البداية بدا الأمر سهلًا لكني كنت مخطئًا. بالإضافة إلى أنه كان عليَّ أن أمضي بعض الأيام في لندن.

- حسنًا، أنت الكاتب يا أبي وتعلم ماذا تشعر عندما تكتب شيئًا. أرسله لي.

- حسنًا. اتصل بي وأخبرني ما رأيك وما إذا كان عليَّ حذف أو إضافة أي شيء.

- سوف أتصل بك.

فعل كما اتفقا. مر يوم واثنان ولم يتصل مارجون. يبدو أن المخاوف الصغيرة التي ظلت ترافقه خلال الأسابيع الثلاثة التي عمل خلالها على النص الذي طلبه منه ابنه، والتي اعتقد أنها ستزول بمجرد أن ينجز العمل، أصبحت أقوى الآن. مسألة القلق نفسها شيء غريب. ما الغريب في طلب ابنه أن

يكتب له نص دعاية؟! لكن يبدو أن هناك شيئًا خفيًّا لم يتمكن من تحديده. ظن أنه سيفرغ منه في يوم أو اثنين، بدا وكأنه سيكتب رواية جديدة -كما كان ينوي فعلًا لو لم يوقفه مارجون بطلبه غير المتوقع. أمضى بعض الوقت في التساؤل عما دفع مارجون إلى أن يطلب منه كتابة هذا النص، وهو، على عكس نينا، لم يُظهِر أي اهتمام قَط بروايات والده. والآن، ها هو ينتظر مكالمة مارجون التي لم تصل منذ يومين، منذ أن أرسل له النص بالبريد الإلكتروني، مما زاد من قلقه. في الواقع عندما وصلت أخيرًا، لم تعجبه النبرة التي تحدث بها مارجون؛ بدا مستعجلًا ومترددًا في الكلام. كل ما كان قد فعله هو إرسال رد إلكتروني فاتر -«استلمت النص».

قرر أنجلو في قرارة نفسه أنه قلق بشأن مسألة صغيرة لن تُسقِط العالم. لكن المهمة التي كلفه بها مارجون لسبب ما أثارت فيه الحماس والقلق. حاول عبثًا أن يشغل نفسه بوضع مسودة خطة للرواية التالية، أو أن يصحح مسودة ثالثة لوثيقة فارغة المضمون من المكتب بشأن سياسة حماية البيئة والتراث في جنوب مالطا.

في النهاية، في اليوم الثالث، عندما لم يبادر مارجون، اتصل هو به.

- كنت سأتصل بك لاحقًا اليوم.

- حقًّا! إذن رأيت النص الذي أرسلته لك أيها الجاحد.

- لا، ليس لهذا السبب كنت سأتصل بك، أو بالأحرى ليس لهذا فقط. كنت سأقترح عليك أن نلتقي لتناول البيتزا معًا كما فعلنا في المرة السابقة.

- لم لا؟ تعالَ عندي هذا المساء، سأحضر بيتزا الفصول الأربعة من بامبي. يقال إن لديه أفضل بيتزا في البلد.

- حسنًا. هل يمكننا ألا نتحدث عن النص الليلة في أثناء البيتزا؟

ساور أنجلو القلق مرة أخرى.

- لماذا؟

بدا له أن صوت ابنه قد تبدل فجأة، أصبح أكثر حذرًا مما هو مازح. ما الذي حدث؟ أم أنه يشك في أشياء وهمية؟ هل كان مرتابًا من شيء ما؟ ولكن

لماذا؟ ما سبب هذا القلق الغريب؟

- هل تفضل الحديث عن النص ضمن إطار العمل؟ يمكنك القدوم إلى مكتبي، أم تفضل أن أحضر أنا إلى مكتبك؟

- إذن تريده أن يكون اجتماعًا رسميًّا؟

بدت ضحكة مارجون مكتومة. أم أنه ما زال غارقًا في أفكار لا وجود لها؟!

- وهل سترسل لي فاتورة بحق القحبة العذراء؟ (غريب كيف ظل مارجون يستخدم هذه العبارة البذيئة. منذ أن كان في العاشرة لم تفارق شفتيه قَط، رغم جهود دينيس المتواصلة).

- أليس من الأفضل أن نناقش الأمر معًا؟

حسنًا.

أجاب مارجون من دون حماس. اتفقا على أن يلتقيا في مكتب مارجون في الشركة في الثالثة مساء. ظن أنجلو أنه وقت مناسب حيث يكون المكتب فارغًا بعد مغادرة معظم الموظفين، وإن كان بعضهم سيتابعون العمل على أجهزة الكمبيوتر من المنزل. ولكن على عكس ما توقع، عندما وصل إلى هناك، وجد المكتب مكتظًّا بشبان وشابات منقسمين إلى مجموعات صغيرة يحدقون في أجهزة الكمبيوتر المضاءة، يتناقشون فيما بينهم ويخطون أشياء على أوراق متناثرة حول موائد طويلة. لا يمكن مقارنة الهدوء في مكتب حماية البيئة مع الضوضاء هنا.

ومما زاد من التناقض تصميم الشقة التي كان مارجون قد استأجرها منذ نحو ثلاث سنوات لتحويلها إلى مكاتب: ممر طويل يبدأ بمساحة مربعة عند المدخل، ويفضي بخط مستقيم إلى حجرات بلا أبواب على الجانبين. مارجون كان يقول إنه يبحث عن مكان مفتوح وواسع، لكنه لم يفعل شيئًا حيال ذلك، حتى بعد أن ذكر أنه قد يحتاج إلى مساعدة والده في هذا الأمر.

- هاي!

هبت فتاة شقراء نحيفة للقائه فور دخوله؛ لو كان قد شاهدها في الطريق لقال إنها في السابعة عشرة، ولكنه سرعان ما تذكرها من زيارته السابقة

قبل بضعة أشهر -كانت واحدة من مساعدي مارجون، ووفقًا له، خبيرة في الكمبيوتر، في تصميم أنظمة التحكم في الشراء.

- أخبرني مارجون أنك ستزورنا اليوم.

سألها:

- هل ما زال في نفس المكتب؟

- لا. هنا نُغيِّر الأماكن طوال الوقت، حسب المشروعات التي نعمل عليها.

قالت له مبتسمة وهي تقوده عبر الممر الطويل حتى آخر حجرة. واصل الشبان عملهم باستثناء واحد أو اثنين نظرا إليه خلسة بفضول طفيف. كان ثمة موسيقى منخفضة تنبعث من مكان ما. تعرف عليها أنجلو على الفور رغم أنه لم يستمع إليها منذ سنوات طويلة. كان يستمع لأغاني بينك فلويد بشغف، وهي فرقة لا تنتمي إلى جيل مارجون، إلا أنه -مارجون- ظل مشغوفًا بموسيقاهم حتى اليوم، بل إنه يشيعها بين أقرانه.

كان مارجون جالسًا بمفرده على مائدة مستديرة محاطة بمقاعد معدنية مليئة بالأوراق والأقراص وشاشات الكمبيوتر. جلس أنجلو على مقعد بجوار مارجون. الفتاة التي رافقته سألتهما بابتسامة مهذبة:

- هل أحضر لكما بعض القهوة؟

- لن أقول لا.

قال أنجلو، وبعد نظرة سريعة نحو الفتاة لاحظها الأب على الفور، وافق مارجون.

- ربما كان من الأفضل لو تحدثنا الليلة في أثناء تناول البيتزا.

قال مارجون عندما كانا بمفردهما. بدا حذرًا رغم برودة أعصابه، ولكن أنجلو كان يشعر أنه على وشك اتخاذ قرار صعب. دينيس كانت تقول: «عندما تبدو عينا ذلك الولد باردتين كالثلج، دعه وشأنه. فهو كذلك منذ أن تعلم المشي».

سرعان ما أحضرت القهوة أمامهما.

- ما رأيك؟ هل قرأته جيدًا؟

- أجل. واستشرت زملائي هنا. من الأفضل أن نبدأ بشرح المفهوم الذي استخدمته في النص.

كان مارجون يبتسم في أثناء حديثه، لكن الشكليات والفتور في طريقة كلامه -كما وصفها أنجلو بعد ذلك- كانت بمثابة إنذار لما هو قادم.

شعر أنجلو بالحرج والازدراء من دون سبب واضح.

- حسنًا كمفهوم، إذا كنا سنستخدم هذه الكلمة... أعتقد أن النص واضح بما فيه الكفاية. لديك، أقصد لديكم، فريق شاب وعصري للغاية. لقد تمكنتم من تنفيذ مشاريع كبيرة والقيام بأشياء جديدة، والكل يقدم أفضل ما لديه بطريقة ما، كلٌّ وفقًا لإمكانياته وقدرته على التحمل. أنتم تجنون المال، وهذا أهم شيء، على الأقل في هذه المرحلة، وهذا أبلغ دليل على أنكم تعملون بشكل جيد وأن لديكم الموهبة، وأن من سيعمل معكم أو يمنحكم العقود، سوف يستفيد كما ستستفيدون أنتم. يمكنك طرح ذلك من خلال تقديم المواهب والفرص، على شكل نقاط مثل شفرات المروحة، جميعها مهمة بنفس المقدار. يمكنك إظهار ذلك بعدة طرق، لكنني وجدت فكرة عمل قائمة بهذه النقاط التي نريد لفت انتباه المستثمر إليها، ومن «سيعطينا» العقود، ومن «يرغب في العمل «معنا».

وهنا بدأ أنجلو يستخدم ضمير الجماعة مثل «نريد» و«يعطينا» و«معنا»، لإظهار مدى التزامه وتعمقه في هذه المهمة التي أوكلها إليه ابنه مارجون.

«يبدو أنني تصرفت كأهوج»، هذا ما قاله لنفسه بعد ذلك، بتلك الحماسة السخيفة لتبرير ما كتبه رغم أنه شعر سابقًا أن ابنه لم يعجبه ما كتبه.

- طريقة أخرى تتمثل في وضع كل هذه النقاط والإمكانات أبجديًّا، كما في القاموس، وبذلك تُظهِر مدى تشابهها وأهميتها بالتساوي. كل ما يفصل بينها هو أنها تبدأ بحرف مختلف. وما يجعلها مميزة هو أنه يمكنك العثور عليها في هذه الشركة مُسخَّرة من أجل صالح العملاء. يمكنك أن تتصفحها أبجديًّا أو من الأسفل إلى الأعلى، أو حسب ترتيب المعلومات حول الشركة التي تبحث عنها. تبدأ من حيث تبدأ، ستجد نفسك على الفور محاطًا بالميزات الديناميكية

لهذه الشركة. في رأيي، هذه المسألة تواكب الطريقة التي يفهم بها الناس اليوم الحياة ويحصلون على المعلومات، اعتمادًا على ما يشاهدونه في التلفاز، أو مؤخرًا من الفيسبوك وبرامج الدردشة الأخرى. هناك هامش كبير من الصدفة، لأن سلسلة ما تشاهده، إن تتبعته، يعتمد على الصدفة حسب ظهور الحرف الأبجدي.

فجأة شعر أنه يثرثر كثيرًا وعلى الأغلب يردد كلامًا فارغًا.

مارجون استمع إليه فاغر الفم وبدا أنه لاحظ أنه كان عليه أن يبدو أكثر اهتمامًا بدلًا من ارتشاف قهوته. ثم قال:

- وبماذا تبرر اختيارك لكلمات في النص مثل: الصدق، والدقة، والإبداع؟

- لا أدري! أليست كلمات مناسبة لوصف منظومة تمضي قدمًا؟ إذا لم تكن موفقة، يمكننا تغييرها.

- لقد سألت زملائي هنا. لم تعجبهم المصطلحات ولا يعتقدون أنها قد تجذب العملاء أو تستقطب الشبان المميزين للعمل معنا.

خيم عليهما صمت ثقيل. تظاهرا بشرب القهوة لكسر الصمت قبل أن يدركا أن قدحيهما فارغان. في النهاية قرر مارجون أن يقبض على الثور من قرونه، قال:

- يبدو أنه لدينا مشكلة، عندما عرضت النص على زملائي الكل أجمع على أنه معقد...

- وأنت أيضًا لم يعجبك؟

- أنا أيضًا رأيته ثقيلًا، وليس سلسًا. ليس هذا ما نحتاج إليه.

- أنت بحاجة إلى شيء جديد.

- لا يهم إن كان قديمًا أم جديدًا. لا أظن أن هذا النص مناسب. لا أقول بأنه سيئ -أرجو ألا تأخذ المسألة على أنها شخصية.

كان مارجون يتحدث بلباقة وينتقي كلماته بعناية، كأنه أعد سابقًا وبشكل جيد لما سيقوله. خطر في ذهن أنجلو أن الفتاة التي أحضرت لهما القهوة كانت تعلم ماذا يدور بينهما وعم يتناقشان.

- في عملنا، لا يمكننا ارتكاب أخطاء من خلال إرسال إشارات غير مفهومة.

- هذه ليست مسألة شخصية. إن ارتكبت حماقة فلا بأس.

قال بخضوع كي يتجنب مواجهة مارجون الذي قام بعرض انتقاداته. من ناحية أخرى، كان يتوقع منه أن يقدم بعض الخطوط العريضة التي يمكن على أساسها مناقشة كيفية الاستمرار في المشروع.

قال مارجون:

- الأمر لا يتعلق بحماقات. لقد حاولنا القيام بشيء جديد ولم ينجح الأمر. ربما كان الخطأ ناتجًا عن الاعتقاد أن كتابة الروايات والأدب يمكن أن تساعد في كتابة نوع معين من الدعاية.

- إذن أنت تقول بوضوح وبساطة إنه لا يمكن استدراك الأمر.

أجاب مارجون بصوت حازم:

- لا أعتقد ذلك.

- كان بإمكانك إخباري منذ البداية. هل كان عليك إحضاري إلى هنا؟

توقف أنجلو عن العتاب في الوقت المناسب؛ كان على وشك الاستسلام لغضب شديد تراكم في أعماقه. لكنه بدلًا من ذلك، انفجر بالضحك.

- أم كنت تنوي إخباري في أثناء تناول البيتزا؟

- بالضبط.

ضحك مارجون أيضًا وبدا مطمئنًّا أن والده لن يأخذ الأمر على أنه شخصي كما كان يخشى.

- ولكن بعد هذا الصدام، هل ما زالت دعوة البيتزا قائمة هذا المساء؟

كانت ابتسامة أنجلو صادقة هذه المرة، مخفية خيبة الأمل والمرارة التي شعر بها:

- أوه، بالطبع! على الرحب والسعة، بل إنني سأحضر بيتزا كبيرة.

في ذلك المساء حضر مارجون إلى منزل والده متأخرًا قليلًا. تحدثا حول مواضيع كثيرة بما في ذلك أجر النص الفاشل. شاهدا برنامجًا تلفزيونيًّا تافهًا. كانا قد التهما البيتزا الضخمة التي طلبها أنجلو، وشربا زجاجتين من النبيذ

الأبيض، وناقشا موسيقى بينك فلويد، مما ترك انطباعًا لدى مارجون أن والده قد تعافى تمامًا من رفضه وازدرائه.

مارجون لم يدرك مدى ضيق والده من القصة برمتها، وربما كان حزينًا لأنه لم يفهم لماذا كان حزينًا لهذا الحد. ظل مارجون مرحًا ومبتسمًا من دون أن يدرك مرة أخرى أنه يُعمِّق السكين داخل الجرح، قبل مغادرته قال:

- بدأنا ببيتزا، مررنا بحماقة، وانتهينا بالبيتزا مرة أخرى.

* * *

- 21 -

في الفراش

ربما لو تلكآ قليلًا في الذهاب إلى الفراش، لما كان قد حدث أي شيء. عندما يصل نيكي، كان سيجدهما أمام التلفاز، يشاهدان فيلمًا أو شيئًا من هذا القبيل، وربما كان سيجد تبريرًا لذلك. لأشهر وسنوات، ظل يطرح على نفسه نفس السؤال، ولكن في كل مرة، كان يعلم أنه يخادع نفسه. الحقيقة المُرة أن أنجلو ومورين أصبحا سعيدين برفقة بعضهما. ألقيا بالشكوك جانبًا، إن كان لديهما أي شكوك، ورتبا لحياة مزدوجة كروتين اعتيادي في حياتهما؛ كشيء موجود قد حدث، وليس عليك فهمه أو تبريره أو إدانته أو العفو عنه. بما أنه قد وقع، عليك التعايش معه من دون طائل تفكير بالخطيئة والشعور بالذنب.

لا بد أنه كان شعورًا مضللًا آمَنَا به لفترة طويلة، أو هكذا تخيلا، لأنه بعد تلك الميلودراما، لم يتبقَّ أي شيء من حياتهما المزدوجة. يبدو أن الاثنين، من دون أن ينبسا ببنت شفة، اتفقا على أن المغامرة بينهما قد انتهت بمجرد أن فتح نيكي باب الشقة في نحو الثانية صباحًا ووجدهما معًا. في البداية، عندما أدرك ثلاثتهم ما الذي كان يجري، قبل أن تتحول المسألة برمتها إلى دراما هزلية لرجل يجد زوجته في أحضان أخيه. تلك اللحظة القصيرة كطرفة عين، ولكنها بدت كأنها الأبدية، جسدت الصدمة الحقيقية التي هزت نيكي حتى النخاع. لم يتخيل قَط شيئًا كهذا، بهذه الجسامة، وهو الذي ارتكب كل أنواع الموبقات مع النساء، سواء كن متزوجات أم لا، ممن وقعن في فخه منذ أن كان صبيًّا تجذبه كل تنورة امرأة يشاهدها.

على الأرجح، أن اللقاءات السرية مع مورين اتخذت شكلين، إما أن يكررا الليلة الأولى الصاخبة التي أمضياها معًا، يتقلبان متشابكين على السجادة الزرقاء السميكة في غرفة معيشته، إلى أن يستريح كلاهما، أو يدخلان في مناقشة هادئة في أثناء تناول وجبة جاهزة مع النبيذ، ثم الاستلقاء معًا في الفراش، إن كان هناك متسع من الوقت، كأنهما زوجان. في ذلك الوقت، كان

سفر نيكي المتكرر بسبب العمل -وفقًا لها، لم يكن فقط بسبب العمل- يمنحهما الكثير من الوقت معًا، عدا الساعات القليلة المسروقة في لقاءات مجنونة بين الحادية عشرة صباحًا وما بعد الظهر.

في ذلك المساء، مر الوقت بطيئًا للغاية، وهو علامة على أن العلاقة بينهما بدأت تأخذ طابعًا منزليًّا، وأخذ يعتريها الفتور، رغم أنه لم يكن متيقنًا مما إذا كان فتورًا عاديًّا أم بسبب الروتين المتكرر الذي دخلا فيه. لإضفاء بعض الإثارة على لقاءاتهما، تمكن من إقناعها بالسماح له بطهي طبقه السريع في «مطبخها» الذي طالما تفاخر بأنه أصبح متخصصًا به: مكرونة بصلصة السمك المملح والطماطم، وصفة تعلمها بسبب روتين المساء. ها نحن إذن، يبدو أنه تقبل هذا الروتين، سيما بعد أن بدأ يعيش بمفرده. على عكس مخاوفها، سرعان ما أصبح الطبق جاهزًا من دون أن يخلق فوضى في المطبخ. قالت بأنه يعجبها. تناولاه أمام الشاشة في أثناء مشاهدة فيلم: إشارة أخرى على الطابع المنزلي الزائف الذي بدأت تأخذه العلاقة بينهما. وما زاد الطين بلة، أنهما ذهبا إلى الفراش مبكرًا، وأعدا المنبه ليدق قبل الفجر كي يتسنى له التسلل من دون أن يلحظه أحد.

لكن هذا ما قد حدث: عدا عن أنه لم يكن مسرورًا من الرحلة إلى صقلية مع الرجال الآخرين، حدثت لديه مشكلة في العمل أجبرته على قطع الرحلة والعودة في أقرب وقت ممكن. عندما حاول إخبار مورين، وجد أن بطارية الهاتف قد نفدت، ولم يحاول الاتصال بطريقة أخرى. (من يدري، ربما كان هناك شيء خفي في ما فعله، شيء لم يذكره لأي أحد مطلقًا). وحدث أن العَبَّارة قد تعطلت فوصل متأخرًا، بعد منتصف الليل بعدة ساعات. بعد مغادرة المركب، استقل سيارة أجرة وتوجه إلى المنزل.

كانا يغطان في النوم عندما بدأت تُسمع حركة في الفيلا الفارغة، ثم صوت صعوده إلى حجرة النوم في الطابق العلوي. سمعا الصوت بعد فوات الأوان، نهضا معًا مرتجفين.

- مورين، هذا أنا، لا تتفاجئي، لقد عدت مبكرًا.

قال نيكي وهو يدخل ويشعل الضوء.

-ربما بالنسبة له بالنسبة لهم، ظلت تلك اللحظات محفورة في الذاكرة- صياح نيكي، وصراخ مورين، وهو ماذا فعل، ماذا قال؟ لم يتفوه بكلمة واحدة. آخر ما يتذكره هو تلك اللحظات الأخيرة حين ارتدى ملابسه على عجل وبتهور كي يهبط للأسفل ويغادر. فجأة توقف شقيقه عن السباب والصراخ، وهرول راكضًا نحو الحمام. سمعاه يسعل ويتقيأ على أرض المرحاض. أنجلو خرج من دون أن ينبس ببنت شفة أو ينظر إلى مورين التي ظلت مستلقية ترتعش على السرير.

وجد السيارة على بُعد زاويتين في الأسفل. كان الظلام ما زال دامسًا. قاد سيارته خارج المنطقة السكنية حيث تدفق ضوء الفوانيس البرتقالي أمامه كينابيع صغيرة. اتجه نحو الطرقات المظلمة والضيقة في الريف القريب. لم يكن يدري إلى أين هو ذاهب، بالتأكيد لن يذهب إلى شقته الآن. كان يقود من دون أي أفكار واضحة، إلا أن جوقة غبية كانت تقرع في رأسه: يا للفضيحة! يا للعار! كان هناك أيضًا مشهد يومض، ليس أمام عينيه، لأنه كان يقود بحذر شديد في الظلام وفي الممرات الضيقة بين الجدران الحجرية، لكنه كان يومض في الذاكرة، لا يدري كيف حدث ذلك، على حد علمه، لم يتذكر ذلك المشهد طوال السنوات التي انقضت؛ مشهده هو ونيكي في صباهما، يتشاجران بالحجارة وأغصان الشجر في الحقل المجاور.

ظل يقود من دون توقف. لم يستطع تحديد المدة التي قضاها في القيادة. لم ينظر إلى الساعة طوال هذا الوقت. بالطبع، في النهاية صعد الطريق المؤدي من أحراش البوسكيت حتى منحدرات دينجلي. أوقف السيارة في الجزء العلوي، على النتوء الصخري قريبًا من حافة الجرف، بينما الجوقة استمرت تدق في رأسه: يا للفضيحة! يا للعار!

فارقه النعاس تمامًا. تمنى لو كانت لديه زجاجة خمر. الليل ما زال حالكًا، صامتًا، بلا قمر، والنجوم خافتة بالكاد تظهر في السماء. نظر إلى البحر أسفل الجرف، كتلة سوداء هائلة. تذكر أنه منذ زمن، نسي أحدهم علبة سجائره في

سيارته. فتح الجيب ووجد العلبة، كانت جافة بسبب مرور وقت طويل. لم يدخن منذ سنوات ولكنه أشعل لفافة، كان المحرك لا يزال ساخنًا لذا أشعلها من ولاعة السيارة. سعل مرة أو اثنتين حتى روض مذاق الدخان في فمه. حدق بعيدًا في البحر ودخن ثلاث سجائر، واحدة تلو الأخرى. لم يكن يعلم ما الوقت لأنه لم ينظر إلى ساعته ولا إلى ساعة السيارة المتوقفة منذ زمن. عقله كان متجمدًا مثل نظرته، مثل الليل من حوله. لكن سرعان ما سينبلج الفجر.

رغم أنه ظن أن النعاس قد فارقه، فإنه غط في النوم. أيقظه طرق خفيف. للحظة لم يستطع معرفة أين هو. كان ضوء الفجر ضبابيًّا والسماء ملبدة بالسحب، وثمة شخص ما يطرق على نافذة السيارة، رجل يرتدي قبعة. فتح النافذة بتثاقل.

سأله الرجل:

- هل كل شيء على ما يرام؟

- نعم، شكرًا لك.

- لقد رأيتك هكذا، قلت ربما كنت بحاجة إلى شيء ما.

- شكرًا جزيلًا، أنا على ما يرام.

ابتعد الرجل ببطء وظهر أنه كان برفقة كلبه.

ظل لبعض الوقت مستلقيًا خلف عجلة القيادة. التدخين ترك مذاقًا جافًّا وسيئًا في فمه. أدار المحرك، وقاد للخلف مبتعدًا عن الحافة الصخرية، ثم توجه إلى الجانب الآخر من الجرف حيث توجه الرجل وكلبه. ضوء الصباح بدأ ينتشر. انعطف إلى اليمين، باتجاه بلدة دينجلي. في قلب القرية كان أحدهم يفتح حانته. راودته رغبة في التوقف والدخول. وهذا ما فعله. طلب ويسكي، ثم آخر، ثم آخر، متجاهلًا الفضول الذي أثاره لدى المرأة النادلة ورجلي الأمن وبعض العمال الذين كانوا في انتظار أول حافلة.

ما زال غير قادر على التفكير، على الأقل كابوس «يا للفضيحة! يا للعار!» قد توقف. تذكر الرجل بالقبعة الذي أيقظه فضحك. يبدو أن الرجل قد ظن أنه

هنا للتلصص على صيادي الطيور وأفخاخهم. طلب ويسكي آخر.
وهكذا بدأت قطيعة طويلة ومريرة بين الأخوين؛ أنجلو ونيكي.

رواية

طفولة.

كرات النعناع. أيوب.

سفر دانيال.

أنا والآخر.

نحن الذين ركبنا على ظهور الديناصورات. برودة.

ماذا بعد...؟

سأل أحد الحضور:

- ولكن... كم تجني من المال من هذه الروايات والكتابات الأخرى؟

أجاب:

- آه! يسعدني القول، كما أخبرني الناشر، إن كل رواياتي قد بيعت، ولم يتبقَّ منها سوى نسخ قليلة.

سأل مقدم البرنامج:

- حسنًا، ولكن كم عدد الكتب التي طبعوها؟

حدَّق في كل من السائل بحقد والمقعد المستدير الذي وضعوه فيه أمام خلفية بسحب بيضاء كبيرة تمخر عباب سماء زرقاء.

لاحظ أن الكاميرا تركز عليه في أثناء إجابته:

- هذه معلومات مالية لا يفترض بي التحدث عنها هنا.

تراجع المقدم خطوتين إلى الوراء مزهوًّا كمن اكتشف شيئًا ما.

- ولكن كيف سنعلم من هم الكتاب المقروءون وأولئك غير المقروئين؟

انفجر بالضحك لأن السؤال كان غبيًّا جدًّا. لم يأبه ما إذا كانت الكاميرا تركز عليه:

- هناك إجابة سهلة عن سؤالك، ولا بد أن الجميع يعلمها. الحقيقة هي أن لا أحد يقرأ الأدباء المالطيين إلا إذا كانت أعمالهم مقررة في الثانوية العامة.

ولإرباك المشهد قال المقدم:

- لكنهم ألغوها من المقرر منذ سنوات.

أجاب:

- إذن يجب عليهم إعادة إدراجها. وربما يكون من الجيد أن يتم ذلك من خلال حملة تديرها مدارس الكنيسة.

بهذه الملاحظة السخيفة الأخيرة التي لا معنى لها ولا علاقة لها بكل ما قيل حتى الآن، نجح كما أراد في أن يكون هو من يخلط الأوراق تمامًا. نظرة المقدم تشتَّتت للحظة، وامتلأ فجأة بتساؤلات وشكوك غريبة. ما دخل مدارس الكنيسة؟ هل يسخر مني؟ أم نسينا شيئًا مما يقوله وعلينا التأكد كي لا نبدو مثارًا للسخرية؟ بعد مرور وقت قليل قرر مقدم البرنامج طرح السؤال المتوقع لكنه فعل ذلك بحذر شديد أكثر مما فعل في السابق.

بعد انتهاء البرنامج، دعا المذيع أنجلو لتناول الطعام معًا. ذهبا إلى مطعم بعيد عن الاستوديو، مبنى بجوار البحر، محاط بأشجار نخيل باسقة. كان يحتوي على شرفة ونوافذ زجاجية بستائر مفتوحة. في البعيد أمام المبنى، ترامى البحر أسود ووادعًا، وفي مكان ما لا تدركه العين، يتصل بسماء صافية تتخللها خيوط فضية. دخلا قاعة كبيرة، جلسا في ركن مظلم ودافئ محاط بموائد على الجوانب. كان المطعم فارغًا. تناولا طبقًا من المكرونة وزجاجة نبيذ أحمر.

سأل مقدم البرنامج:

- والآن، هل يمكنك أن تخبرني ما علاقة مدارس الكنيسة بشهادة الثانوية العامة؟

بدا مستغرقًا في التفكير، من يدري لماذا؟!

قال أنجلو كي يزيد من حيرته:

- لقد فهمتك الآن، لديك عقود علاقات عامة مع مدارس الكنيسة! لذلك بقيت تتحدث على هذا النحو!

تمكن من تشويشه مرة أخرى. هذه المرة لم يَقُم بإجراء حسابات سريعة حول ما يُقال، فهو ليس أمام الكاميرا. استغرق المذيع وقته لفهم ماذا يدور. بالتأكيد لن يقر بالتعاقد مع أي من المدارس لإدارة علاقاتها العامة؛ في الواقع كانت لديه عقود. والمسألة تنبعث منها رائحة كريهة. ترى، هل يقصد هذا الرجل، الذي يلعب دور الكاتب الروائي ويخرج بكتاب مثير للجدل كلما أوشك الجمهور على نسيانه تمامًا، أن يسخر منه؟ في الحقيقة: أجل.

لاذا بالصمت لبعض الوقت في أثناء تناولهما المكرونة الشهية المتبلة بالسجق المالطي.

انتهى مقدم البرنامج من طبقه قبل أنجلو بكثير. لم يكن في عجلة من أمره، على عكس الآخر الذي وفقًا لحسابات أنجلو، دعاه لأنه كان قلقًا بشأن ما قاله عن شهادة الثانوية ومدارس الكنيسة في أثناء البرنامج. كان للمذيع ولدان صغيران من زواجه أو معاشرته لعشيقته الرابعة. كما خمن أنجلو، فقد كان الأخير متحرقًا للعودة. لم يتوقع أن أنجلو قد يؤخره، لكن هذا ما حدث. في البداية كان التأخير تكتيكًا من أنجلو لإزعاجه. ولكن بعد ذلك، بدأ مقدم البرنامج نفسه في إطالة الوقت، الأمر الذي لا علاقة له بالخمر التي شربها، فقد كان معروفًا أن الخمر لا تؤثر فيه كثيرًا. في الواقع، كان الكاتب من انتهى به المطاف، ضد إرادته، إلى الثرثرة كثيرًا.

قال المذيع -لذلك طالت المحادثة بينهما:

- الكل يعلم أنك كاتب غير مسيس، أمر غريب بعض الشيء في هذا البلد، حيث الكل منحاز لأحد الحزبين، حتى لو أنكروا ذلك. لكنك حافظت على هذه المسافة.

- ربما لأنني لم أكن كاتبًا سياسيًّا قَط.

- ماذا يعني أن تكون كاتبًا سياسيًّا؟

ولكن من دون أن ينتظر إجابة تابع:

- أين كنت في الثمانينيات؟ ألم تكن تعمل مع الحكومة؟! يقولون إنهم لم يجدوك عندما احتاجوا إليك. وفي معركة الاتحاد الأوروبي لم تُدلِ بدلوك، لا مع ولا ضد.

لم تكن المرة الأولى التي يسمع بها مثل هذه الأسئلة، وأحيانًا كانت توجه له بحذر شديد، لأنهم كانوا يعلمون أنها قد تغضبه.

لكنه أحب النقاش لأنه منحه فرصة لمواصلة المراوغة حول أفضل أعماله وإخفاء اهتماماته الحقيقية.

- هذه ليست أول مرة أتعرض فيها لمثل هذه الاتهامات.

- أفهم ذلك. وأخبروني أنك مروض على المراوغة في الإجابة. أعني، أعلم ما ستقوله سابقًا.

- لا، أنت لا تعلم. ماذا لو أخبرتك أن الرواية التي أكتبها الآن هي رواية سياسية؟

- لذلك لم تُجِب عندما سُئلت في البرنامج عما تحضره؟ أخبرني، هل ستكون رواية سياسية بحتة أم مكتوبة بطريقة سياسية؟

أدرك أنجلو أن لسانه قد أفلت. كان الآخر في انتظار الإجابة وكان عليه توخي الحذر حتى لا تُثار الشائعات حول ما يقوله. أنجلو كان في حالة مزاجية تحثه على الاستهزاء بالجميع، حتى بنفسه.

واصل المذيع فضوله:

- وحول ماذا ستكون الرواية؟

- تاريخ كلاتونيا.

- آه! تقصد كتلاونيا؟! ولكن ما علاقة الكتلاونيين بمالطا؟

- بالطبع لا علاقة لهم. أنا لا أتحدث عنهم، ومن الأفضل أن نذهب لأن الوقت قد حان. كنت أتحدث عن الكلاتونيين.

- 22 -

قصة

في منزل نيكي ومورين، في وقت متأخر بعد الظهر. قاعة كبيرة، نصفها غرفة معيشة، والنصف الآخر غرفة طعام، تفضي من الجانب إلى حديقة مشمسة. تناولوا الطعام لتوهم واجتمعوا جميعًا في غرفة المعيشة، الأطفال على كنبة كبيرة، فيما أنجلو ونيكي أمامهم، في مقعدين صغيرين. المكان مغمور بأشعة الشمس. دينيس ومورين تخرجان إلى الحديقة. (مورين تنظر نحو ميشيل):

- من سيأتي معنا؟

ميشيل تهم باللحاق بهما، ثم تنظر إلى مارجون ونينا وتغير رأيها. تهز رأسها، وتبقى في مكانها.

الكاميرا تلتقط دينيس ومورين تخرجان إلى الحديقة. أشعة الشمس تملأ المكان. تدخلان تحت ظل شجرة ليمون كبيرة.

دينيس: آه لو كانت هذه الحديقة لي!

مورين: خذيها، خذيها كلها، الأشجار مملة للغاية.

عودة إلى غرفة المعيشة، حيث يستمع الأولاد لما يقوله نيكي. أنجلو جانبًا، يرتشف من كأسه، يبدو متضايقًا مما يسمع لكنه لا يُظهِر ذلك.

نيكي: إيه! عندما كنت صغيرًا، أحببت قصص كلاتونيا أكثر من الأفلام التلفزيونية. ما زلت حتى الآن عندما أتذكرها، أشعر بسعادة عارمة.

مارجون: وما هي قصص كلاتونيا؟

ميشيل: ها! قصص، مجرد قصص.

مارجون: حول ماذا؟ حول الحروب؟ الطائرات؟

ميشيل: أي طائرات! لم يكن هناك طائرات في ذلك الزمان!

مارجون: أي زمان؟

ميشيل: زمن كلاتونيا! أعلم كل شيء عنها.

أنجلو (ينظر إليها): وكيف تعلمين؟

ميشيل: هو من يخبرني.

ينظر أنجلو نحو نيكي.

ميشيل: فعلًا. حكايات رائعة حول فرسان يتوغلون في الغابة ويلتقون مع عمالقة يحتجزون أميرة.

نينا: إذن هذه قصص أطفال؟

ميشيل: أطفال! أقول لكِ عمالقة، هل تعرفين ماذا تعني عمالقة؟

نينا: بالطبع أعلم. لكن الأطفال فقط يؤمنون بالعمالقة. لأنه لا وجود لهم.

ميشيل: هذا ليس صحيحًا.

مارجون: أخبرنا القصة إذن عمي نيكي.

نيكي: لست في المزاج. دعوني وشأني.

نينا: من أين كنت تأتي بتلك القصص عمي نيكي؟

نيكي: ماذا؟ كنت أستمع إليها عندما كنت صغيرًا.

أنجلو: كنت أرويها له قبل النوم. كانت تعجبه كثيرًا. كانت تعجبك أليس كذلك؟ أخبرهم بالحقيقة.

نيكي: صحيح. كانت تعجبني، وما زالت.

أنجلو: إذن هل تقصها على ميشيل الآن؟

نيكي: بقدر ما أتذكر. لكن هل تعلم، ما زلت أتذكرها جيدًا، غالبيتها، تمامًا كما رويتها لي.

ميشيل: فعلًا، أخبرنا قصة الأمير الذي أرسله الساحر إلى سالاندرا.

نينا: وما هي سالاندرا؟

ميشيل: مدينة جميلة لا يعرفها أحد. أجمل مدينة في العالم!

نينا: هذا ليس صحيحًا. سالاندرا غير موجودة. أجمل مدينة في العالم هي روما، لقد كنا هناك.

ميشيل: ولكن في القصة سالاندرا هي الأجمل!

تنظر نحو نيكي: أخبرهم بالقصة، أخبرهم.

أنجلو (ضاحكًا): ميشيل محقة. قص علينا تلك القصة. ما الذي يمنعك؟

في الحديقة، مورين ودينيس على مقعد تحت أشجار الليمون، الظل الذي يحيط بهما تخترقه حزمات من ضوء الشمس.

مورين: ... قصة أخرى كباقي القصص.

دينيس: ولكنها دائمًا تترك خلفها عِبرة ما، سواء كانت جيدة أو سيئة.

مورين: ليس بالنسبة لي. فما فات قد فات.

دينيس: حقًّا؟ لكن ربما أنتِ على حق. الحياة مليئة بالقصص، واحدة تلو الأخرى، وأحيانًا ثلاث أو أربع قصص تحدث معًا. هكذا هي الحياة. قصة هنا، وأخرى هناك.

مورين: لا داعي لتذكرها. من الأفضل نسيانها.

دينيس: جميعها؟

مورين: جميعها.

دينيس (ضاحكة): حتى قصص الشخص الذي ذكرتِه للتو؟ لم تخبريني من هو. هل أعرفه؟

مورين (ضاحكة أكثر منها): لا لا! ماذا تريدنني أن أخبركِ؟ لقد نسيته تمامًا! كانت مجرد قصة، هذا كل شيء.

في طرف غرفة المعيشة، نيكي يروي قصة الأمير والساحر. يمشي جيئة وذهابًا أمام الأولاد الذين كانوا يتابعونه بشغف. مثل بقية الأولاد، أنجلو تابعه باهتمام شديد. الجزء الأخير في القصة.

نيكي: ... عبر بوابة المدينة من فوق الأسوار، شاهد الأمير الساحر ميرلونيوس يهرب مسرعًا نحو الغابة. قبل دخوله الغابة، استدار الساحر نحو المدينة ولوَّح الاثنان لبعضهما. «أراك قريبًا أيها الساحر!». صاح الأمير وهو يلوح بيده. «لا تتأخر في العودة». رد الساحر بابتسامة كبيرة، رغم أنه لم يستطع سماع ما قاله الأمير من بعيد. وهكذا تنتهي الحكاية.

صمت الأطفال الثلاثة كأنهم يجترون ما قد سمعوه. ميشيل تبتسم راضية عن قصة والدها التي أثرت فيهم.

نيكي (لأنجلو): هل رويتها جيدًا؟

مارجون: هل هناك قصص أخرى غير هذه؟

نيكي: بالطبع.

ميشيل: هناك الكثير.

نينا: لكنها شبيهة بقصة فيلم الأميرة النائمة. قصة جميلة!

نيكي (غاضبًا): وهذه، أليست قصة جميلة؟ ولا علاقة لها بالأميرة النائمة! عندما كُتبت هذه القصة، لم يكن هناك أفلام أصلًا.

ينظر إلى أنجلو: أليس هذا صحيحًا؟ أخبرهم.

أنجلو: ما زلت تتذكر جيدًا.

نينا: قبل الأميرة النائمة؟ كيف؟

أنجلو: ربما عليَّ أن أرسل لك حقوق التأليف والنشر!

* * *

- 23 -

خيانة

كانت المرة الأولى التي شعرت فيها إيرين بالأنوثة في حياتها. في عتمة حجرة النوم، مستلقية بجانب الشاب، جسدها ملتصق بجسده، شعرت أنها أخيرًا وجدت معنى الحياة.

- لماذا خُلقنا هكذا؟ نقف على قدمين، ونتنفس الهواء من أنوفنا، وتغمرنا السعادة عندما ندخل الحديقة في أشعة الشمس، أسفل البرج الأيسر لقلعة سلافية، أو يعترينا الحزن الذي يفيض في غدير الماء المظلم في الفناء الكبير لنفس القلعة؟ لماذا نحن هكذا، لا نعلم حقًّا سبب سعادتنا أو تعاستنا؟

لكنها تعلم الآن: هناك شيء فيك يجعلك من أنت. هذا الشيء يتوهج، وتشعر به عندما تذوب في نشوة جديدة لم تتخيل قَط أنها قادرة على جذبك بهذه القوة، عندما تتلوى في قبضة جسد آخر يتلوى معك وضدك وفي أحشائك، بنشوة مجنونة مثل نشوتك، أو ربما تفوقها.

كانت تعلم أنها في ذروة أوقات حياتها، وهو أمر خطير جدًّا لكنها لم تكترث. يبدو أنها تعلم ماذا كان سيحدث، منذ اللحظة التي أعلن فيها كبير الأساقفة أولاف قراره بمغادرة سلافية بجيش كبير لدعم السلطان نيريكو، المحاصر في معسكره من قِبل النورمانديين. يبدو أنها اتخذت قرارها في نفس الوقت مع أولاف. منذ البداية لاحظت كيف تمكن ستيفنوس من ناكور من إثارة أفكار وشكوك لديها لم تشعر بها من قبل. والآن بعد أن يغادر أولاف، ستكون بمفردها مع الشاب، ورجل الدين الأبكم الذي كان يدون ترجمة الشاب للمخطوطات التي خلفتها الإمبراطورية القديمة.

بالتأكيد أنها لم تشعر بنفس الإثارة عندما التقت نيريكو لأول مرة. لقد كان ولي العهد، وعندما نظر إليها لأول مرة، كانت نظرته مليئة بالفاحشة، الأمر الذي جعلها موضع حسد صديقاتها، لكنه بالتأكيد تركها باردة جدًّا، وظلت هكذا في الشهور والسنوات التي تلت. عندما أرادها نيريكو كمحظية، ظلت ترفض

بناء على نصيحة والدها، إلى أن تزوجها في النهاية -كما رغب على الدوام والده السلطان آبيل.

والآن مع هذا الشاب اكتشفت كل ما يتجاوز البرودة ويذوب في وهج الجسد. الآن بدأت تفهم تحذيرات الواعظين عندما كانت لا تزال عذراء. وبعكس ما حذروها من جشع الجسد من أجل المتعة، كانت تجد متعة وراحة لا مثيل لهما. كانت تتذوق أكبر نشوة شعرت بها في حياتها، ولن تتخلى عنها بأي شكل كان.

كانت قد أفهمت الشاب أي الممرات التي عليه أن يسلكها، وشرحت له كيف يتجنب الحراس في أثناء قيامهم بدورياتهم الليلية في جميع أرجاء القلعة الملكية، وماذا عليه أن يفعل عندما يصل إلى قاعة الجناح الأيمن -عليه أن يدفع الحجر السري بجانب الصندوق الكبير بجوار مائدة الطعام، وأن يدير الباب ويدخل عبر ممر سري، وألَّا ينسى أن يغلق الباب خلفه كي لا يلاحظ أحد، بعد ذلك عليه أن يصعد ثلاثين درجة تؤدي إلى ممر يفضي إلى فتحة صغيرة صامتة في الظلام، ثم خمس عشرة درجة أخرى، بعدها يجد نفسه في جناحها.

منذ الليلة الأولى فعل ستيفنوس من ناكور كل ما قالته له بحذافيره، واستمر في القيام بذلك ليلًا بعد آخر.

وفي كل يوم يكونان معًا في الظهيرة عاكفين على العمل، كما لو أن أولاف معهما، على ترجمة اللغة القديمة للإمبراطورية من الرقوق التي أحضرها كبير الأساقفة. تابعا برنامج العمل على المخطوطات الذي كان قد أعده أولاف قبل مغادرته. بينما كانت تتفحص كتابات رجل الدين الأبكم، كانت تلاحظ سلوك الشاب الوقور والرزين، ثم تقارنه بسلوكه على النقيض في حجرة نومها المضاءة بالشموع المعلقة والشمعدانات فيما ضوء القمر يتسلل عبر النافذة المفتوحة، ثم بعدما تذوب تحته، تراه ينهض ويمسح جسده من لزوجة سوائلهما.

لكن لماذا تظل تصفه بالشاب؟ هكذا كان يبدو من مظهره ونظرته عندما يلتقيان في الفناء الرئيسي في وضح النهار للذهاب إلى قاعة الترجمة ضمن مراسم معينة. ولكن في الليل، في عتمة غرفتها، كان يبدو رجلًا ناضجًا واسع التجربة. الحماسة التي يبديها في أثناء جماعهما، والكلمات التي يستخدمها بلغات لم تسمعها من قبل، وصرخته في اللحظة الأخيرة من النشوة كأنه خنزير تُجز رقبته... كل هذا أعطاها الانطباع بأن سنوات شبابه قد انقضت من دون أن تترك آثارًا كبيرة على محياه.

إيرين كانت قد أدركت منذ البداية أن ستيفنوس لم يكن قسًّا مستجدًّا، أو أنه على الأقل لم يكن مجرد مستجد. منذ البداية، بخلاف كبير الأساقفة أولاف، لم تصدق قصة أنه بطريقة غامضة، منذ ولادته، تعلم لغة الإمبراطورية البائدة... هدية نالها بمعجزة. أولاف صدق هذا لأن الراهب منسونيوس من أرسله وقد كان كبير الأساقفة يثق بمنسونيوس ثقة عمياء. السلطانة إيرين، كما كان واجبها بعد كل شيء، لم تسمح لمثل هذه الخرافة بأن تضللها. كيف لهذا الشاب أن يولد على علم كامل بمفردات لغة الإمبراطورية وكيفية قراءتها وكتابتها بعد أن انقرضت منذ قرون سابقة؟ لكنها لم تفصح عن شيء من هذا؛ لا تدري من أين أتى بهذه الموهبة، لكنها مثل أولاف، تقر أن الشاب -إن كنا سنصفه كذلك- كان بارعًا حقًّا في فك طلاسم لغة الإمبراطورية القديمة.

عندما بدأت تلتقي مع الشاب في الخفاء، أمكنها التحدث بعد الساعات الطويلة من ممارسة الحب، بدأت بطرح الأسئلة من دون توقف.

في الحقيقة، لم يكن عليها طرح الكثير من الأسئلة لمعرفة من كان حقًّا. كان يخبرها بكل شيء من دون تردد. ليس صحيحًا أنه منذ ولادته يعلم لغة الإمبراطورية المنسية. كان من كلاتونيا، والدته عذراء فرت من أسرتها إلى أرض النورمانديين عندما كان لا يزال في رحمها. لم تفهم.

- مستشار السلطان آبيل رتب لقتلي في رحمها.

فَهمت.

- إذن؟

- هربوا. هربنا. كنا أسرة بسيطة ليست من النبلاء. المستشار والملك لن يعبأوا بغيابنا أو ما قد يحل بنا. عند دخولهم أراضي النورمانديين، صادفوا قبيلة غريبة في الغابة تغير على ذلك الجزء من أراضي النورمانديين. لا تسأليني عن اسمهم أو جنسهم، لا أدري، فقد كنت هناك ولم أكن. أسروا أفرادًا من أسرة أمي وأخذوهم معهم. ثم لا أدري ماذا حدث. من الممكن أن يكون النورمانديون قد هبوا على هذه القبيلة التي لا أعرف من أين أتت، ودحروها بقوة من حيث أتت. أمي أخبرتني أنهم ارتحلوا لأشهر طويلة. لم أدرك قَط مدى طول رحلتهم حتى تمكنت من العودة إلى هنا. في أثناء الترحال توفيت والدتي وشقيقها الأصغر من شدة الإرهاق، رغم أن آسريهم لم يُظهِروا أي قسوة معهم -كانوا يسيرون بنفس الوتيرة مثلهم، ويأكلون من نفس الطعام- رغم ذلك شعروا أن الرحلة لن تنتهي أبدًا. بقائي حيًّا في رحم أمي كان معجزة. عندما اجتازوا الغابات، مروا عبر وديان وسهول كانت تشي بأنها كانت مزارع كبيرة في الماضي. ثم المزيد من الغابات والأراضي الزراعية، حيث كل شيء يشير إلى أن مزارعين أشداء قد فلحوا هذه الأرض وجنوا المحاصيل منها على مر قرون لا حصر لها. بعد ذلك عبروا بلدات قديمة كثيرة يبدو أنها تأرجحت بين سنوات من الازدهار تلتها عقود من الخراب... في نهاية المطاف، بعد ولادتي بفترة وجيزة، وصلوا إلى مورا.

اعتدلت السلطانة إيرين وهي تستمع إليه في الفراش المتقلب على إيقاع ألسنة اللهب في الشمعدانات من حولهما. لم تبدُ قَط بتلك الروعة وفي قمة جمالها. الغريب في الأمر أنهما كانا يريدان المزيد من الضوء من حولهما عندما يلتقيان في حجرتها في الليل. يبدو أنهما أرادا رؤية بعضهما جيدًا، كي لا ينسيا مظهر بعضهما. لكن كان هناك همس حول الشموع التي تُضاء كل ليلة في حجرة الملكة. ما سمعته جعلها أكثر إشراقًا وجاذبية عند تعريها، تساءل الشاب ما إذا كان عليه أن يتوقف عن السرد كي يشعل جذوة الشوق في أعماقها من جديد.

قالت:

- مورا؟ مورا اندثرت منذ عهد طويل.

هز رأسه مبتسمًا:

- لا، مورا ما زالت حية.

كان يروي لها قصته الطويلة ليلًا بعد آخر، من دون عجلة أو تسلسل معين. بل وفقًا لأسئلتها في أثناء توقفهما عن الالتحام ببعضهما لأخذ بعض الأنفاس. في بعض الأحيان لم تكن تسأله شيئًا. لكنه كان يتحدث من تلقاء نفسه.

- لا، مورا حاضرة الإمبراطورية القديمة ما زالت موجودة، مثل الإمبراطورية نفسها، رغم أنها تقلصت وتغيرت عما كانت في قرونها المجيدة إلى حد يصعب معه التعرف عليها. لم يعد أناسها من المحاربين القدامى الشجعان. بل أصبحوا مثلي ومثلك، خائفين مما قد يخبئه لهم المستقبل، ويجهدون هنا وهناك من أجل حياة أفضل. كانوا خائفين من غزو آخر وشيك من البرابرة القادمين لسلب ما تبقى من الثروة التي جمعتها مورا والأقاليم المجاورة لها على مر القرون، وهي ثروة جُلبت من كل أرجاء الإمبراطورية التي في قمة ذروتها، حكمت معظم العالم المعروف آنذاك. وبالفعل، فقد بقي الكثير من تلك الثروة. هذا ما تشهد عليه فخامة وجمال قصور وفيلات مورا المنتشرة هنا وهناك مثل طواويس مُسِنَّة لم تفقد تمامًا خيلاء الشباب.

السلطانة إيرين كانت تستمع للشاب مندهشة.

- كيف لا يزال هناك أناس يعيشون في مورا؟! لم أبصر قَط أن هذا الشيء يمكن أن يحدث.

أخبرها كيف بيعت أسرته لتاجر ثري في مورا، والذي بمجرد أن علم أنهم قادمون من الأراضي البعيدة خلف أرض النورمانديين، أعتقهم وتابع الاعتناء بهم من دون أن يتدخل كثيرًا في شؤونهم. في النهاية أصبحت أمه محظية لهذا الرجل. هذا ما فهمته الملكة من حديث ستيفنوس رغم أنه لم يَقُله بكلام صريح. أخبرها كيف قضى طفولته وشبابه في مورا، وأنه لبعض الوقت، كان يعتبر نفسه من مورا، فهو يجيد لغة وعادات الإمبراطورية، وفي نفس الوقت

كان يتعلم لغة وعادات أهله الكلاتونيين تحت إشراف أمه التي حرصت على نقل كل ما تعلمه عن بلدها لابنها.

- ولكن كيف لم يكتشف الراهب منسونيوس حقيقة من أنت؟

هز ستيفنوس من ناكور كتفيه قائلًا:

- منسونيوس أحمق.

كانت في نظرته وصوته نبرة ازدراء. نظر مباشرة في عينيها. هذه كانت المرة الأولى التي لم تصدقه فيها منذ فترة طويلة. شعرت بالريبة لأنها لا تعلم من أين أتاها ذلك اليقين بأن الشاب (إذا كنا سنواصل وصفه كذلك) كان يكذب. لماذا لم تفصح عن ذلك؟

- وماذا عن كبير الأساقفة أولاف؟

أجاب ستيفنوس مبتسمًا:

- ما زال يعتقد أن منسونيوس هو نفس الرجل الذي كان يعرفه. منذ متى؟ قبل خمسة عشر عامًا، وكل ما يقوله له الناسك، ينفذه على الفور. كم يبدو كبير أساقفتنا فظًّا وقاسيًا؟ ولكن كل مبتغاه أن يجد شخصًا قويًّا يُملي عليه الأوامر والآخر ينصاع له بعماء.

نظرت إليه إيرين بريبة:

- من يكون هذا؟

عندما لاكت السؤال في ذهنها شعرت لوهلة بقشعريرة تجتاح جميع أنحاء جسدها -قشعريرة برد لا علاقة لها بكونها عارية. كان ينظر إليها مبتسمًا كأنه يقرأ أفكارها.

سألته:

- إذن لماذا عدت؟

ذلك كان السؤال الوحيد الذي لم يُجِب عليه قَط، حتى عندما أعادت طرحه مرة أخرى بعد بضع ليالٍ.

- أنت إذن، حسب روايتك، شقيق نيريكو، ووالده والدك.

لكنه لم يُجِب. بدلًا عن ذلك، ظل يقص عليها أخبار مورا وكيف يعيش أهلها. بما أنها تقبلت حقيقة أن مورا ما زالت موجودة، فقد فتنتها حكاياته عنها. كانت تستمع إليه ليلة تلو الأخرى حول مورا والأراضي الواقعة بينها وبين كلاتونيا، وحول ما حل بها بعد انهيار إمبراطوريتها وفقدان سيطرتها على كلاتونيا، وما حدث خلال السنوات التي أصبحت فيها مورا نفسها هدفًا لهجمات البرابرة المتكررة حتى تحولت إلى بلدة صغيرة مقارنة بما كانت عليه في الماضي.

أحيانًا كانت حكايات الشاب تطول كثيرًا. في تلك الأثناء، كانت الملكة تسرح بعيدًا بعينيها من خلال الفتحات الصغيرة في غرفة نومها التي تشرف على أسوار القلعة في قمة سلافية، كانت تحدق نحو حافة التل المنخفض المكسو بالغابات حتى مشارف نورماندي، تراقب الضوء الرمادي ينتشر قادمًا من الشرق، في إشارة إلى أن عليه المغادرة.

في هذه الأثناء بدأت السلطانة تتلقى أنباء جيدة. كانت تقرأ الرسائل مع المستشار لوريس في قاعة المستشارية، حيث يلتقيان ظهرًا، وهو وقت يضايق إيرين لأنها بدت مريضة ولم تكن تشعر أنها على ما يرام. اتفقت مع لوريس على نشر الأخبار تدريجيًّا في سلافية وباقي البلدات الأخرى، علَّ تلك الأخبار ترفع الروح المعنوية بين الكلاتونيين التي انخفضت كثيرًا خلال الأشهر الماضية، فقد طال غياب السلطان نيريكو، ولا يبدو أن هناك مؤشرات على قرب عودته.

حقق كبير الأساقفة أولاف حلم حياته في أن يكون محاربًا شرسًا وبارعًا. توغل بتكتيكات حصيفة في أراضي النورمانديين، وكي يصل إلى السلطان نيريكو المحاصر، كان عليه أن يخوض ثلاث معارك ضد العدو في أوقات وأماكن اختارها هو، وليس خصومه. انتصر فيها كلها وبدأ يتقدم بسرعة أكبر نحو معسكر نيريكو، وفي أثناء زحفه، أخذ يجمع الرهائن من القبائل خشية أن يعلقوا بين قوتين؛ نيريكو والمحاربين المتبقين معه، وقوات كبير الأساقفة الذي يتقدم باستمرار. في غضون ذلك قرر النورمانديون توحيد قواتهم ضد

كتائب أولاف وسحقهم قبل أن يصلوا إلى الجيش الكلاتوني المحاصر. وهذا ما أراده أولاف بالضبط. وجده النورمانديون مستعدًّا لهم. في المعركة الحاسمة تشتت النورمانديون وهُزموا شر هزيمة. المشاهد في ساحة القتال في نهاية المعركة أشد فظاعة مما كان يخلفها السلطان توماس وهو في ذروته.

وسط فرح كبير التأم جيشا كلاتونيا معًا. كان أول ما فعله أولاف عندما واجه الملك وجهًا لوجه هو أن جثا على ركبتيه لتجديد الطاعة والولاء. وأول ما فعله نيريكو هو أن أَنْهَضَ أولاف، وعانقه بحرارة، ومن دون أي إحساس بالحرج، قال له بصوت مرتفع: «شكرًا جزيلًا».

في الأيام التي تلت، قامت قبائل النورمانديين، خشية من انتقام عنيف من المنتصرين، بإرسال مندوبين للتفاوض على إنهاء الحرب. جميع الأسرى الذين طالب بهم الكلاتونيون تم الإفراج عنهم من دون مماطلة، بالإضافة إلى سبائك الذهب وكميات كبيرة من الحديد بناء على نصيحة أولاف. أخيرًا تم التوقيع على معاهدة سلام، اتفاق ضمن سلسلة اتفاقيات غالبًا ما تم خرقها دائمًا عندما يشعر أحد الموقعين أن الوضع العسكري أو المادي قد تغير لصالحهم. بعد ذلك، أقفل جيش كلاتونيا المؤلف من قوات نيريكو وأولاف، عائدًا إلى سلافية.

كانت هذه هي الأخبار التي تم الإعلان عنها تدريجيًّا للناس بقرار من المجلس، حيث تجتمع السلطانة إيرين والمستشار لوريس. الآن الحماس في تزايد مضطرد لوصول قوات كلاتونيا المنتصرة إلى عاصمة البلاد.

وهكذا ذات صباح، قرب الفجر، عندما نهضت السلطانة إيرين من جانب عشيقها الذي كان يخبرها كيف خسرت الإمبراطورية منذ قرون طويلة جناحها الشرقي، حيث يعيش ملايين الأشخاص في مدن عملاقة تبدو سلافية مقارنة معها مجرد سقيفة، وهي مدن لم يسمع بها الكلاتونيون من قبل، عندما نظرت من فتحة حجرة النوم إلى الغابات حيث يبزغ لون الفجر الرمادي، لمحت ومضات من الضوء في البعيد، عرفتها في الحال. كانت انعكاسات

تروس الجنود العائدين بزهو، أو ربما انعكاسات لشروق الشمس من الجانب البعيد على خوذ طلائع الجيش الظافر الذي يقترب من سلافية.

* * *

عندما رن الهاتف في الحادية عشرة والنصف، لم يتوقع قَط أن تكون مورين. جاءته مكالمتها بعد أن أنهى بعض العمل والذي لسبب غريب، لأنه عادة لا يفعل ذلك، أحضره معه إلى المنزل كي يفرغ منه. غدًا سيكون متفرغًا لقضاء وقته في شيء يثير اهتمامه حقًّا.

تحدثت إليه بلهفة.

- هل يمكنني رؤيتك؟ لقد حدث شيء ما. يجب أن نتحدث على الفور.

- لكن الوقت قرابة منتصف الليل، ماذا حدث؟

بالأمس كانا معًا في أحد تلك اللقاءات التي أصبحت شبه روتينية، مرة في الشهر أو ربما أقل من ذلك، لتناول القهوة والدردشة، وكالعادة، دائمًا مبتسمة وتغيظه قائلة بأنه مؤخرًا أصبح يرتدي ملابس قبيحة وغير متناسقة، فيما هو سعيد برؤيتها وقلق في نفس الوقت لأن هذه اللقاءات السرية ستؤدي حتمًا إلى مزيد من المتاعب مع أخيه. بقيت تصر على أنها بحاجة إلى رؤيته فورًا وأخبرته أن يترك الباب مفتوحًا. أدرك أنها كانت ثملة جدًّا.

ما لبثت أن وصلت. يبدو أنها هاتفته من السيارة على مقربة من الشقة. كانت ترتدي البُني الفاتح كعادتها، سترة قصيرة وبنطالًا غائرًا في خصرها، كي تبدو أصغر سنًّا. طلبت منه على الفور بعض الويسكي. أفرغ لها كأسا من خزانة صغيرة بجوار التلفاز؛ اختطفتها من يده واجترعتها دفعة واحدة.

شعر بالقلق. كانت تنبعث منها رائحة السجائر والخمر.

سألها مرة أخرى:

- ماذا حدث؟

طلبت منه أن يسكب لها كأسًا أخرى -هذه المرة جعلها أثقل قليلًا، وفي نفس الخضم، سكب كأسًا لنفسه أيضًا- ارتمت على الأريكة وأشعلت سيجارة. ذهب فجلب منفضة للرماد. كان يخشى أن تسقط جمرة من

سيجارتها على السجادة الجديدة السميكة ذات اللون الأزرق الداكن التي كسا بها غرفة المعيشة. نادرًا ما فكر في تأثيث غرفة في هذه الشقة منذ أن جاء ليعيش هنا. لكنه مؤخرًا اضطر إلى ذلك كي يتمكن من استقبال نينا ومارجون اللذين كانا على وشك القدوم إلى منزله لأن دينيس ستسافر لمدة أسبوع. السجادة الزرقاء أضفت جمالًا على غرفة المعيشة يُشعِرك بالراحة، لا سيما وأنت تطأ وبرها المخملي بقدميك العاريتين.

- أليس من الأفضل أن تخبريني ماذا حدث؟

فتحت الحقيبة الصغيرة التي أحضرتها معها وأخرجت هاتفًا محمولًا، كان حجمه يعتبر صغيرًا في ذلك الوقت. في البداية لم يعرف ماذا كانت تقصد بالضبط.

- افتحه. واقرأ الرسائل بداخله.

من دون تفكير كثير، فعل ما قالته.

- افتحها واحدة تلو الأخرى واقرأها.

فعل ما قالت له، فتح الرسائل وقرأ رسالتين، ثلاثًا، ثم توقف.

- تابِع.

طلبت منه.

قرأ اثنتين أخريين ثم أطفأ الهاتف. سألت:

- لماذا فعلت ذلك؟

أجابها:

- هذا يكفي.

- هذا هاتف نيكي.

قالا لبعضهما معًا.

- جميل أليس كذلك؟

كانت الدموع تنهمر على خديها. أفرغت الويسكي الثاني.

سألها:

- كيف حصلتِ عليه؟

- وجدته مصادفة في درج منضدة غرفة المعيشة. نسيه وراءه قبل أن يغادر. كان في عجلة من أمره. لاحقًا اتصل بشأنه.

- وبماذا أخبرتِه؟

- تظاهرتُ بأني سأطلب من عاملة النظافة أن تبحث عنه وتضعه في مكتبه. أخبرته أنه سيجده في مكانه عندما يعود.

كاد أن يخبرها أنها تبالغ جدًّا في إبداء صدمتها، كأنها لم تكن تتوقع شيئًا كهذا. الرسائل التي أرسلها نيكي لعشيقته كان مبالغًا فيها من حيث التغزل فيما فعلاه بالتفصيل في الفراش. لقد كان خطأ نيكي لأنه لم يمسح تلك المراسلات. وما زاد الطين بلة أنه نسي الهاتف وراءه. ورغم أنه كان يفهم دوافع شقيقه، فإنه من وقت لآخر كان يعيد فتح الرسائل ويقرأها من جديد، كأنه يفعل ذلك لأول مرة، من أجل متعة التذكر. لكن مورين كانت مصدومة حقًّا لأنها لم تكن تتوقع قَط أن يواعد نيكي امرأة أخرى. رغم أنه كان يذكر هذا الشيء مرارًا في وجهها حول علاقته مع هذه وتلك، وبأن هذه الأشياء لم تعد شكوكًا تراودها، بل واقعًا عليها تقبله، وكل ما تستطيع فعله هو الانتقام منه بنفس الطريقة.

سألها:

- من هي؟

كان سؤالًا غبيًّا.

أجابته:

- لا أدري، ولا يهمني أن أعلم. ربما أنت تعلم من تكون وتسخر مني. أعطني كأسًا أخرى.

مرة أخرى، سكب ويسكي لكليهما.

أمضيا ساعة أخرى، يستمع إليها تدخن وتثرثر عن كيف وجدت هاتفه الخلوي، وكيف شعرت عندما قرأت الرسائل حول كيف كان يعاملها نيكي على مر السنين، وتحدثت عن كل جوانب حياتهم. لم تكن هذه هي المرة الأولى. عندما بدأت تصف كيف مارست الجنس مع نيكي لأول مرة أوقفها، لم

تستطع على ما يبدو فهم سبب قيامه بذلك؛ بعد ربع ساعة استأنفت نفس الشيء من جديد كأنه لم ينهَها عن ذلك. كان يوقفها لتعود بعد ربع ساعة من جديد. استمر في إيقافها، وإن أقل صرامة في كل مرة. جاهد كي لا يسألها ماذا كانت تفعل عندما كانت تخون نيكي. مما قالته له ذات مرة، استنتج أنها هي أيضًا مارست الجنس مع آخرين كما يفعل نيكي. كانت أعطته الانطباع بأنها كانت مغامرات سريعة وغير مهمة، مدفوعة بالطريقة التي يعاملها بها زوجها، ولكنها أيضًا أعطته الانطباع ذات مرة عن أنها تشك في أن ميشيل ليست ابنة نيكي، ولكن ربما ابنة شخص آخر أمضت معه ساعة مجنونة. كان يفكر في الأمر بينما يرتشف الويسكي بهدوء مصغيًا إليها تتحدث.

بمرور الوقت، شعر أنه يستعيد زمام نفسه. النعاس الذي كان يراوده عند وصولها تبخر، وبدأ يتخيل -أو تظاهر بأنه يتخيل- أنه كاتب يستمع إلى هذه المرأة الجميلة (لأنه بمرور الوقت، مورين، التي لم تكن تعجبه جدًّا، الآن في عينيه، أصبحت جميلة) وهي تحدثه عن عذاباتها. مورين أيضًا، رغم أنها كانت تفرط في شرب الويسكي وتدخن بلا توقف، يبدو أنها بمرور الوقت بدأت تستعيد هدوءها. بدأت تنسى سبب حضورها إلى منزله وبدأت تتحدث عن أشياء كانا قد تحدثا حولها أمس عندما التقيا في كافيتريا فندق «الفينيقيون»، وفي لقاءات أخرى سابقة. أحضر لها كأسًا أخرى. طلبت منه أن يجلس بجانبها على الأريكة ففعل.

كانت تنبعث منها رائحة الويسكي والتبغ. للحظة، زفيرها المخضب بالتبغ والكحول ضايقه. للحظة واحدة فقط. كانت مرتخية على الأريكة، ملابسها البنية توحي بأنها غادرت المنزل منذ وقت طويل. لكنها كانت تثيره، وكان يثيرها، منذ أن حضرت إلى منزله. عادت تتحدث بمرارة مرة أخرى، بكلمات متوترة، حول مدى صدمتها عندما فتحت هاتف نيكي المحمول وقرأت ما فيه، ثم بحركة مقصودة، حركت يدها ببطء ووضعت كأسها على منضدة في الجانب وبدأت تلامس وجهه وعنقه بأناملها.

كان بإمكانه إبعادها، لكنه لم يفعل. ربما شربا أكثر مما كانا يعتقدان. بدأ في تقبيلها وحل أزرار قميصها تحت السترة. للحظة ظن أن رائحة التيغ والويسكي ستقززه لكن على العكس من ذلك، بدأ يجدها مثيرة وتشعل فيه رغبة حارقة.

نزع أحدهما ملابس الآخر بعنف وتلاحما على الأرض، على السجادة ذات اللون الأزرق الغامق. بعد قرابة ساعة، نهضا وعانق أحدهما الآخر مرة أخرى.

قالت:

- من الأفضل أن أذهب. لقد تأخر الوقت. هل تريد أن نجرب ما فعلته تلك العاهرة مع نيكي؟

اقتراحها ألهبه. أدركت ذلك. دخلا غرفة النوم المجاورة. أخذا قيلولة صغيرة ثم أيقظها لتنفيذ اقتراحها. كلاهما كان ثملًا.

هكذا بدأت الخيانة، كما ظل نيكي يدعوها.

* * *

- 24 -

ألم

- هلو، دي بونو! هل عرفتني؟ كيف حالك؟

كيف ينسى ذلك الصوت القوي الصاخب حتى بعد كل تلك السنوات، حتى لو كان أقل صخبًا وربما مرتعش قليلًا عما كان في السابق؟

- بالطبع عرفتك، كيف لا؟! كيف حالك؟

- إيه، دعنا نقول لا بأس. أفضل كثيرًا مما يتمنون لي. سمعت أن أمورك تسير على ما يرام في قطاع الإسكان. ما زلت هناك، أليس كذلك؟

- أجل. لا أتذمر. العمل هو العمل بالنسبة لي.

- هيا، لا تلعب دور المسكين. لم يكن العمل على الرصيف سيئًا.

- صحيح. وكان بمقدوري زيادة سمرة وجهي في تلك الشمس!

- أوه، كنت دائمًا تعلم كيف تتدبر أمرك، كنت دائمًا شقيًّا ولكن بسلاسة!

ما زالت ضحكته قوية وصاخبة كما يتذكرها.

- اسمع دي بونو، هل تعلم لماذا اتصلت بك في وقت مبكر هذا الصباح؟ سأكون صريحًا. أحتاج إليك في شيء ولكن لا يمكنني القدوم إلى مكتبك. هل تحضر أنت؟

- حسنًا.

خيم الصمت على جانبي الخط لبعض الوقت، ربما لتحليل مدى سرعة وصدقية تلك الـ«حسنًا».

- هل يعاقبونك إذا زرتني؟

- لا، لا، لا تقلق. أخبرني متى.

اتفقا على أن يلتقيا بعد الغد، في التاسعة والنصف.

- من الأفضل في الصباح، لأنني غالبًا ما أكون مشغولًا بعد الحادية عشرة.

في اليوم والوقت المتفق عليهما، كان يرن الجرس الإلكتروني خارج البوابة المؤدية إلى منزل المَدحلة. على جانبي البوابة يمتد جدار منخفض

حتى زاوية بعيدة، ويستمر في الانعطاف إلى الداخل على طول جانبي الطريقين اللذين يفضيان إلى منزله بمحاذاة الشاطئ حيث الهواء الطلق. كان البحر أزرق وهادئًا وصافيًا في ذلك اليوم. لم يُجِبه أحد. قرع الجرس مرة أخرى، وفي أثناء قيامه بذلك، سمع خطوات خفيفة تقترب.

فتحت البوابة امرأة نحيفة، عيناها بنيتان كبيرتان. كانت ترتدي ثوبًا أزرق فاتحًا، أشبه بالزي الرسمي.

قال:

- متأسف لمعاودة قرع الجرس. للحظة ظننت أنني ارتكبت خطأ أو أن لا أحد هنا.

أجابته بابتسامة منحته بعض الشجاعة:

- لا تقلق. أنا وحدي هنا، لأن السيدة خرجت والخادمة في إجازة، ولا أدري كيف يعمل هاتف الباب. ادخل.

- لدي موعد مع...

- إنه في انتظارك. اتبعني.

عبرا فناء كبيرًا يبدأ من الجدار الخارجي حتى المنزل المبني على امتداد طريقين كليهما يفضي إلى الشاطئ. كانت تتناثر هنا وهناك رقع كبيرة من التربة مزروعة بالورد وأقماع ضخمة فيها أشجار حمضيات منتشرة حول الفناء الضخم. من البعيد سمع هديل حمام، وغناء طيور عديدة كأنها في عيد بهيج، كما سمع شدو يمام وصهيل خيول.

قال:

- المكان جميل هنا، كأنكم تقيمون في غابة وسط كل هذه الطيور التي تغني بسعادة.

أجابت المرأة:

- لا أدري إن كانت سعيدة حقًّا، هذه الطيور التي تسمعها خلف المنزل. المَدحلة يحتفظ بثلاثة أقفاص كبيرة هناك. لكنهم لم يعتنوا بها منذ فترة طويلة، منذ أن...

كلماتها أظهرت له من تكون؛ من يقول «المَدحلة» له ثلاثة أغراض: إما استخدام الكلمة لإظهار ازدرائه أو حتى خوفه، أو لإظهار الملل والسقم والقرف والخمول، أو لإبداء حماس حقيقي للرجل الذي حمل هذا اللقب منذ صغره ووضع نفسه في طليعة العمل السياسي في الحزب الذي كان عضوًا فيه. يعتقد الكثيرون أن شعبيته، بعد سنوات طويلة من الحملات بلا هوادة ضده وضد وحشيته وفساده، قد تضاءلت بشكل كبير بين من آمنوا به وبقدراته لفترة طويلة.

من خلال خبرته سمع أنجلو الكثير من القصص حول مدى قسوته ودهائه ووقاحته، وأن هناك من انضم لخصومه لإبراز عيوبه أمام الجمهور. لكنه يعلم أيضًا من خلال خبرته أن هناك الكثيرين ما زالوا يعتبرونه رجلًا صادقًا وحقيقيًّا. الطريف في الأمر أن معارضيه ومؤيديه استمروا في استخدام نفس اللقب على مر السنين -«المَدحلة»- ولمعرفة حقًّا ما يقصدون، عليك أن تصغي جيدًا كيف ينطقونها.

من طريقة كلامها، يبدو أن هذه المرأة النحيلة ذات الثوب الأزرق السماوي واحدة من أولئك الذين ظلوا أوفياء للمَدحلة بقدر ما بقي الآخرون يمقتونه. لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك بما أنها ترافقه عبر القاعة الخارجية للفيلا، وها هي تقوده بقرب عمود عريض بجانبه مصعد.

قال أنجلو مبتسمًا، فقد كانت البناية مكونة من طابقين فقط:

- كان بإمكاننا استخدام الدرج.

أجابته:

- عندما تستخدمه بشكل يومي، تعتاد عليه بلا إرادة.

تبعها إلى حجرة كبيرة يغمرها الضوء القادم من نافذة كبيرة تطل على البحر، الضوء باغت عينيه، بل كان هناك المزيد من الضوء المنسكب من نافذة أخرى عملاقة في الجدار الأيسر.

- أوه، دي بونو! أخيرًا وجدت المكان! تفضل.

جاء الصوت من منتصف النافذة الأمامية؛ الوزير السابق كان جالسًا خلف مائدة تحت النافذة لذلك لم يشاهده في البداية. اقترب منه وتصافحا. فيما بقي الآخر جالسًا، تلمع عيناه بشقاوة كما كانتا في السابق عندما يكون في مزاج جيد.

- ما زلت كما أنت. ماذا تقول لي؟ كيف حالك؟

- أنت أيضًا لم تتغير كثيرًا.

أجابه ولم يكن يكذب. لكنه عندما نظر إليه عن كثب بعد أن تعودت عيناه على الضوء الشديد المتدفق من النوافذ، والذي ترك ظلالًا كبيرة على وجه الوزير السابق، أدرك أن وجهه الصارم قد أصبح متهدلًا، وأن عينيه محمرتان، وثمة بقع داكنة على وجهه لم يكن قد شاهدها من قبل.

- اجلس اجلس.

كان هناك مقعدان جاهزان أمام المَدحلة. جلس في أحدهما.

- ولديك القهوة جاهزة، كل ما عليك صبها. الخادمة في إجازة اليوم.

لكن المرأة التي رافقته للأعلى سرعان ما تقدمت، وأمسكت بغلاية القهوة المعدنية التي تحتفظ بالحرارة، والمعدة على صينية عليها كوبان وطبق من البسكويت، وقالت:

- دعني أفعل ذلك.

- هذا ليس ضمن إطار وظيفتكِ كممرضة، لكن إن شئتِ يمكنكِ القيام بذلك.

سكبت لأنجلو. وسألته:

- هل تريد؟

أومأ برأسه موافقًا وتابعها بتمعن وهي تصب القهوة وتعيد الغلاية إلى مكانها. كان من الواضح أنه في انتظار مغادرتها، وهذا ما فعلته بمجرد انتهائها. أوصته وهي تغادر:

- إذا احتجت شيئًا اتصل بي، لا تحاول أن تجلبه بنفسك.

- إذن دي بونو. كيف حالك؟

قال بصوت جلي، لكن أنجلو لاحظ كم تغير هذا الصوت. لسبب غامض شعر أن الرجل ليس على ما يرام. في الماضي، كان واحدًا من القلائل ممن كانوا على استعداد للنظر مباشرة في عيني الوزير، متحديًا قسوته وجاهزًا كي يشتمه في حال قام بشتمه، لكنه اليوم لم يقوَ على التحديق في عينيه لأكثر من لحظات. كان طوال الوقت ينظر إلى تصميم غطاء المائدة باللونين الأحمر والأخضر، أشكال تشبه أوراق العنب ملتفة حول بعضها في دوائر فضية. داخل الحلقات وجوه، أحيانًا لمسنين ساخرين، وأحيانًا لشبان، وجميعها مأخوذة من وجوه تماثيل ومزهريات إغريقية قديمة.

تحدثا لبعض الوقت حول عمل أنجلو.

- لماذا لم ترغب قَط في ترك العمل مع الحكومة؟

- أشعر بالرضا حيث أنا.

أطلق الوزير السابق ضحكته الصاخبة لكنها سرعان ما تحشرجت.

- وأنت، ماذا تفعل الآن؟

باغته السؤال. ربما لم يتوقع ذلك. ارتبك للحظات وبدا أنه لا يدري ماذا سيقول. ثم:

- كما تراني، أنا متقاعد الآن، هذه سنة الحياة التي أصبحت رتيبة. دائمًا في هذه الحجرة، أمام ذلك التلفاز، وأفضل الأوقات لدي عندما تهب عاصفة كبيرة وتأتي الرياح من الأمام ويمتلئ البحر بالزبد والأمواج العالية. أحدق في البحر من النافذة، أمضي ساعات على هذه الحال. تلك أجمل أيامي. من المؤسف أنه لا تهب عواصف عاتية على شواطئنا.

أنجلو فرغ من شرب قهوته.

- هل ترغب في المزيد؟

سأله وهو ينظر إلى ركوة القهوة. وعندما أومأ أنجلو برأسه أنه اكتفى قال له:

- لا أريد أن أعطلك. لقد أرسلت في طلبك لأنني بحاجة إلى مساعدتك في قطاع الإسكان. لا أدري ما إذا كان بإمكانك مساعدتي. إن كنت مقيد اليدين

أخبرني على الفور كي لا أهدر وقتك ووقتي.

- يداي ليستا مقيدتين، ولكن يعتمد على ماذا تريد.

- إذن سأخبرك.

وبدأ يروي قصة امرأة اسمها ستيلا، والتي أمضت جل سنين حياتها، منذ أن كانت طفلة مع والدها، تعمل لديه، لكسب المزيد من الأصوات. لم يحظَ بأفضل منها تفانيًا على مر السنين. وكانت تفعل ذلك بصمت من دون أن تطلب منه أي خدمات في المقابل.

- لن تصدقني، لكن بقدر ما أذكر، لم تطلب مني معروفًا قَط. زوجها نعم، كان يحضر إلى مكتبي أحيانًا ليس من أجل الأسرة. ولكن من أجل قنص الطيور، كان يأتي إليَّ وهو يعلم أنني لا أطيق تحمل قتل هذه المخلوقات، ومما زاد الطين بلة، أنه كان من أقرب مساعدي. كانت تقول إنه لا يمكنها تزوج رجل من الحزب الآخر. أقسم إنني على مر السنين لم أضاجعها ولم أراودها عن نفسها، لا هي ولا ابنتها، ولم أحاول مجرد محاولة حتى. إذا كنت تعتقد ذلك، أو أي من زملائك الذين يعملون معك، فأنا مستعد لمواجهتكم. لكن، انظر ما حدث لاحقًا، انفصلت عن زوجها. يبدو أن اللعين قد عثر على أخرى أصغر سنًّا. ولا أدري كيف، أوكل محاميًا من الحزب الآخر وهو بصدد طرد زوجته من المنزل مع أبنائها الثلاثة كي يخلو له الجو مع عشيقته الجديدة. الأسبوع المقبل سترسل لها المحكمة إشعارًا بذلك. هذه أول مرة في كل السنوات التي رافقتني فيها تطلب مني شيئًا، وكما تعلم الآن، لا يمكنني مساعدتها. حاولت التحدث بلطف مع زوجها، لكن الزمن تغير. بالكاد تعرفت عليه من طريقة كلامه. أعتقد أنه التحق بالحزب الآخر، لا بد أن خليلته الجديدة كذلك، باختصار رفض التنازل، ولا أدري كيف حكم القانون لصالحه، هكذا أخبره المحامي. تحتاج ستيلا إلى مكان تعيش فيه مع أبنائها على وجه السرعة. ابنتها الكبرى ستبدأ الدراسة الجامعية في الشهر المقبل، ولا تدري ماذا ستفعل. هل يمكنك مساعدتها في إيجاد سكن حكومي؟

- هل تقدمت بطلب أم لا؟

حرك المَدحلة ذراعه ولأول مرة لاحظ أنجلو وجود ظرف بني كبير على المائدة أمامه.

- لقد تقدمت بطلب. كل شيء في هذا المغلف.

- سأرى ماذا يمكنني أن أفعل.

لاحظ الآخر على الفور ما يدور في رأس أنجلو من الطريقة البطيئة التي أجابه بها. قال له في الحال بوجه ممطوط:

- أعلم ماذا تقول في ذهنك، أنت تقول، لماذا لا أساعدها في العثور على شقة خاصة لتعيش فيها؟ لا تكن ساذجًا. إن قمت بهذا فسيدَّعي المحامي أن بيننا علاقة مريبة. لكني أقسم لك بأن لا شيء من هذا، وآخر ما أريده، هو أن أزيد متاعب هذه الأسرة. زوجها الحقير، وأقول حقيرًا رغم أنه كان صديقي، ربما تفهمني، قريبًا سيكتشف أنه ارتكب خطأ فادحًا وسيحاول لم الشمل مجددًا، لكني أشك في أنها ستوافق على أن تعود إليه الآن، على العموم هذا شأنها! اكتشفت أنه طوال تلك السنوات كان يضربها من دون سبب. وأنا كنت أظنه رجلًا طيبًا. على أي حال أكرر أن ذلك شأنهما. هي بحاجة الآن إلى مكان للإقامة في أسرع وقت ممكن. هل يمكنك فعل شيء أم لا؟

- سأنظر في أمرها على الفور.

- هل ستنظر من أجل أن تكون قد نظرت أم أنك...؟ اسمع، لا تتلاعب بي أنت أيضًا.

- قلت سأفعل ما بوسعي! هل هذا جيد؟

والآن أصبحت نظرة أنجلو غاضبة، وأخذ يحدق مباشرة في عيني الوزير السابق الذي هدأ على الفور. فجأة بدا متعبًا جدًّا.

قال المَدحلة بابتسامة خبيثة، ربما لإنقاذ ماء وجهه كرجل همجي وغليظ:

- إذن اتفقنا. لقد كنت ماكرًا على الدوام!

أنجلو لم يكن يعلم بماذا سيجيب. أنقذه في تلك اللحظة مجيء المرأة التي ترتدي الزي الأزرق. هرولت نحوهما، قالت:

- لقد حان الوقت مرة أخرى.

الوزير السابق انفجر بألفاظ بذيئة وشتائم. صاح بغضب:

- من قال لكِ أن تأتي؟

لكن أنجلو، الذي كان قد شاهده غاضبًا في مناسبات أخرى، اندهش من ضعفه وتراجع صحته، حتى وهو غاضب أو يتظاهر بذلك.

من جانبها، ظلت المرأة هادئة ووادعة.

- لقد حان الوقت للقيام بذلك. هل انتهيت أنت والمهندس المعماري؟

انفجر بالسباب والشتائم مجددًا:

- هل يمكن أن تخبريني من أخبركِ أن هذا الرجل مهندس معماري؟ هل أخبركِ هو أم اخترعتها أنتِ؟ ألا يمكنه أن يكون محاميًا أو كاتب عدل؟

تركته يستشيط بغضبه فيما سرح أنجلو في تفحص تصاميم غطاء المائدة. فجأة هدأ المَدحلة وضحك بوقاحة لا نظير لها، وقال بفجاجة كأن شيئًا لم يحدث:

- لقد أخَّرناك دي بونو، بالتأكيد سيكون هناك من سيشد أذنك بسبب تأخرك، كما كنت أفعل معك في السابق.

لم يَسَع أنجلو والمرأة النحيلة إلا أن يضحكا بمعيته. نهض أنجلو من مكانه وقال وهو يلتقط الظرف من على المائدة:

- سأبذل قصارى جهدي حيال هذا.

هز الوزير السابق رأسه وصافحه. حاول أنجلو الانحناء لمصافحته لكن الأخير تعب فجأة. بالكاد تمكن من إبقاء عينيه مفتوحتين. فجأة بدا أنه استيقظ وقد تذكر شيئًا.

- أردت أن أسألك قبل مغادرتك. لماذا سيرسلونك إلى قسم البيئة؟ هل أنت من طلب منهم ذلك؟

حدق فيه أنجلو.

- من أين جئت بهذا؟ لم أُبلِّغ بشيء من هذا.

- هذا ما سمعته، إذا كنت لا تعلم حقًّا، ولم تطلب ذلك، فمن يدري ماذا حدث. ربما اكتشفوا أنك أكثر قدرة على العطاء في مكان آخر. لا تنسَ ترتيب

شيء ما بسرعة لستيلا قبل أن ينقلوك من هناك.

خرج من الغرفة المضيئة برفقة الممرضة، نزلا من الدرج الدائري الذي يفضي إلى فناء جانب المنزل المرصوف برخام أبيض يلمع كالشمع، حتى داخل عروقه الرمادية.

عندما أوصلته حتى البوابة الخارجية، قالت:

- اعذرني لأني قاطعتكما، كان عليَّ أن أفعل ذلك لأنه حان وقت الحقنة التالية.

- وكيف حاله؟

- كل يومين نأخذه إلى المستشفى ويمضي خمس ساعات على الجهاز. نفعل ذلك لنقول إننا قمنا بذلك.

- لكنه يبدو جيدًا.

- إنه يعيش على المورفين، لكن سرعان ما سيعتاد عليه.

- هل هو متألم؟

قالت الممرضة وهي تصافحه وتفتح البوابة الخارجية:

- الألم أصبح جزءًا من حياته.

مشى لبعض الوقت على الرصيف بجانب البحر محدقًا في الشفق الذي رغم صحوة النهار، كان ملبدًا بسحب منخفضة خفيفة مثل الدخان.

- 25 -

حقيقة

عندما عاد إلى المنزل وجدها في المطبخ. كان هناك صمت مطبق. كان العصر في طريقه إلى الغروب، الشمس تبدو من النافذة المنخفضة بقربها وهي تنحدر نحو الأفق. في أثناء نزولها ألقت بحزمة من الضوء على دينيس، مما خلق هالة كبيرة من الخيوط اللامعة حول شعرها، فيما غاب وجهها في الظل. لم يتمكن بسبب الظل تحديد نوع نظرتها. كانت أمامها زجاجة خمر ونصف كوب من نفس السائل، والذي بدوره أيضًا، كان في مرمى حزمة الضوء، فأخذ نفس اللون المتلألئ كخيوط شعرها المتشابكة. أدرك على الفور أنها كانت في انتظاره.

سألها:

- أين الأولاد؟

سألته في نفس الوقت:

- كيف هي جلورما؟

ظلا يحدقان في بعضهما لبعض الوقت.

سألها:

- ما هذا الذي تشربينه؟

أجابت:

- ويسكي، هل تريد القليل؟ لكنك لم تخبرني بعد، كيف حال جلورما، أم ستخبرني بأنك منهمك في العمل على الرواية الجديدة؟ هل وجدت عنوانًا مناسبًا؟ قلت ماذا ستسميها؟

- كتابة على الجدار.

- لذلك كنت تذهب إلى شقة بير زبوجا بعد الظهر، من أجل العمل على الرواية؟ بالطبع، من سيفهم عنوانًا كهذا؟

- سنرى لاحقًا.

(بعد ذلك، أدركا حقيقة أن وقت المواجهة النهائية بينهما قد حان).

- ألا تخجل من نفسك؟ إلى متى ظننت أنك ستبقى تخدعنا؛ أنا والأولاد! لا يمكنك البقاء معهم بعد الظهر لأنه عليك الذهاب إلى شقة بير زبوجا للعمل على الرواية! وفي الحقيقة كنت تضاجع تلك العاهرة! وتسألني ماذا أشرب؟ كيف لا تخجل؟

أفرغت ما تبقى في الكوب دفعة واحدة في جوفها.

- ليست عاهرة.

- امرأة بتلك المواصفات قذرة وعاهرة وقمامة! أين عثرت عليها؟ وهل هذا هو بالضبط نوع النساء الذي يجذبك؟ بالطبع. لأنك قذر وخسيس مثلهن! هكذا كنت دائمًا، وهكذا ستبقى! ومع ذلك تحاول لعب دور القديس! قمامة.

سكبت لنفسها ويسكي آخر واحتفظت بالزجاجة بقربها، ربما لتعطي الانطباع بأن العرض الذي قدَّمته له لم يكن جادًّا.

قال لها:

- دينيس، توقفي عن الشرب.

- أشرب كما يحلو لي، هذا ليس من شأنك. هل ترى أين أوصلتني أيها الحقير! مثل عاهرتك تلك! أشرب كي أنسى فضيحتي في هذه الحياة! (فيما بعد أخبرته أنها بدأت تعاقر الخمر كي تأخذ هذا النزاع إلى نهايته). ألم تستطع العثور على امرأة أفضل منها لتخونني معها؟ بالطبع كان لديك الكثير، لكن الآن فاض الكيل. هذا يكفي، يكفي، يكفي! هل تفهم أيها الحقير؟!

لم يكن لديه أي شك أنها كانت غاضبة ومتعبة. لا بد أنها تتبعته في الأسابيع الأخيرة من دون أن ينتبه. فجأة اجتاحته موجة غضب عارم: كيف يمكنها إلقاء كل اللوم عليه الآن؟ هل نسيت كم كانت تهينه وتضايقه، وتملي عليه أوامرها وتتوعده وتعايره، تبهدله وتجعل حياته جحيمًا حيًّا، وتشي به لأصدقائه وكل من هو على استعداد لسماعها؟ كان يبدو ولدًا صغيرًا في علاقتهما، وكل ذلك لأنها كانت تكبره بثلاث سنوات، ولأن والدها أو جدها ترك لها مصلحة تجارية لا تهمه في شيء، وكان قد أخبرها بذلك منذ البداية، منذ أن تعارفا، لكنها ظلت

تصر على أن دماغه، حتى وإن كان جيدًا، فهو لا يساوي شيئًا، وأنه كان ينبغي عليه مساعدتها في المصلحة، بدلًا من تبديد حياته في مكاتب الحكومة مهمشًا من الجميع، بحجة أنه يتفرغ للكتابة، وكل بضع سنوات ينشر كتابًا لا يقرأه أو يشتريه أحد!

- أنتِ من تقولين لي بأني قمامة؟ أنا زبالة؟ وماذا عنكِ أنتِ؟ أردتِ أن تستعبديني منذ البداية، ولم تنجحي لأني لست كذلك! ظننتِ أني سأكون لقمة سائغة بين أسنانكِ! أردتني أن أكون غطاء لتجارتكِ؟ أنا لا أكترث لثروة أسرتكِ وتجارتها! كنت وما زلت في وضع مالي جيد ولم أحتَج إليكم قَط! لم أُعوِّل يومًا على أموالكم ولم تدخل في حساباتي قَط! بالإضافة إلى أنني لم أشأ أن أكون واجهة لرونالد!

- رونالد! وما علاقة رونالد بكل هذا أيها الخنزير؟

- بالطبع له علاقة! هل تظنين أنني كنت أعمى فيما تقحمين نساء أخريات في حياتي؟ تتظاهرين بأنه قريبك! هل اعتقدتِ أنني مغفل جدًّا لأنني لم أتفوه بشيء، أو أنني لا أملك عينين في وجهي ولا يمكنني استخدامهما؟

(بعد ذلك، أخبرها كيف يرى الحقيقة وأنه أقحم رولاند لأنه لم يستطع الدفاع عن نفسه بشأن جلورما. ليس لأن رولاند كان قديسًا، ربما لا يعلم عن ميوله الجنسية، ولكن بالنسبة للمال، لا يمكن الوثوق به. فقد كان بخيلًا وقميئًا وبلا رحمة؛ لا، لا يمكن الوثوق به كما تفعل دينيس، وكما فعلت دائمًا. ذلك شأنها. فهو أناني ومتعجرف جدًّا ويرى الآخرين ذبابًا، لكن في ذات الوقت يبدو أنهما قد توصلا إلى قرار لا مفر منه، إذ لم يعد بإمكانهما التعايش معًا، عليهما الانفصال إلى الأبد).

عند هذه النقطة اندلع الشجار. قالت له إنه أناني وحيوان. وهو لم يتردد في كيل نفس الشتائم بل أكثر. كل الإحباط الذي تكدس بداخله في الآونة الأخيرة وتركه منقطعًا عن الجميع، من دون أي هدف واضح لحياته -رغم أنه كان مستقرًّا، متزوجًا ولديه ولدان، ولديه وظيفة، حتى لو لم يكن راضيًا عنها، إلا أنها تكسبه ما يكفي من المال. جل ما أراد أن يفعل في حياته هو الكتابة،

فقط أراد أن يكتب، بعيدًا عن الجميع، لا سيما عنها، بعد أن بدأت تتصرف كأن الشياطين ركبتها- كل هذا الإحباط والاحتقان المفروض عليه... وها هي الفرصة التي طال انتظارها قد حانت أخيرًا، كي يهاجمها بأشد ما يمكنه من ألفاظ.

يبدو أنه قد نجح في استشاطة غضبها. رشقت ما تبقى في كأسها من الويسكي في وجهه. اختطف الزجاجة من على الطاولة ورشق ما تبقى من الويسكي عليها. قذفته بالكأس لكنه أخفض رأسه في الوقت المناسب. تحطمت الكأس على الحائط خلفه. بدآ بالصراخ والسباب وقذف بعضهما بكل ما طالت أيديهما. لحسن الحظ بدأت الشمس في الغروب، ورغم أنهما لم يتركا كأسًا أو زجاجًا أو لوحًا إلا وهشماه، فإنهما بالكاد تمكنا من إيذاء بعضهما، باستثناء أن دينيس انتهى بها الأمر بجرح كبير في يدها، وهو بنفخة ورضوض في رأسه.

في النهاية أوقفا هذا الجنون الذي امتد لفترة ليست قصيرة، هي انفجرت تصرخ وتنتحب بصوت مكتوم، فيما هو يسب ويلعن بلا هوادة. بدا أنهما منفصلان عن بقية العالم، وعالقان في رغبة تفريغ ما اختزناه على مر السنوات من ألم واشمئزاز وكراهية لبعضهما البعض. لقد انخرطا في الشجار لدرجة أنهما لم يسمعا جرس الباب الخارجي يدق مرتين، كانت مورين برفقة ابنتها ميشيل ونينا ومارجون حيث جاءت تعيدهما إلى المنزل بعد أن اصطحبتهما مع ميشيل.

أشعل أنجلو الضوء في المطبخ. حدقت مورين والأولاد في الحطام والزجاج المتناثر في كل مكان. تراجعت آخذة الأولاد معها كي لا يتعرضوا للأذى من جراء شظايا الزجاج المبعثرة على الأرض والمائدة والمقاعد وحتى فوق أسطوانة الغاز.

إذن ماذا كانت الحقيقة في ذلك الوقت؟ هل كانت كما فسراها لاحقًا بأن هذا ما قصداه، حتى قبل المشاجرة في المطبخ؛ أي أن الاثنين أرادا خلق عاصفة من شأنها أن تنهي العلاقة بينهما لأن هذه، حسب وجهة نظرهما،

أفضل طريق لهما؟ أم أن الحقيقة مختلفة؟ وأن ما حدث لأن الحنق والغضب تفجرا بقوة لم يتمكنا من السيطرة عليها، قوة عنيفة زلزلتهما وخلفتهما مصدومين من مقدار الكراهية والحقد الذي اختزناه في كل خلية من جسديهما على مر السنين؟

* * *

- 26 -

لاحقًا

لم يسعد بذلك ولكن لم يكن بوسعه فعل شيء. فقد حجزوا له من المكتب في وقت متأخر، لأنه بقي حتى النهاية غير متأكد مما إذا كان سيسافر أم لا. وصل إلى المطار متأخرًا حيث حضر معظم الركاب، وغالبيتهم من السائحين البريطانيين المسنين العائدين إلى بلادهم بحلول الربيع. جميعهم حرصوا على القدوم مبكرًا. انتهى به الأمر إلى قبول مقعد في نهاية الطائرة عند النافذة. كان قد ظل يخشى الركوب في مؤخرة الطائرة رغم مرور السنين. وقتها نيكي كان قد سخر منه، وعندما يفعلها شقيقك الصغير تشعر بالتحدي. في ذلك اليوم أيضًا لم يستطع فعل أي شيء سوى الشعور بالخوف طوال الرحلة، وقضم أظفاره، لم يأكل ولم يشرب شيئًا مما قدموه لهم على متن الطائرة، نيكي أكل حصة كليهما. جل المشكلة كانت لأنهم وضعوه في المؤخرة.

لأنه إذا حدث شيء ما وسقطت الطائرة، فإن أول ما يصطدم بالأرض أو البحر هو ذيل الطائرة. لا يمكنه تذكر أين قرأ هذا عندما كان صغيرًا -بالتأكيد ليس في ناشيونال جيوغرافيك، ولا في مجلة ريدرز دايجست التي كانت مجلة والده المفضلة. إذن كيف أدخلها في رأسه حتى قبل أن يركب طائرة؟ والآن بعد كل تلك السنوات، حتى بعد سفره مع نيكي إلى لندن لأول مرة، وها هو مرة أخرى بعد كل تلك السنوات على متن طائرة متجهة إلى نفس المكان، في رحلة قام بها عددًا لا يحصى من المرات، يجد نفسه متوترًا جدًّا، كأنه لم يسبق له ركوب طائرة من قبل.

وما زاد الطين بلة أن الطائرة كانت مكتظة. مما يعني أنه سيكون محشورًا من قبل شخصين آخرين قرب النافذة. ماذا إذا احتاج إلى استخدام المرحاض؟

الضيق الذي تخيله عندما كان طفلًا حين سافر لأول مرة، وكل ما عاناه خلال ركوبه الطائرات جميعها، بدأ يتقاطر في ذهنه بعد أن عم الهدوء وأخذ الركاب مقاعدهم على جانبي الطائرة، فيما شرعت المضيفات في إغلاق خزائن الحقائب في الأعلى. ضجيج إغلاق الخزانات زاد من ضيقه. تمنى لو قام بإلغاء الرحلة. كان بإمكانه التغيب عن هذا المؤتمر. فعلى المدى الطويل وبحكم الخبرة اكتشف أن المؤتمرات ما هي إلا مضيعة للوقت.

تشبث بنفسه، من كان يجلس بجانبه أو أمامه لم ينتبه أنه عالق في هذا الخوف الطفولي الذي انصب عليه بشكل غريب. اهتزت الطائرة وانطلقت بسرعة متزايدة فوق المدرج، وبدأت في الصعود نحو السحاب، ظل متجمدًا خوفًا. شاهد قرى وشواطئ مالطا تغرق في القاع. ثم دخلوا في رقعة كثيفة من السحب البيضاء كالصوف المغسول، وعندما خرجوا منها كانوا لا يزالون يرتفعون، ولم تعد الأرض ظاهرة. هنا بدأ يستعيد رشده. للحظة، كان مرعوبًا أن تقترب منه المضيفة وتسأله ما إذا كان على ما يرام، وهل هو بحاجة إلى شيء ما، لكن شيئًا من هذا لم يحدث. كل شيء كان يسير بسلاسة ونشاط.

الطائرة كانت حقًّا ممتلئة. كانت المقاعد بجانبه وخلفه وأمامه وعلى الجانب الآخر من الممر، حتى الصف الأخير الذي يكاد يلامس ذيل الطائرة، جميعها ممتلئة. الرجل الذي بجانبه غارق بلا أنفاس في مقعده، منكبه يلامس منكب أنجلو. نظر إليه من طرف عينيه. كان رجلًا نحيفًا، بل نحيلًا، يحدق أمامه مباشرة، شعره رمادي وملابسه رمادية، كان كله رماديًّا. وجهه يشي بأن المرض قد أرهقه أكثر مما فعل الزمن. وفي نفس طرفة العين التي كان خلالها ينظر إليه من الجانب، بدا له وجه الرجل مألوفًا بعض الشيء. بعد ذلك بقليل، بينما كان يُخرِج المجلة من جيب المقعد أمامه واضطر إلى أن يستدير قليلًا، التقت عيناه بعيني الرجل العجوز بجواره. الآن تعرف عليه على الفور.

- ريجو!

- ظننت أنك لم تعرفني، أو أنك لا ترغب في التحدث إليَّ.

- سامحني. عندما أركب الطائرات لا أكون على ما يرام.

قال ريجو كما لو كان يقرأ أفكار أنجلو:

- حتى لو لم تعرفني، فلن ألومك، لقد هرمت أسرع منك، لكنك أصغر مني بكثير.

قال أنجلو لمجرد أن يكون قد قال شيئًا:

- السنون تمر على الجميع.

لبرهة، لم يدريا ماذا سيقولان. متى كانت آخر مرة التقيا فيها؟ منذ سنوات، آخر حديث طويل دار بينهما كان خلال مسيرة فرقة النادي، بعدها التقيا مرة أو اثنتين على عجالة، إحداهما -إذا لم تَخُنه الذاكرة- في حفل زفاف، وقتها كان ريجو محاطًا بالضيوف. سلما على بعضهما وهذا كل شيء.

أدركا أنه لا يمكنهما البقاء صامتين لساعتين ونصف بجوار بعضهما، فذكر كل منهما سبب ذهابه إلى لندن. ريجو ظل متحفظًا في ما قاله:

- أنا ذاهب لزيارة ابني، إنه يعيش خارج لندن.

أنجلو لم يتردد في شرح أنه سيحضر مؤتمرًا يتعلق بوظيفته. قال ريجو بأول ابتسامة كبيرة على وجهه منذ أن تعرفا على بعضهما:

- أنت الآن في قسم البيئة، إن كان ما قد سمعته صحيحًا! لم تعد في دائرة الإسكان.

أجاب أنجلو:

- لست مستاء. ها هم قد فكروا في إرسالي للتدرب في هذا الشأن. فهل أقول لهم لا؟

قال ريجو ضاحكًا:

- هذا ما ينقصك، أن تقول لهم لا! اعتقدت أنهم سيحتفظون بك مسؤولًا عن المساكن حتى الأبد.

لماذا يشير إليهم بهم؟»، سأل أنجلو في قرارة نفسه. عادة كان يتحدث» كأحد صانعي القرار. لم يتمكن من طرح السؤال لأن المضيفين شرعوا في توزيع أطباق الإفطار التي تنبعث منها روائح نقانق معلبة ساخنة. بنوع من التحدي للتغلب على الغثيان الذي هيمن عليه إلى أن أصبحوا فوق السحاب

حيث كل ما يُمكن رؤيته عبر النافذة هو سماء زرقاء لا نهاية لها، قرر أنجلو أن يلتهم الطبق الذي أحضروه له، كله.

ريجو رفض وجبة الإفطار واكتفى بالقهوة فقط. سأل:

- هل أنت جائع؟

أجاب أنجلو:

- أعتقد ذلك، لست مثلك.

أومأ ريجو برأسه ولوى شفتيه النحيلتين:

- لا، أنا لا ألمس الطعام في الصباح.

سأل أنجلو وهو يقطع الخبز والنقانق الساخنة أمامه:

- إذن ما هي أخبارك؟ هل ما زلت في الوزارة؟

ريجو اقترب منه قليلًا ليتأكد مما إذا كان يحاول اصطياده. لكنه استنتج أن أنجلو لم يتذكره أو يذكره على مدى سنوات عديدة. من يدري إذا ما كان هذا الشيء قد ضايق ريجو؟ وهو الذي قضى سنوات طويلة في ظل السلطة، بكل ما منحته من مزايا أتاحت له أن يعلن نيابة عن الكبار ماذا يريد الآخرون من الآخرين وكيفية توزيع المحاباة. يمكنك من خلال حركات عضلات فكه الصغير، وهو يدلي برأيه حول ما يجب فعله أو عدم فعله، بينما يعلم تمامًا أنك تعلم أن كل ما سيخبرك به، قد لُقنه من قِبل «جهات عليا».

من المحتمل أن تكون المهارة التي تعلمها ريجو عبر السنوات المديدة من العمل في تمييز من هو جاد ومن يسخر منه، قد تضاءلت في السنوات الأخيرة. قرر أن أنجلو لا يحاول جر رجليه بالسؤال الذي طرحه عليه. قرر أن أنجلو لم يكن يعرف حقًّا ما آلت إليه أموره. لم يَدُر بخلده أن الآخر كان يعلم كل ما حدث له، لكنه أجل، يحاول اصطياده من أجل التعرف على التفاصيل بشكل أفضل. ربما كان في نظرة ريجو لأنجلو وهو يُدخل قطعة النقانق بالشوكة البلاستيكية بين شفتيه نوع من خيبة الأمل؛ كان يفضل لو أن أنجلو قد سمع بما حدث له بدلًا من أن يطبخه بهذه الطريقة. ذلك أفضل بكثير من عدم معرفة ما حل به.

- لقد تقاعدت. لا يمكن ألا تكون قد سمعت بهذا.

- من هو في منصبك يجب ألا يتقاعد أبدًا.

تعكر صفو وجه ريجو فجأة.

- إذن أخبرني ماذا تعلم عني أكثر مني.

لم يُجِب أنجلو. فيما كان المضيف يسكب له القهوة في الكوب البلاستيكي، بإشارة خفيفة من يده، طلب ريجو قهوة أخرى.

- لكن عذرًا، ألم يتمكن معالي وزيرك من ترتيب شيء ما لك قبل ذهابه؟

ازداد وجه ريجو تعكرًا. كان من الواضح أنه يحاول إخفاء مرارته، أراد أن يخنقها، بدا كأنه غيَّر رأيه في لحظة من الشك -كان أنجلو يثير حفيظته كي يتلقف ما يفلت من فمه، لسبر أسراره بشكل أفضل.

- القادمون الجدد يجلبون حاشيتهم معهم. هذه سنه السياسة! تبدو كأنك لا تفهم العالم. ثم أظن أن وزيري قد تمادى، أو نسي نفسه، أو أنه مل من الحياة. لم يُبدِ الاهتمام الكافي، اعتقدَ أنه باقٍ للأبد. وفي غضون ذلك، كان رفاقه أنفسهم يقوضونه في الدوائر الانتخابية. عندما لم يتم انتخابه، هو فقط من اندهش! فطالما أخبرته! لكني كنت كمن يصرخ في الصحراء لأنه لم يكن يستمع إلا لما يرغب في سماعه. كان الجميع يخبره بما يود سماعه وتركوني أغرد وحدي. لم يكن بمقدوري فعل أي شيء.

على مر السنين سمع أنجلو الكثير من هذه القصص، مع اختلافات بسيطة اعتمادًا على من الذي وقع في الشرك. أدرك أن ريجو لم يُجِب عن سؤاله بالكامل لكنه لم يَقُل شيئًا. تابع التهام ما بقي من النقانق بعد أن هدأت أعصابه واسترخى من الفزع الذي انتابه عندما دخل الطائرة. كانت الرحلة هادئة تمامًا ويبدو أنها ستبقى كذلك.

ريجو سأله عن الأولاد ثم تحدث عن ابنه. قال إنه يعمل كمحاسب في إنجلترا بعد أن التقى مع امرأة أيرلندية بعد فشل زواجه في مالطا. بالنسبة لريجو كانت بمثابة عصفورين بحجر واحد؛ زيارة ابنه، وفي نفس الوقت التجول في الريف البريطاني.

بعد أن فرغ من الإفطار ونسي ضيقه لأنه في مؤخرة الطائرة، أطلق العنان للسانه. تحدث عن الحياة التي يعيشها، والعمل في مجال البيئة، والأولاد. اكتشف أنه يتحدث عن نينا ومارجون، وكيف أن أداء مارجون رائع في شركة تكنولوجيا المعلومات التي أسسها، فقد سار على خطى أمه، وأصبح من أرباب العمل. تحدث عن مدى فخره لأن ابنه قد طلب منه أن يكتب له نصًّا كمدخل لحملة إعلانية سيتم إطلاقها لتقديم أنفسهم في الشركة كعملاء جدد في أوروبا. دخل في تفاصيل حول هذه القضية وأدرك فجأة أنه أطلق لسانه أكثر مما ينبغي: كيف انتهى به الأمر وهو يوضح لريجو الفكرة التي كان يعمل عليها منذ أسبوعين، مستعرضًا ما تقدمه شركة مارجون من مزايا جيدة مدرجة الواحدة تلو الأخرى أبجديًّا، كما هي الحال في القاموس.

قال ريجو وهو يهز كتفيه:

- لقد بقيت شغوفًا بالكتابة، هل تعلم، عندما كنت تخبرني في الماضي أن لا شيء يهمك سوى الكتابة فقط لم تكن تكذب.

- متى قلت لك ذلك؟

- لم تَقُل ذلك في كلمات، لكنني لست أحمق. أدركت أن الأمر لم يكن مجرد لا مبالاة.

- عماذا تتحدث؟

ضحك ريجو. فجأة اختفى اللون الرمادي من محياه، بدا كأنه عاد إلى الحياة وهو يفكر فيما سمعه للتو:

- الناس...

قال تقريبًا من تحت لسانه:

- كم هم مختلفون وفي ذات الوقت، متشابهون. هل تتذكر كم كنا نلهث خلفك لتساعدنا؟ لكنك لم تتعاون قَط. لم نستطع فهم السبب، لأنك في نفس الوقت، لم تكن في المعسكر الآخر. صحيح، كنت تقوم بالعمل الذي يكلفونك به، وكنت تقوم به جيدًا وبإخلاص في الوقت الذي كان بوسعك أن تخلق لهم الكثير من العقبات. ولكن لماذا لم تلتفت إلينا؟ -لم أستطع أنا ورفاقي فهم

ذلك! وبقيت على هذا النحو. حتى عندما انقلبت الصفحة، لم ترغب جماعتنا في التعامل معك. كانوا يعتبرونك خائنًا. حاولت إخبارك، لكنك مع ذلك لم تبادر لمساعدة الآخرين. بمرور الوقت أدركت أنه حتى هم لا يثقون بك، ربما لنفس السبب الذي ارتأيناه في الحزب.

قال أنجلو مصممًا على إيقاف النقاش لكبح انزعاجه، بل إنه بادر بالهجوم:

- لا أدري عم تتحدث. أنا لا أدري من أنتم وهم... وبمن تثقون حقًّا، أنتم وجهان لعملة واحدة. ها هم جماعتك قد وضعوك على الرف أيضًا!

- لقد هرمت ونالني التعب.

- لديهم مناصب عديدة للمسنين والمتعبين.

الشيء الغريب، أنه بدلًا من أن يدخل في قوقعته، كما فعل أنجلو لتوه، ريجو، الذي لم يعد رمادي الوجه، لاحت أصوات وأفكار وتعليقات جديدة في عينيه، معطية لونًا لوجنتيه، لم يتوانَ عن قول ما كان يدور في ذهنه:

- الجدد... الشبان الذين لا يعلمون ولا يكترثون بما حدث قبلهم، يعتقدون أن ما يفعلونه هو الصواب! وأن كل ما فعلناه قبلهم لا قيمة له. لديهم آلهة جديدة. ولكن ما العمل؟ هذه سُنة الحياة.

أنجلو لم ينوِ التراجع:

- ويعلمون جيدًا كيف يشوهونك.

أفلتت نظرة من جانب عيني ريجو اختصرت كل شيء.

الآن كان متيقنًا أن أنجلو كان يصطاده، لكنه لسبب ما، ظل مصرًّا على قول ما يدور في ذهنه.

- لقد وجدوا طريقة لإرباكي. رغم أنه بالنظر من خلال عدسة خارجية، كنت قد تعثرت بالفعل. تهورت خلف فتاة في منتصف عمري وتركتني زوجتي. استغلوا كل هذا ضدي! حتى الوزير الذي كنت في خدمته طوال ثلاثين عامًا، نأى بنفسه عني. طوال ثلاثين عامًا أغطي على فضائحه، وبعد ذلك عندما غادر، كل ما كان يهمه هو التخلص مني. قدمني للوزير الجديد ببضع كلمات

معدودة. لكن هذه هي الحياة. وأنت أيضًا، رغم أنك كنت بعيدًا عن السياسة، فقد وجدوا ما يشيعونه حولك.

- البلد صغير يا ريجو. صغير جدًّا.

بدا أنه لم يعد لديهما الكثير ليقولاه لبعضهما. كما أن الطائرة كانت تقترب من مطار هيثرو وكانت تشق السحاب في هبوطها. عادت مخاوف أنجلو من جديد لكونه في مؤخرة الطائرة. تمنى لو لم يتناول النقانق المعلبة الساخنة.

- 27 -

سيف

على صهوة جواده الأسود الكبير عبر الدوق السهل أسفل الجبل، حيث كان التقى داميان في أعلى التلة المنبسطة. كان يعلم ما الذي يبحث عنه، وكان يعلم ماذا أمامه؛ طريق تحتضنه جوانب التل ويصل حتى حافة الصخور المتراصة طبقة فوق طبقة، أحيانًا يضيق كأنه خندق، وأحيانًا يتسع على مدى النظر، وأحيانًا يبرز منعطف لا يسمح برؤية الطريق، ولا يمكن التنبؤ بما خلفه.

كلما صعدت إلى الأعلى ازداد عمق الهاوية للأسفل. الحصان الذي ركبه الدوق كان المفضل لديه، جواد من سلالة أصيلة، يحب سيده ويثق به. لكن خلال هذا الصعود الشاق، تململ الحيوان وشعر بالضيق، لأنه كان عليه التسلق بخطى قصيرة، مشعرًا راكبه أن عضلات فخذيه تصاب بالتشنج من وقت لآخر.

على الجانب الآخر من الفتحة، عند مدخل أحد الكهوف المحفورة في الجبل، شاهد العجوز داميان الدوق صاعدًا نحو قمة الهضبة المنبسطة. استدار الدوق على حصانه ودخل في عرض الهضبة. في موقعه حيث كان، لم يستطع داميان رؤية الدوق بعد ذلك.

بهره ضوء الشمس المنتشر على الساحة المنبسطة التي شيدتها الرياح على مر العصور. شعر الدوق بنسمة قوية تلفح وجهه. عندما تمكن من الرؤية جيدًا، تلفت حوله. كان ضوء الشمس يُغرِق المكان باستثناء مكان ضيق تحت سياج صخري على يمينه. ظهره إلى الجبل الكبير، وأمامه خلف الساحة المنبسطة، سلسلة من التلال الأصغر حجمًا تتسلق نحو الشفق على شكل عقد غامض. بدت التلة خالية من كل أشكال الحياة.

ترجل الدوق من على صهوة جواده مدركًا أنه سيبقى في انتظاره في نفس المكان. مشى نحو الحاجز الصخري في الظل. توقف أمام صرة معلقة على الجدار ملفوفة بقماش رمادي تشبه كرة مستديرة بحجم رأس رجل،

لونها عسلي أو ما يشبه غراء قديمًا، وفي الوسط حجرتان لعينين فارغتين، وأنف مكون من عظمة بها فتحتان، وخطان يشيران إلى شفتين كانتا مشدودتين إلى الداخل. كان جلد الرأس مشدودًا حول العينين والأنف.

- هل يمكنك رؤيتي؟

- أجل. عرفتك على الفور.

الصوت الذي صدر من ذلك الرأس المتلفع بالصرة كان رقيقًا وضعيفًا ولكنه حازم. سُمع واضحًا رغم هبوب الريح في هذا الجزء العلوي.

- ها نحن نلتقي مرة أخرى يا ستيفنوس من ناكور، رغم أن هذا ليس اسمك الحقيقي.

- هذا ما تنبأتَ به.

- لو لم تتحقق هذه النبوءة لما اختلف شيء. يقولون إنني قمت بالعديد من المعجزات، لكني لم أصدق أيًّا منها.

- كيف لم تصدق روايتي قَط؟

- لاحظت على الفور أنك قادم من مورا.

- وكنت تخدع كبير الأساقفة أولاف!

- لقد كان أداة قيمة، ولكنه فج جدًّا. أراد استرجاع حِكمة مورا القديمة، لكنه لم يفهم قَط أنه من أجل القيام بذلك لا يمكنك البقاء معزولًا في كلاتونيا. أداة قيمة أحيانًا قد تُلحِق بك الضرر. كنت أنا من زرع فكرة قيادة الحملة إلى مورا في ذهن تيليموس، لكنني عملت في الخفاء. قبل أن أكتشف ما الذي كان يحدث، كان أولاف قد شوَّه تيليموس، وحرض الملك ضده، وتآمر كي لا يبقى أمام تيليموس سوى الفرار إلى النورمانديين. لو كنت ساحرًا أو صانع معجزات كما يقولون، لما تركت مثل هذا الأمر يحدث. لا أعتقد أنك تبحث عن انتقام لا طائل منه بسبب إيرين.

هز الدوق كتفيه لا مباليًا. يعلم أن رفات أولاف يقبع في أحد الكهوف الجبلية. لكنه لن يكترث. في أواخر أيامه فقد الذاكرة، حتى حول من كان هو نفسه، أصبح أداة بائدة.

- رفات أولاف لا يهمني.

- ورفات السلطان نيريكو؟ هذا إن كان حقًّا قد قُتل في المعركة.

- سقط في المعركة الثانية. أصيب بجروح بالغة، لكن قتله سهم أصاب عينه اليمنى. لم نعثر على جثته بسبب الظلام. كانت جاثية في حافة الغابة. عثرت عليها امرأة من عامة الناس مع ثلاثة من رفاقها. ألبسوا جسد الملك ملابس جندي عادي وحملوه معهم. جنودنا ألقوا القبض عليهم وهم يجرون جثته في الغابة. قاموا على الفور بإعدام المرأة ومن كان معها وكان هذا خطأ فادحًا. حتى الآن لا ندري لماذا قاموا بذلك. أحرقنا جثة الملك مع الجثث التي تصادف وجودها في تلك المنطقة.

- المرأة كانت جلورما، المرأة الوحيدة التي أحبها نيريكو. كان قد جلبها معه كمحظية من أرض النورمانديين. كانت ابنة فلاح كلاتوني، سُبيت من نورماندیا.

- هذا ما كنت أظنه، لكن أحدًا لم يستطع تأكيد شكوكي.

سأل الصوت الضعيف المنبثق من الصرة الرمادية الكروية بلون العسل الجاف:

- وهل هذا سبب مجيئك إلى هنا؟ لتأكيد شكوكك؟

- لا منسونيوس. أنت كنت في انتظاري وها قد جئت، ربما للتحقق من شيء آخر.

- هذه الإبادة التي تقوم بها ضد جميع أفراد أسرة الملك والنبلاء، لماذا؟ انتقامًا لإيرين؟

- عليهم أن يموتوا جميعًا. تعلم ما هو السبب.

- لكني لم أشأ أن يحدث هذا قَط.

- أنا مصغٍ.

- الحكمة، وكل كتب مورا وكل ما كان فيها من معلومات وذكريات وأفكار، دمرتها العائلات النبيلة.

- مجزرة الرهبان التي وقعت في الماضي لم يكونوا هم من ارتكبها. بل النورمانديون.

صدرت ضحكة خفيفة من الصرة أسفل قدمي الدوق المثقل بمعدات القتال. كان يمكن سماعها رغم صفير الرياح الخافت الذي يتأرجح من حولهما.

- الهجوم الذي وقعت فيه المجزرة، وهدم وحرق الأديرة التي كان لدينا فيها كل ذكريات وحكمة مورا. كلها حدثت بموافقة نبلاء كلاتونيا، بالتآمر مع النورمانديين. شعر نبلاء كلاتونيا أن تلك الحكمة والذكريات ستكون عقبة، وستجعل عبيدهم يتمردون عليهم، وبالتالي قرروا تدمير كل شيء. لم يشأ الكلاتونيون أن يؤمنوا بعالم آخر خارج عالمهم. لفترة طويلة، كانت لديهم اتفاقيات سرية بحيث يساعدهم النورمانديون عند الحاجة على التخلص من كل ما يزعجهم في كلاتونيا. في النهاية، تمكن السلطان توماس من القضاء على الخونة، ولكن بعد فوات الأوان. بعد تدمير الأديرة والمكتبات في الإمبراطورية، وبعد مرور السنين، عندما تلاشت الذكريات، بدأ البعض يدرك أننا فقدنا كنوزًا كبيرة وأننا أصبحنا أمة بلا ماضٍ ولا مستقبل. ثم توالت القرون حتى ضاعت هذه المعرفة. كنت أول من كرس حياته لاستعادة تلك المعرفة المفقودة.

- لم تكن قاسيًا بما فيه الكفاية.

- أنا ناسك مسالم. لم أقتل قَط رجلًا في حياتي.

- لقد كنت أقوى من الكثيرين. كان بإمكانك إنقاذ إيرين.

- كم أنت مخطئ! لقد كنت في أشد أوقاتي ضعفًا. كما أن إيرين، تحت التعذيب، اعترفت بكل ما حدث. ترأس أولاف جلسات التعذيب التي انهارت تحتها، ولإنقاذ الملك، حسب قوله، وعد بأن يُبقي كل ما سيسمعه سرًّا عن الجمهور حتى النهاية، وهذا ما حدث. لقد رتب للقضاة والزبانية الذين كانوا يشاركونه حفلات التعذيب، أن يتم إبعادهم بهدوء. جميعهم قُتلوا. ثم أصيب أولاف بمرض غريب محا كل ذكرى من ذهنه، والطريقة التي مات بها كانت عقابًا له لمحاولته طمس قصة إيرين الحقيقية.

لأول مرة منذ أن غادر سلافية، وفيما كان الراهب يتحدث، بدأ وجه ستيفنوس من ناكور المضاء بأشعة الشمس الفاترة التي تغمر التل، يمتقع ويمتلئ بالتجاعيد وكأنها علامات على ما يختزنه من ألم. ثم فجأة بدا أنه رجل عجوز، ربما أكبر بكثير من الناسك القابع تحته! لكن سرعان ما هدأ غضبه. لا بد أن الرأس المستدير داخل الصرة تحته كان يراقبه باهتمام لأنه بمجرد أن عاد الدوق إلى رشده، تابع بصوته الخفيض:

- وماذا الآن؟ ما الذي تنوون فعله بكلاتونيا؟ لقد قتلتم السلطان والنبلاء وعائلاتهم. فماذا بعد؟

أجاب ستيفنوس من ناكور ببرودة:

- قواتي بحاجة إلى الراحة. سنُمضي الشتاء في سلافية ونضم إلى جيشنا ما تبقى من مقاتلي نيريكو الواعدين. سندربهم على فنون القتال التي تعلمناها في شن الحروب، وبحلول الربيع، سنغزو النورمانديين. هذه المرة لن نلعب لعبة الكر والفر، بل سنقضي عليهم مرة واحدة وإلى الأبد. سنقتل الرجال أو نستعبدهم، حتى كبار السن، أما النساء الجميلات فسوف نسبيهن مع أولادهن. ونجلبهم كأسرى لإصلاح طرق الإمبراطورية القديمة وتشييد طرق جديدة، لربط نورماندي بهذه الأرض، وبذلك ننشئ كلاتونيا جديدة وكبيرة، بعد ضم أرض النورمانديين إلى أراضينا. سننشئ أمة جديدة، مكونة من الفرسان والمحاربين الذين أحضرتهم معي من مورا، بالإضافة إلى الكلاتونيين والنورمانديين بعد إعادة تأهيلهم. هذا ما كان يفعله قادة مورا المنتصرة في الماضي، وهو ما سنفعله من الآن فصاعدًا.

ساد الصمت لبرهة ولم يُسمع سوى صفير الريح. ثم قال الصوت الخفيض بصرخة مكتومة:

- سوف تُستخدم أسوأ أدوات مورا، وتُسقط العدالة التي كانت جزءًا أصيلًا من تقاليدها.

- الدول لا تُقام من دون إراقة دماء، بل دماء كثيرة. هذا ما يحدث الآن في بيت المقدس.

- بيت المقدس؟

- لقد زحف جيش كبير من المقاتلين إلى بيت المقدس، كالجيش الذي أتيت به إلى هنا. هم أيضًا انطلقوا من مورا، وبعد أن تغلبوا على حكام تلك المدينة المقدسة، أقاموا مملكة جديدة.

- بيت المقدس!

سأل منسونيوس مستغربًا. ساد الصمت للحظات:

- وهل بيت المقدس موجود حقًّا؟

- تمامًا مثل مورا. محاربونا استولوا عليه وجعلوه مملكة لهم.

تحرك الرأس ببطء داخل الصرة. كانت المرة الوحيدة التي يتحرك فيها منذ أن التقيا.

- لقد علمت ما يكفي. عليَّ الذهاب.

ظل ستيفنوس من ناكور صامتًا.

- ساعدني في الرحيل. امتشق السيف كما فعلت في الأسابيع الأخيرة.

أومأ الدوق برأسه.

- لماذا لا تساعدني؟

- أنا جندي محارب أيها الراهب، ولست قاطع رؤوس.

- اسحب سيفك من غمده، دعني أشاهد نصله على الأقل.

امتشق الدوق سيفه. دبت الحياة في العينين داخل الصرة المكورة بلون العسل.

- النصل حاد كما ينبغي على كلا الجانبين.

- لقد أبلى حسنًا في الأيام الأخيرة.

- اصنع لي معروفًا أخيرًا. ضع السيف فوق رأسي في الحفرة وغادر، اذهب لتناول الطعام مع رفاقك في الكهوف المجاورة قبل أن تعودوا إلى سلافية.

أخبر داميان أن ينظف السيف ويعيده لك لاحقًا. هلا فعلت هذا من أجلي؟

في الأيام والأسابيع والأشهر والسنوات الأخيرة، تصرف ستيفنوس من ناكور مثل شيطان يمتلك السرعة والإرادة في كل ما يفعله، ولم يساوره

أدنى شك فيما يفعله. لكن في هذه اللحظة، وجد نفسه مترددًا. حدق في الصرة تحته.

- ألا تمنحني هذه الخدمة الأخيرة؟

ترجل الدوق وغرز السيف في أعلى الحفرة فوق الرجل العجوز، تركه مغروزًا فوق فوهة الحفرة، على بُعد قدمين من رأس الناسك المغطى بلفائف رمادية. ثم نهض من دون أن ينبس ببنت شفة، امتطى جواده ونزل عن الهضبة.

انتظر منسونيوس حتى هدأت الرياح وغاب الفارس تمامًا.

لعوب

عندما دخل الحانة عبر الطرقات المزينة بأضواء أعياد الميلاد، كاد أن يصطدم بامرأتين خارجتين من بين الموائد المزدحمة. «إيرين!».

كان قد لمحها قبل أن تراه وهي تحدق إليه بابتسامتها الشقية التي ظلت كما يذكرها. توقفت أمامه وقالت:

- يا لها من مصادفة! لقد ذكرناك في العمل أمس.

- لا بد في سياق سيئ.

قال وهو يراقبها مبتسمًا، فيما بطرف عينه، لاحظ أن المرأة الأخرى تنظر إليه بريبة وبنفاد صبر، لا بد أنها شقيقتها. لهما نفس العنق الطويل ونفس استدارة الخدين تحت العينين، وكلتاهما ترتديان معطفًا طويلًا وأنيقًا. إيرين، مبتسمة وفضولية، أطلقت لسانها في الحال عما حدث خلال السنوات الماضية وماذا كانتا تفعلان ذلك الصباح.

- ماذا توقعت؟ لعوب مثلك! ولكن هذه المرة ذكرناك بالخير، لقد امتدحتك في الواقع وقلت هل هذا أنجلو الذي كنت أعرفه مرة...؟

- ماذا تفعلان هنا اليوم، تتسوقان لعيد الميلاد؟ أنا في انتظار أخي، سيصطحبني إلى حفلة مع أصدقائه.

- وبالطبع أنت فارس الحفلات. أجل، جئنا للتسوق في النزع الأخير؛ بعض الملابس والهدايا. في الواقع أنا لا أشتري الهدايا من المتاجر، بل من الإنترنت.

لقد اشترينا كل ما يلزمنا باستثناء ثوب في هذا المتجر أمامنا، إن كان لا يزال موجودًا. بعدها سنعود إلى المنزل.

- إذن دعيني أقدم لكما مشروبًا قبل أن تغادرا.

كانوا قد توقفوا في خضم زحام الزبائن الداخلين والخارجين من المتجر مما جعلهم يتحدثون بصوت مرتفع. ابتسمت الأخت مرتبكة.

- لقد تأخر الوقت. لن ندوم طويلًا. يمكننا الجلوس على البار.

وافقت إيرين على الفور.

- المتاجر تبقى مفتوحة اليوم!

- لكن قد يطير الثوب.

- أين هو؟

- في المحل المقابل.

- انتظريني هنا، سأذهب للتحقق إن كان ما زال معروضًا.

- ولكن أنا من تود شراءه.

اتفقتا أن تبقى إيرين مع أنجلو لتناول مشروب بينما تذهب الأخت لمطاردة الثوب. تركتهما في عجالة فيما أخذا بشق طريقهما نحو البار عبر صفوف الزبائن بين الموائد.

- هل ما زلتِ تشربين الروم بالكولا؟

- أجل، وأنت ويسكي بالثلج؟

- شقيقتكِ هذه... هل هي من كانت تتجسس عليكِ؟

ضحكت.

- لا. ما زلت تذكر؟ إنها أختي التي تليني في الترتيب!

- كم عددكن إذن؟

- أربعة، جميعنا جميلات.

ضحكا. النادل في البار خدمهم على الفور.

- أنت لم تتغير كثيرًا.

- ولا أنتِ.

قالت بتلك الابتسامة الشقية:

- أحاول جر قدميك ليس إلا.

- أما أنا فلا.

تحدثا عن الأبناء. عن أولادها في الجامعة... كم يمر الوقت سريعًا!

- وكيف حال زوجكِ؟ هل ما زلتما معًا؟

- اسكت، لا تذكره. هل ظننت أنه سيهجرني؟ لا، دائمًا كنت أخشى أن أهجره أنا. كنت أشفق عليه، هل تفهمني؟

ضحكا مرة أخرى.

- ومع من تعيش الآن؟

- أعيش بمفردي!

- لا أصدقك.

- حسنًا، أعيش مع نفسي.

- وما الجديد في ذلك، أنت دائمًا متقوقع على ذاتك.

كان هناك ألم دفين في حديثها، رغم ابتسامتها المشاغبة.

- السنوات تمر بسرعة. على الجميع أن...

- بالتأكيد على الجميع...

- ولكن كيف نلتقي دائمًا مصادفة في أعياد الميلاد؟

هذه المرة بدلًا من اتساع ابتسامتها، أصبحت أكثر جدية وانكمشت داخل معطف الفرو الثمين الذي كانت ترتديه.

وجهها المستدير المزين بعناية تغير قليلًا، أصبح نحيفًا، سيما حول شفتيها. المعطف المفتوح أتاح له استراق النظر إلى عنقها، لم يكن أكثر تجعدًا مما يذكره ولكن لون الجلد كان أقل نضارة، ما لم يكن يتوهم بخبث عن قصد، كي لا ينجرف كثيرًا في الحنين إلى الماضي. تحت المعطف المفتوح، كانت ترتدي ثوبًا بتصاميم رائعة، يبدو أنه من قماش ناعم يعكس بياضًا باهرًا. هل هناك حقًّا تجاعيد رفيعة حول شفتيها؟ هل كانت تجاعيد أم ظلال مساحيق التجميل؟

- هل ستأخذين كأسًا أخرى بالكولا؟

- لا، هذا يكفي. المكان مزدحم جدًّا.

أحدهم اصطدم بها وهو قادم من البار، فكان عليها أن تستدير كي تتحاشاه. بدأت تنظر إلى الخارج.

- إنه العيد، العيد في كل مكان. لا شيء أجمل من عيد الميلاد.

- هل تؤمنين به؟!

- أجل أجل. ها هي قد عادت.

ظهرت شقيقتها في عتبة المقهى وبدت عليها علامات خيبة الأمل. لقد اختفى الثوب. المسكينة!

- هل أقدم لها شرابًا؟

- هي لا تشرب أبدًا.

- هذا سيئ.

دنت منه ودعته يقبلها على خدها، ثم ودَّعته وسارعت للانضمام إلى أختها وهي تقفل أزرار معطفها استعدادًا للبرودة في الخارج.

لحسن الحظ، تناقص الزبائن في المتجر لبرهة، مما مكنه من طلب ويسكي آخر والجلوس إلى مائدة صغيرة بقرب النافذة. رغم الزحام والضجيج في الداخل والخارج، كان يمكن سماع أناشيد عيد الميلاد عبر مكبرات الصوت قادمة من الساحة الكبيرة القريبة. جاء زبائن جدد يحملون ملابس وهدايا في أكياس بلاستيكية. لم يكن لديه أدنى شك في أن نيكي سيصل في الوقت المحدد، لأن حفلة اليوم كانت من البداية إلى النهاية من بنات أفكاره. بالإضافة إلى إصراره على أن ليونورا ورفيقها يرغبان في التعرف عليه. ليونورا رغبت في طرح بعض الأسئلة عليه لأنها قرأت بعض رواياته، وكانت فرصة لدعوته إلى حفلة عيد الميلاد التي يقيمانها في فيلتهم الفاخرة في الفوارة... كوكتيلات وحلويات... الدعوة بدت له غريبة بعض الشيء لكنه لم يستطع أن يتملص تحت إلحاح نيكي. في وقت لاحق علم أن أبناء ليونورا يديرون وكالة سفر تجلب السفن السياحية إلى مالطا ويتعاملون كثيرًا مع نيكي.

قال:

- هكذا إذن!

أجابه نيكي بابتسامة خبيثة:

لا، ليس لهذا. لقد قاموا بدعوتي حقًّا لكنهم أصروا بشدة على أن أحضرك معي. لقد أخبرتك مرارًا، ليونورا تود مقابلتك!

نيكي حضر متأخرًا خمس دقائق.

- كيف هذا؟

- ماذا تقصد؟

- بما أنك حضرت في الوقت المحدد، يمكننا أخذ ويسكي هنا. لكن أين أوقفت سيارتك؟

- حسنًا ولكن على عجل. لدي صديق يعتني بالسيارة خلف الزاوية. سأجلب الويسكي أنا.

وهذا ما فعله لأنه لم يسمح لأنجلو بالنهوض. كان مبتسمًا، ملفوح الوجه كأنه عائد لتوه من رحلة صيفية، عيناه تلمعان، وشعره الرمادي الطويل يتأرجح حتى عنقه مع كل إيماءة. كأس الويسكي لن تكون الأولى هذا اليوم.

- هل الجميع بخير؟

- الجميع بخير، وأنتم؟

نظر نيكي حوله باهتمام كبير، كأنه في إجازة غير متوقعة.

- يعجبني عيد الميلاد.

- هذا ما قلته لإيرين منذ قليل، أنا وأنت دائمًا أحببنا عيد الميلاد.

- من هي إيرين؟

- كنت قد عرفتك عليها منذ وقت طويل. ولكن لماذا بقينا أنا وأنت نحب عيد الميلاد، حتى بعد أن هرمنا؟

- أنت من هرم. ربما لأنه عندما كنا صغارًا، لم نستمتع به بقدر ما شئنا.

فجأة شاب نظرة نيكي الفَرِحة بعض القلق.

- من الأفضل أن نسرع، وإلا سيكون صديقي والسيارة في ورطة.

شربا ونهضا على عجل.

خلف زاوية الحانة كانت تنتظرهم سيارة رياضية جديدة متوقفة تقريبًا على الرصيف. كان يحرسها عامل البلدية الذي هرول نحو نيكي بمجرد أن شاهدهما. أدخل نيكي يده في جيب معطفه وأخرج بعض النقود ودسها في يد الحارس الذي تمنى لهما عيدًا طيبًا، وجرى لإيقاف السيارات الأخرى كي يتسنى لهما الخروج بهدوء. اندفعا داخل السيارة لأن الطقس كان باردًا جدًّا رغم الكحول الذي تناولاه، ربما لأنهما غادرا الحانة من دون أن يغلقا معطفيهما. سرعان ما تلاشت ترانيم عيد الميلاد التي كانت تبث في الساحات والطرقات. قادا السيارة خارج العاصمة. كانت الطرق مزدحمة، فيما اندفعت جموع الناس عبر الأرصفة.

سأل أنجلو:

- ماذا قصدت بقولك إننا لم نكن نستمتع بعيد الميلاد كما نشاء؟

أجاب نيكي:

- دائمًا كان هناك شيء ما أردناه أو تمنيناه، وتُركنا من دونه، تارة لأن الهدية لم تعجبنا وتارة لأنهم ظنوا أننا سنفرح بها، معتقدين أنهم يعلمون ما يُبهجنا أكثر منا.

فيما كان يتحدث، ظل مبتسمًا وهو يحرك عجلة القيادة على إيقاع موسيقى آمي واينهاوس الصادر من قرص مضغوط في مسجل السيارة.

- ولا أدري لماذا كنا دائمًا نقترف حماقة ما كبيرة في عيد الميلاد وكنا نتلقى على إثرها توبيخًا هائلًا.

- فعلا.

قال نيكي ضاحكًا:

- هل تذكر مغامرة الثلاجة عشية عيد الميلاد؟

- أي ثلاجة؟

- لا تقل بأنك نسيتها؟ كانت حدثًا كبيرًا.

نيكي لم يصدق أن أنجلو لم يفهم ما يقصده.

- كنت تروي لي وقتها عن سجون كلاتونيا الباردة والمظلمة، حيث يرسلون العابثين، وأن الضوء لا يدخل تلك الزنازين إلا مرة واحدة عند فتحها، كما يحدث في الثلاجة. لا تقل بأنك نسيت؟ كنت أظن أن المصباح يبقى مضاءً بعد إغلاق الثلاجة. لكنك كنت تصر على أنه ينطفئ ولم أتمكن قَط من فهم كيف يحدث هذا.

أنجلو استغرب لأنه لم يستطع تذكر هذه الحادثة. أو بالأحرى، كانت لديه ذاكرة خافتة حول ما كان يقول نيكي لدرجة أنه ظن أن كل ذلك حدث في كتاب قرأه منذ زمن طويل ولم يحدث حقيقة في الواقع.

- كنا قد أفرغنا الثلاجة من كل شيء. ألا تتذكر ذلك؟ أخرجنا الحلويات والأطعمة المعدة لعيد الميلاد، ثم أزحنا الأرفف. أنت كنت أكبر من أن تدخل في الثلاجة لكني تمكنت من ذلك، ثم أغلقت الباب خلفي. شعرت ببرد شديد لكنك كنت على حق؛ بمجرد أن أغلقت الباب انطفأ المصباح الكهربائي وشعرت أني كنت في إحدى زنازين سجون كلاتونيا، كما وصفتها تمامًا. أصبت بالذعر وبدأت بطرق الباب لكنك، ربما لإخافتي، لم تفتحه. لكن أحدهم جاء فجأة وحاولنا إعادة كل شيء داخل الثلاجة. كنا قد أسقطنا شيئًا وتهشم. حاولت أن تتنصل مما حدث لكنا عوقبنا كلانا.

- هذه فرية أنني حاولت التنصل!

كلاهما كان يعلم أنها لم تكن فرية، لأنه كلما نشب شجار بينهما، كان أنجلو يحتج صارخًا. وهذه لا تزال مصدر شكوى نيكي بشأن شقيقه حتى يومنا هذا، كأنهما ما زالا ولدين صغيرين ولم يدخلا على مر السنين في نزاعات مريرة مختلفة تمامًا عن خلافاتهما عندما كانا صغيرين ووحيدين في المنزل بمفردهما.

في النهاية خرجا من زحمة المرور وبدأ نيكي يقود بسرعة أكبر. انطلقا مسرعين عبر الوادي الذي يؤدي إلى بلدة السجيوي، حيث كل شيء من السماء حتى الأرض صامت ورمادي، والبرودة تسربل المكان لا سيما في المناطق المفتوحة كهذه.

- قل لي مرة أخرى إلى أين نحن ذاهبان؟

- إلى فيلا ليونورا وسيرجي، شريكها. دائمًا يقيمان حفلة في مثل هذا الوقت من العام. لن تشعر بالملل. يمكنك العثور على أحد المدعوين المثيرين للاهتمام.

- ولكن لن نمكث كثيرًا.

- أنا أيضًا لا أستطيع المكوث طويلًا. عندما تهم في الذهاب نغادر من فورنا.

- المهم أننا حضرنا!

كانا قد اجتازا السجيوي وعبرا بين الحقول التي تمتد حتى غار لابسي. المكان ظل صامتًا ورماديًّا، وكأنه في حالة تمرد ضد البرودة المتفشية مثل بخار قادم من البحر. نيكي أبطأ من السرعة. يبدو أنه يعرف طريقه جيدًا.

- ها قد وصلنا.

قال نيكي وهو يدخل طريقًا بجدران حجرية على الجانبين.

بعد منتصف الطريق تحولت السلاسل الحجرية إلى جدران أسمنتية مرتفعة ثم وجدا نفسيهما أمام بوابة حديدية كبيرة. نيكي دق منبه السيارة مرتين، فُتحت البوابة ودخلا ثم أُغلقت خلفهما. قاد سيارته صعودًا عبر طريق أسفلتي بمحاذاة أشجار زيتون باسقة. على مسافة ما، تراءى لهما البحر بعيدًا، ولكن عند وصولهما إلى قمة الهضبة الصغيرة، ظهرت فيلا مكونة من عدة حجرات ومرافق، بدا أن بعضها مشيد منذ مدة طويلة، فيما البعض الآخر قد أضيف مؤخرًا. أمام الفيلا، على رقعة أرض مليئة بأشجار النخيل، انتشرت العديد من السيارات الفارهة، بعضها يكلف ثروة باهظة، أو هكذا خمن أنجلو.

يبدو أن نيكي قرأ أفكاره. قال وهو يوقف سيارته بجوار سيارة أستون مارتن التي لا مكان لها للتعبير عن نفسها في طرقات مالطا الضيقة:

- في هذا البلد الصغير، هناك من هو متخم بالمال، أليس كذلك؟

عبرا الساحة المليئة بالسيارات متدثرين بمعطفيهما بسبب شدة البرودة التي تضاعفت بعد مغادرتهما العاصمة. مدخل الفيلا عبارة عن ردهة فسيحة تعلو الرصيف بثلاث درجات. لم يكن عليهما طرق الباب الأمامي الأبيض

كبوابة كاتدرائية، أو قرع الجرس. بمجرد أن اقتربا من الباب استقبلهما كبير الخدم بملابس سوداء من رأسه حتى أخمصي قدميه. دخلا صالة كبيرة فيها درج يفضي للأسفل وممرات من الجانبين تصدر منها ضحكات وأحاديث حميمة. بعد تلك البرودة في الخارج، دفء الصالة بث فيهما الحياة من جديد. أخذ كبير الخدم -إن كان كذلك- معطفيهما وأشار لهما أين عليهما الذهاب.

نظر أنجلو حوله وقال:

- هذا المكان يشبه آخر مشهد في فيلم ذهب مع الريح.

نيكي حرك كتفيه من دون أن يعلق بشيء. كبير الخدم مشى أمامهما ليرشدهما إلى صالة الحفلة من دون إبداء أدنى إشارة بأنه سمع شيئًا مما قالاه.

كلما دخلا في الفيلا أكثر ازداد الدفء. فكل حجرة وصالة مطلية بالأبيض أو الأزرق الفاتح كي تبدو أكثر فساحة مما هي، كانت هناك مواقد، بعضها كهربائي، والبعض الآخر بالحطب. رائحة احتراق الحطب تضفي على المكان رائحة بلسمية. مع كل خطوة كانا يقتربان من الحفلة التي بدأت منذ مدة طويلة قبل حضورهما. قبل أن يصلا إلى الصالة، في ممر أبيض، استقبلتهما امرأة طويلة القامة ترتدي ثوبًا طويلًا فاتحًا أخضر اللون، كتفاها عاريتان وصدرها أبيض عاجي، وعيناها خضراوان كلون ثوبها. من شفتيها الفاقعتين بأحمر الشفاه والطلاء حول حاجبيها قدرا أنها كانت في الخامسة والثلاثين أو أكبر بقليل، لم يكن لديهما الكثير من الوقت للتحقق من هذه العلامات. استقبلتهما بابتسامة واسعة جعلتها تبدو أصغر سنًّا.

- نيكي! كم أنا سعيدة بقدومكما! ظننت أنك نسيتنا. (تحدثوا بالإنجليزية طوال الحفلة).

- كيف أنسى ليونورا! فقد وعدتك. هذا أخي أنجلو الذي طالما سألتني عنه.

أخذت يده بكلتا يديها كأنهما عضوان في محفل ماسوني، رغم أنهما يلتقيان لأول مرة، بدا أنهما يعرفان بعضهما جيدًا. لكن عندما انحنى لتقبيل يدها، شعر بحركة غريزية طفيفة، كانت تسحب يدها للخلف. لا بد أنها تعلم أن أفضل

طريقة لتقدير عمر المرأة ليس بالضرورة بالنظر إلى ثدييها أو خصرها أو رقبتها أو امتلاء ردفيها أو الخطوط أسفل عينيها، ولكن إلى جلدة يدها، سيما حول المعصم.

قالت وهي تُقبِّل نيكي على خديه:

- لم تخبرني أن شقيقك فارس للغاية.

بعد أن اعتدل أنجلو من انحناءته، لمح رجلًا بجاكيت أسود وقميص أبيض مشدود يسرع إليهما، صاح مبتسمًا:

- نيكي!

أجاب نيكي:

- مرحبًا سيرجي!

ثم تعانق الرجلان، واستغرب أنجلو أن كليهما كان داكن البشرة كأنهما أمضيا وقتًا طويلًا تحت أشعة الشمس، كان شعرهما أجعد ورماديًّا أو يميل إلى البياض.

لم يكونا في نفس العمر. أدرك أنجلو هذا عندما استدارا نحوه. سيرجي كان أكبر بكثير من نيكي لكنه ما زال يتظاهر بأنه أصغر سنًّا. ما زال يعتقد أنه بإمكانه الإيقاع بالناس، لا سيما النساء؛ كأنه ينتظر الخراج الذي كان يقدم للنبلاء في الماضي، من باب إبداء الولاء وليس الإعجاب. على الأقل هذا ما شعر به وهما يصافحان بعضهما، سيرجي يبتسم له كاشفًا أسنانه، بعينين فاتحتين رماديتين أكثر من شعره الكثيف المصفف بعناية، بعكس نيكي، الذي كان شعره ملقى للخلف، يتمايل حول كتفيه مع كل حركة من رأسه (... الرمادي... كل شيء من حوله اليوم رمادي، في القريب وفي البعيد. في وجوه الناس وفي السحب التي تتقاطر في الأفق). هل لم يُعجب أنجلو بالزوجين منذ البداية، حتى وهما يحييانه بحرارة؟ وإلا لماذا لاحظ أن عيني سيرجي كانتا باردتين ومتحجرتين، وأسنانه مصقولة وناصعة البياض للغاية؟

دخلوا الصالة التي تقام فيها الحفلة، وهي عبارة عن صالة عملاقة ذات نوافذ كبيرة تطل من ثلاثة جوانب على حديقة مليئة بأشجار الحمضيات

والزيتون، وفي البعيد يمكن مشاهدة الحقول فوق المرتفعات. بالإضافة إلى ضوء النوافذ، كانت الصالة مضاءة بثريات كريستالية كبيرة متدلية من السقف. كانت الصالة مكتظة بأناس يتحدثون بحماسة، إما بسبب الخمر أو ابتهاجًا بعيد الميلاد، وأزواج في منتصف العمر يرتدون ملابس فائقة الأناقة، وبعض كبار السن هزيلي الأجساد، والعديد من الفتيات المتبرجات، يتحدثن ويبتسمن باستمرار فيما يتفحصن بفضول كل من يقترب منهن (مثل مناديل ورقية في برامج برلسكوني التلفزيونية... تصور أنجلو، الذي لسبب لم يستطع فهمه، شعر بنفور شديد تجاه من حوله). كان هناك شبان طوال القامة، يبدون كرياضيين أو راقصين وهم يحركون أكتافهم بأنوثة بين الأزواج والشابات.

وسط الحشد تنقل رجال ونساء من النادلين يرتدون سترات سوداء وقمصانًا بيضاء. كانوا يقدمون الشمبانيا وأنواعًا أخرى من النبيذ الفاخر، مع مقبلات خفيفة، في أوانٍ فضية تعكس الضوء المنبعث من ثريات الكريستال. كانت تتسلل موسيقى خافتة من أعماق الصالة، بالكاد تُسمع بسبب ثرثرات المرح -مقطع من سيمفونية لمهلر لم يستطع أنجلو تذكرها. بعد أن تأكدت أنهما حصلا على الشمبانيا، بدأت ليونورا على الفور بتقديمهما للضيوف الآخرين. سرعان ما أدرك أنجلو أنها وشريكها كانا حريصين جدًّا على التأكد من عدم ترك أي من الضيوف بمفرده.

على مقربة منه بدأ نيكي يتحدث بحماس كبير إلى اثنين من «النباتيين» ممن يعرفهما من قبل ويقدرانه كما يقدرهما، فيما تحدث أنجلو مع ريتشارد المصرفي وزوجته سيلفيا -اللذين لم يرَهما منذ مدة طويلة. كان قد تعرف عليه عندما تقدم البنك الذي يعمل فيه ريتشارد بطلب إنشاء مقر جديد، وكان عليهما مراجعة المخططات وخطة البناء وفقًا للقوانين. ريتشارد وزوجته فرحا جدًّا بلقائه.

قال ريتشارد:

- لم أكن أعلم أنك صديق لسيرجي وليونورا.

- أخي صديقهما. لقد دُعيت معه.

قالت سيلفيا مبتسمة:

- لديهما الكثير من الأصدقاء، وليس فقط المال. لم أكن أتوقع وجود تانيا هنا. لم تخبرني بشيء!

- تانيا؟

ابنتي.

قال ريتشارد وهو يحدق نحو الطرف الآخر من الصالة حيث كانت ثلاث شابات يتحدثن إلى بعض الشبان. لاحظته إحداهن على الفور وابتسمت له. ردت عليها سيلفيا بابتسامة لم يكن أنجلو متأكدًا مما إذا كانت ابتسامة حقيقية.

- ما يقال بأن لديهما الكثير من المال صحيح. أنا لا أكشف أسرارًا مهنية، سيرجي هو أحد أفضل عملائنا في البنك.

- اليوم التقيته لأول مرة. ذكرني بـ...

- بصاحب شركة فيات السيد أنيلي.

- كنت سأقول بالسيد ستيفنوس، لكنك...

- من هو السيد ستيفنوس؟

- انسَ الأمر، أنيلي أفضل منه.

ضحكا.

أنجلو شاهد فترينات كبيرة بين الجدران والنوافذ، بعضها مضاء من الداخل. تسلل من بين الحشد واقترب من إحداها. كانت مليئة بأقنعة أفريقية معروضة بعناية فائقة. في أثناء ذلك سمع نيكي ليس بعيدًا عنه يتحدث مع ليونورا وبعض الشبان. اقتربوا منه. قالت ليونورا:

- لم أكن أعلم أنك مهتم بمجموعة سيرجي.

- جدًّا. لم أشاهد مثلها من قبل.

- جميعها من مملكة داهومي. بعض الفترينات الأخرى فيها أقنعة من تشاد والنيجر.

اقترب الآخرون من الفترينة، وشرحت لهم ماذا كان فيها. إحدى الفتيات انفجرت ضاحكة بعصبية -كان من الواضح أن الأقنعة لم تعجبها، بدت لها قبيحة ومروعة. التفتت ليونورا إلى أنجلو وتحدثت معه كما لو كانا وحدهما فقط في الصالة:

- لا يمكنني أن أعبر عن مدى امتناني لأنك حضرت إلى حفلتنا. أنا معجبة جدًّا بمؤلفاتك، خاصة الكتب الثلاثة الأخيرة. ليس هناك الكثير من الكُتَّاب المالطيين الذين يُشعِرونك وأنت تقرأهم بأنك تقرأ أدبًا أوروبيًّا.

عندما يكلمونه بهذه الطريقة، فإن رد فعله عادة هو الإجابة بشكل فج. لكنه ابتلع لسانه وقرر أن يناقشها في بعض تفاصيل روايته الأخيرة كي يحرجها ويفضح أنها لم تفتحها حتى. لكنها أدهشته. فهي لم تقرأها بعناية فحسب، بل شرعت في مقارنتها بروايته السابقة، «أيوب». شعر، ربما من دون أن يقصد، بموجة عارمة من الإعجاب تجاهها. إنه غرور المؤلف عندما يلتقي بأحد ما لأول مرة ويكتشف أنه يتابع كتاباته ويقدرها. كانت عيناها الخضراوان المرسومتان بإتقان ما زالتا مثبتتين على وجهه وهو يتفق مع كل ما قالته للتو عن روايته الأخيرة «الكتابة على الجدار».

كانت قد تمكنت من إرباكه، وعندما سألته ذات السؤال الذي يطرحه عليه الجميع، والذي عادة ما يجيب عنه بطريقة غامضة تترك السائل بلا إجابة، لم ينجح في إقناعها. حتى إنه لم يلاحظ أن نيكي ومجموعة الشبان والشابات قد انضموا إليهما أمام الفترينة.

- إذن ماذا تكتب الآن، أو ما الذي تخطط لكتابته؟

هز كتفيه:

- ما أكتبه الآن رواية مختلفة تمامًا عن كل ما كتبته في السابق. منذ سنوات وأنا أفكر في كتابتها. إنها حول مملكة كلاتونيا المنسية.

سألته بفضول مبتسمة، ثم اقتربت منه ولمست مرفقه كأنها تختبر أنه لا يسخر منها:

- أي مملكة هذه؟

فجأة دخل نيكي على الخط. مط شفتيه مستغربًا:

- ما هذا؟ هل حقًّا ستكتب عن كلاتونيا؟

في تلك اللحظة، ظهر نادل يحمل المزيد من الشمبانيا، وتبعه مجموعة من الضيوف الذين رغبوا في التحدث إلى ليونورا ونيكي ورؤية الأقنعة في الفترينات. أنجلو ابتعد جانبًا مبتسمًا للضيوف الجدد، ثم تمشى لاستراق النظر إلى الحديقة خارج الصالة من خلال زجاج أحد الأبواب. حاول تحريك مقبض الباب.

فجأة ظهر أحد الخدم، وسأله بلطف:

- هل ترغب في الخروج إلى الحديقة سيدي؟

- إذا فتحنا الباب، فهل ستتجمد هذه الصالة؟

هز الخادم كتفيه:

- لا أعتقد ذلك سيدي. بل أنت من سيشعر بالبرودة بهذه السترة فقط.

فجأة أجابه أنجلو الذي أعجبته فكرة زيارة الحديقة:

- لا تقلق بشأني.

فتح له الخادم الباب وخرج. وجد نفسه في حظيرة بدرابزين منخفض يفضي إلى درجات تقود إلى الحديقة. كانت البرودة حادة مثل نصل سكين، لكنها لم تزعجه في تلك اللحظة، ربما لأنه شرب الكثير من الشمبانيا. نزل الدرجات عبر غابة من أشجار الحمضيات المحصورة بين ثلاثة ممرات مترامية أمامه مثل أسنان معول.

صاح أحدهم من خلفه:

- مرحبًا!

على رأس الدرج كان سيرجي، أيضًا بلا معطف. نزل بجواره.

قال وهو يبتسم بكل أسنانه:

- بما أن حديقتنا تعجبك إلى هذا الحد قررت الانضمام إليك.

- إن كنت لا تمانع! وحتى أكون صريحًا، الحديقة هي أكثر ما أعجبني في المنزل.

- خشيت أن حفلتنا لا تعجبك!

بدت كلماته مصطنعة لكن سلوكه كان ودودًا. أمسك بأنجلو من مرفقه، كما فعلت لتوها ليونورا، ليرشده إلى الممر.

- آمل ألا أزعجك.

قال فيما أخذ أنجلو يشرح له أنه أحب رؤية الحديقة بمجرد أن شاهدها من خلف باب الصالة.

- وإلا فقد لا نعود أحياء من هذه البرودة القارسة.

كان يدخن سيجارًا. لا بد أنه انتهز الفرصة لتدخينها عندما شاهد أنجلو يخرج من الصالة.

- هذا المكان كان لأحد فرسان المعبد الأثرياء، كان يستخدمه للصيد وبقي كذلك لعدة قرون. معظم الأشجار، لا أقول بأن عمرها قرون، لكن بالتأكيد ضعف عمرينا معًا.

دائمًا بتلك الابتسامة التي تكشف عن أسنان مثالية في منتصف وجهه الملفوح بحرارة الشمس، وتلك العينين المعدنيتين اللتين لا يمكن معرفة ما إذا كانتا متيقظتين أم فيهما قصر نظر دائم.

بمجرد أن مشيا بضع خطوات، وجدا نفسيهما في بستان حمضيات. تارة ليمون وتارة برتقال منتشرة على الجانبين، الكثير منها أخذ لونه المعتاد، فيما بعضها ما زال أخضر اللون رغم كبر حجمه.

قال سيرجي:

- وفقًا لخبراء الزراعة اليوم ينبغي عدم زراعة الليمون بقرب البرتقال. في الماضي كانوا يزرعون بطريقة مختلفة، مما أدى إلى إنتاج أنواع مختلفة من الحمضيات، لأن البرتقال قد يؤثر على الليمون والعكس صحيح.

- لا تقل لي إنكم تستهلكون كل هذا البرتقال والليمون؟

قال سيرجي ضاحكًا:

- بالطبع لا! حتى لو كنا نقيم هنا طوال العام، فمن المستحيل استهلاكه كله. لكن الخدم -سيما كبيرهم- يعلمون ما يمكن صنعه من هذه الفاكهة. يبدو لي

إن فهمت جيدًا، أنهم يصنعون من عصير الليمون مشروبات روحية فاخرة. شخصيًّا، لا يمكنني أن أوصي به لأنني لا أتناول الليمونسيلو.

عندما وصلا إلى نهاية الممر، وجدا نفسيهما أمام ستارة عالية من أشجار الزيتون، بأغصان خضراء داكنة بدت كأنها من رماد، كانت السماء بأكملها ملبدة بالغيوم والبرودة تنخر العظام.

- هل تصنعون الزيت من الزيتون؟

- هناك من يأتي لقطفه ثم يرسلون لنا حصة بعدما يعصرونه.

- وماذا خلف الأشجار؟

- دعني أريك.

مرا عبر تربة جرداء تخترق بستان الزيتون، واقتربا من برج صغير على حافة الأشجار يشبه الحامية. دخلا. كان به عدة فتحات دائرية من الجوانب تحت سقف دائري، ربما لمراقبة المكان. كانت البرودة أشد كثيرًا من الخارج، كأنها تسكن البرج منذ فترة طويلة. قاده سيرجي عبر درج ضيق يفضي للأعلى. في الجزء العلوي وجدا منصة من العوارض الخشبية، مثل سقف صغير محاط بجدار من جانب واحد. اقترب سيرجي من النافذة في الجدار وأشار:

- هناك، عند حافة التل، تنتهي حدود الملكية.

تحته، شاهد أنجلو حقلًا مكسوًّا بالنباتات الشتوية البرية، محاطًا بجدار من الأحجار المتهالكة. في البعيد المظلم امتد البحر نحو أفق لا يمكن تحديده. ليس بعيدًا عن قمة الحقل، شاهد تلَّيْن منبسطَين وكتلة رمادية من أشجار الخروب المعمرة.

قال أنجلو كي يكون قد قال شيئًا:

- لديكم فيلا رائعة.

بدأ يشعر بالبرد الشديد.

أخذ سيرجي نفسين من سيجاره. أومأ برأسه وحدق في المشهد الأخضر المتشح بالرمادي أمامهما:

- منذ أن شاهدت هذا الحقل وتأكدت أنه جزء من العقار، انتابني حلم قديم ببناء متحف حديث للفن الأفريقي المعاصر. لا لعرض مجموعتي فيه فحسب، بالتأكيد يمكنني إقناع بعض الأصدقاء لعرض أعمالهم أيضًا.

- ألن يكون المكان بعيدًا ومنعزلًا؟ بالإضافة إلى أن تلك الأرض -كما أعتقد- زراعية ولا يمكنك البناء عليها.

- وقيل لي أيضًا إنه قد تكون هناك بقايا تاريخية مهمة تحت الحقل بالضبط. وكأن لي رغبة في تدمير الآثار! أنا أرغب في تقديم شيء لهذا البلد، وليس الأخذ منه. ربما يمكنك إسداء بعض النصائح لنا حول ما يجب القيام به ومن يمكنه مساعدتنا حيال ذلك.

أخيرًا فهم أنجلو سبب دعوته. لم تكن الروايات إذن. ابتسم وظل صامتًا.

عندما استدار سيرجي ونظر إليه كان ينتفض من شدة البرودة.

- أنت تشعر بالبرد. دعنا نعود بسرعة.

لم تبدُ عليه أي علامات بالشعور بالبرد القارس.

نزلا من البرج وعادا مسرعين عبر الممر بين أشجار الحمضيات إلى صالة الحفلة. تابع سيرجي:

- لا أريد أن أزعجك، لكن بالتأكيد أقدر نصيحتك بشأن ما يدور في ذهني. أنت لا تعرفني، أقصد لا تعرفنا. لكن ليونورا تتابع كل كتاباتك. فقط صدقني أنه لا نية لدينا في إيذاء هذا البلد. ماذا لو قامت بدعوتك لتناول وجبة خاصة، هل تقبل؟ يمكنكما التحدث عن الأشياء التي تهمكما أو بالأحرى تهمنا نحن الثلاثة. وغني عن القول، يمكنك دعوة من تشاء من شركائك، أقصد رفاقك.

من الطريقة التي ترك بها الحوار معلقًا بينهما، بدا كأنه ينتظر من أنجلو أن يستنتج ما إذا كان لديه أي سؤال حول ما طرحه.

- قبولك الدعوة سوف يسعدنا كثيرًا.

أجابه أنجلو وهو يرتجف من البرد:

- أكيد.

وصلا أمام أحد الأبواب التي تفضي إلى قاعة الحفلة. أحد الخدم فتح الباب من الداخل. سيرجي دعا أنجلو للدخول أولًا.

- لقد سعدت كثيرًا بلقائك. علينا اللقاء مرة أخرى.

دفء الصالة، بالإضافة إلى الويسكي الذي قدمه له النادل، سرعان ما أعادا أنجلو إلى الحياة. تدفُّق المدعوين أخذ في التضاؤل. اقترب نيكي منه، كان وحده هذه المرة.

- أين كنت؟ هل حقًّا خرجت إلى الحديقة، في هذا البرد الشديد؟

كانت كأسه فارغة.

- لقد تأخر الوقت. علينا الذهاب، لدي التزامات أخرى.

غادرا. قبل أن يدخلا في السيارة، لاحظ أنجلو أن مزاج أخيه قد تغير. بدا أنه ليس لديه ما يقوله عندما سأله كيف كانت الحفلة، وهل عثر على إحداهن، وما إذا كان قد شرب كثيرًا. في النهاية سأله:

- هل حدث خطب ما؟

- لا شيء.

لكن عندما وصلا إلى السجيوي، سأله نيكي بحنق:

- هل حقًّا ستكتب رواية عن كلاتونيا؟

- أجل. هذا ما لدي في مخيلتي. عادة لا أتحدث سابقًا عما سأكتبه، لكنني هذه المرة حللت لساني، كان خطأ. ولكن لماذا تسأل؟

- لأنه...

ثم توقف فجأة كأنه قرر أنه من الأفضل عدم الحديث.

احتج أنجلو مستغربًا:

- بما أنك فتحت الموضوع الآن، تابع كلامك.

- لأنه لا يجدر بك تقليد هاري بوتر، أو سيد الخواتم.

- ليس لدي أي نية للقيام بذلك، من أين أتيت بهذا؟

صمتا. نيكي ظل مكفهر الوجه. أخيرًا قرر أنجلو مندهشًا أن يسبر أغوار أخيه:

- أليس من الأفضل أن تخبرني ما هي المشكلة؟

- ليس من الصواب جعل حكايات كلاتونيا متاحة للجميع. هذه تخصنا نحن الاثنين فقط.

- لا تقلق. لن تكون نفس كلاتونيا التي كنت أقص عليك حكاياتها عندما كنا صغارًا. سوف أُغيِّرها.

- ليس من حقك تغييرها أيضًا.

- هل أنت جاد؟ ألم تفعل نفس الشيء عندما كنت تعيد رواية قصصي لميشيل عن كلاتونيا؟

- وما أدراك بما كنت أقص عليها؟

- بل غيَّرت كلاتونيا إلى ديزني لاند. لا تقل لي إنك لم تفعل ذلك. وقد فعلت حسنًا إذ استمتعت ميشيل بها، وأنت أيضًا في أثناء روايتها لها.

- لكني لم أنشر قَط تلك القصص التي كنت أرويها لميشيل.

- تلك القصص بدأت لأني كنت أخترعها. على أي حال، على الأقل أنا لم أروِ حكاية واحدة لمارجون أو نينا عن كلاتونيا.

- هذا صحيح، فقد كنت ترويها لي، لي فقط. فهي إذن تخصني أيضًا. لا وجود لأي قصة إذا لم يكن هناك من يستمع لها. وأنا كنت المستمع الوحيد لتلك القصص الكلاتونية.

لم تكن نظرته غاضبة فحسب، بل أيضًا طريقته في الحديث وعصبيته في قيادة السيارة، بعكس مزاجه البهيج في أثناء توجههما إلى الحفلة. في ظل ذلك لاذ أنجلو بالصمت مذهولًا ومرتبكًا.

قال نيكي بصوت مرتفع كما لو أنه لم يستطع التحمل أكثر:

- إذا قمت بذلك حقًّا، فسوف تكون بغيضًا وكريهًا ولعوبًا.

* * *

- 28 -

فجر

لم ينَم جيدًا على الأريكة، بل يمكن القول إنه لم ينَم على الإطلاق. أخبرته نينا أن الأريكة قاسية وغير مريحة لكنه أصر على الاستلقاء عليها بدلًا من الذهاب إلى الحجرة الصغيرة الجانبية حيث يوجد سرير مريح. حتى لو ذهب هناك فلن يكون قادرًا على النوم. في حقيقة الأمر أنه لا يشعر بالراحة في المنزل الذي عاش فيه مع دينيس مدة طويلة ثم احتفظت به نينا، لأنها لم ترغب في بيعه حتى تتمكن من البقاء فيه. لم تغير الكثير من أثاث أمها. نينا التي من المفترض أنها مهندسة ديكور وتستمتع بتأثيث المنازل من الداخل، تهتم بديكور منازل الآخرين وتهمل منزلها.

ليس لأنه لم ينَم بشكل جيد، بل لأنه ظل لساعات عديدة يجاهد الذكريات والمشاحنات والمشاجرات. منذ البداية، أصر على نينا أن تتصل به عندما تكون بحاجة إلى أي مساعدة. لم يكن واثقًا بأنها ستفعل ذلك. في السنوات الأخيرة نادرًا ما احتاجت إليه -وحتى قبل ذلك بكثير- من أجل مشورة أو مساعدة. كانا يلتقيان ويتحدثان ويهنئان بعضهما ويتصلان ببعضهما كثيرًا، لكنها نادرًا ما طلبت منه المساعدة. وهذا ما حدث حتى السادسة مساء، عندما اتصلت به لإخباره أنها قد تدخل مستشفى الولادة كما أوصى الطبيب، وإن كان بإمكانه إمضاء الليل معها لأخذها إلى المستشفى فيما لو أتاها الطلق!

لم يحدث قَط أنه غادر منزله أو قاد سيارته بهذه السرعة؛ فوجئت عندما فتحت الباب ورأته أمام عينيها.

- هل كنت في الجوار؟ اعتقدت أنك في المنزل.

قال لها:

- أنا قادم من هناك، كيف تشعرين؟

شعر بالرضا لأنه كان يخشى أن يصل متأخرًا ويجدها في حالة صعبة، لكنه وجدها مبتسمة رغم أن وجهها كان متعبًا مثل وجه دينيس عندما كانت تعاني

من الصداع.

- بدأت أشعر ببعض الآلام الخفيفة. قال الطبيب إن الأمر قد يحدث بسرعة وإنه بمجرد تكرار الألم عليَّ الذهاب إلى المستشفى بسرعة. متأسفة لأنني أزعجتك.

كانت في صوتها نبرة شكلية غريبة، كأنها أدركت أن طلب المساعدة من والدها كان أمرًا غريبًا.

أمضيا بقية المساء في غرفة المعيشة أمام التلفاز من دون أن يتابعاه. تحدثا وانتظرا. ألحت عليه أن يتناول شيئًا لكنه اكتفى بفتح علبة تونة وجدها في المطبخ. تناولها مع كسرة خبز يابسة عثر عليها في الثلاجة. لاحظ وجود ثلاث علب من حليب الأطفال في الثلاجة. في بعض الأحيان كانت تشعر بوخزات من الألم.

- ماذا حدث؟

- بعض الألم.

وآخر.

- هل يمكنني القيام بشيء ما؟

- لا، سوف يزول قريبًا.

أحيانًا كانت تتحدث وهي تفرك بطنها الذي، في رأيه، لم ينتفخ كثيرًا بسبب الحمل، تمامًا مثل والدتها، لكنها أخبرته أكثر من مرة أن حملها وفقًا لطبيبها كان طبيعيًّا، وأن الأمور تسير على ما يرام. كان الحديث يتعقد عندما يتحدثان عن ذكريات بعيدة، أو حول أخبار اليوم المشتعلة بالسطو على أحد البنوك وقتل حارس أمني. وتجف عندما يحاول التطرق إلى موضوع الولادة وما بعدها، أو عندما تدرك كيف يحاول جر الحديث في هذا الاتجاه. قبل منتصف الليل بقليل قررت نينا أنه من الأفضل أن تذهب للنوم. تركته بمفرده في حجرة المعيشة حيث أصر على إمضاء الليل، بعد أن وعدته بأن توقظه على الفور إذا ما شعرت بشيء ما.

استلقى على الأريكة يتجشأ التونة التي تناولها على عجل، في ضوء المصباح الخافت على المنضدة المنخفضة بجانبه، يعكس ظلالًا مخيفة في غرفة المعيشة. أدرك أنه لن يتمكن من إغماض عينيه. في الآونة الأخيرة لم يَعُد ينام كثيرًا. ليس لأنه يرغب في ذلك، ولكن لأنه يستيقظ في منتصف الليل ولا يستطيع العودة إلى النوم مجددًا. عندما أطفأ المصباح أصبحت غرفة المعيشة تعج بالأشباح السوداء وبدأت الذكريات تتقاطر أمامه بلا توقف.

هل كانت ابنته غريبة حقًّا؟ أم أن الغرباء هم من كانوا حولها؟ تذكر كيف أخبرته أنها حامل: كان قد حضر لزيارتها في الصيف ودعته لتناول الطعام معها. في أثناء تناول الطعام أخبرته بكل برود أنه أخيرًا سيصبح جدًّا. صحيح أنه كان ينتظر هذا وطالما لمَّح لمارجون حول الأحفاد. لكن ها هو يصبح جدًّا تقريبًا في الستين من عمره! ظل مبتسمًا كأنه تقبل المزحة من دون أن يشعرها أنها صدمته. منذ عدة أشهر انفصلت عن صديقها الذي كانت برفقته لسنتين أو ثلاث لأسباب مجهولة. كان قد تحدث إلى صديقها السابق، وهو رجل ذكي، يكبرها بنحو ثلاث سنوات، محامٍ يعمل في حماية البيئة إزاء مشاريع التنمية الجديدة. كانا قد التقيا في أثناء جلسة لمناقشة اقتراح لإقامة مبانٍ على أراضٍ مروية ثم ذهبا لتناول القهوة معًا. خمن أن عليه توخي بعض الدبلوماسية مع الشاب لمعرفة حقيقة سبب انفصالهما، لكن المحامي دخل مباشرة فيما حدث، من دون أن يتوقع من والدها أن ينقل كلامه. وفقًا له، نينا قررت تركه فجأة من دون مقدمات. كيف ولماذا؟ لم يدرِ قَط، وأنه عندما شاهد أنجلو يدخل إلى جلسة الاستماع قرر أن يتقرب منه لأنه كوالدها، ربما أطلعته على السبب.

قال لها:

- لو كانت أمك حية لسُرَّت بهذا الخبر.

تكدر وجه نينا:

- هل تحاول أن تقول لي بأنها لو كانت بنتًا عليَّ أن أسميها باسمها؟

- أبدًا. لأني لو قلت لكِ ذلك، فستفعلين العكس تمامًا.

ضحكت. رغم أنها لم تكن واثقة كيف سيتلقى أخبار حملها. في غمرة ذلك اتخذت أفكاره شكلًا آخر -يبدو أن نينا لا تكترث كثيرًا لوقع الأخبار عليه. في السنوات الأخيرة لم تكن تأخذه على محمل الجد بل إنها كانت تشفق عليه.

- إذن من هو الأب؟

نظرت إليه بابتسامة هادئة.

- ليس هناك أب.

- ماذا؟

- بالنسبة للمولود أو المولودة، أنا من سيظهر في الصورة. سيكون الأب مجهولًا وفقًا لمتطلبات الخدمات الاجتماعية.

بعد فترة صمت حاول خلالها فهم ما كانت تقوله بالضبط.

- انتظري لحظة، هل تقولين إنكِ لا تعلمين من هو الأب لأنكِ مارستِ الجنس في حفلة جماعية! أم أنه قد رحل ولن يعود مرة أخرى؟ أم أنكِ تعلمين من هو ولا تريدين الإفصاح عن اسمه في الوقت الحالي؟

نهضت نينا لتنظيف الأطباق وبقايا الوجبة.

- اعتقد ما تشاء. ليس لدي ما أضيفه.

لم يستسلم. استمر في الضغط عليها.

- هل هو من المهاجرين الأفارقة غير الشرعيين؟

- كم أصبحت عنصريًّا!

- ليس صحيحًا.

- لقد أخبرتك. ليس لدي ما أضيفه.

في الأشهر التي تلت، لم تتراجع نينا عن قرارها بأنه لن يكون هناك أب لمولودها الجديد. بل ازدادت عنادًا في الإجابة بأنها ستكون الأم والأب لوليدها وليغضب من يغضب (هذه الجملة الأخيرة لم تكن تقولها للجميع). من بين الذين لم يفهموها ولم يتفقوا معها كان شقيقها مارجون الذي تحدث إليها وإلى والده مطولًا. بالنسبة لمارجون، كان تصرف شقيقته غير مسؤول، وربما

أخبرها بذلك مباشرة رغم علاقتهما الحميمة منذ صغرهما. ربما لهذا طلبت من أبيها وليس شقيقها أن يبيت معها في تلك الليلة العصيبة.

ظلت الأفكار تتأرجح في ذهنه جيئة وذهابًا. مصابيح الطريق خارج النافذة بالكاد أمكنها اقتحام ظلام الحجرة، بل إنها ألقت المزيد من الظلال. خيم الصمت ولم يسمع أي أنين من غرفة نينا. يبدو أنها رقدت بعمق وتلاشت تلك الآلام التي كانت تخشى منها. فكر في الحجرة التي أعدتها للطفل والتي كانت قد أطلعته عليها بُعيد وصوله بوقت قصير. بدا أنها جهزتها بكل المستلزمات ونظمتها بشكل جميل، كأنها تحاول إقناعه بأنه يمكنها تدبر الأمور بمفردها. على الفور ذكرته بأمها.

- وهل ظللتِ تصرين على عدم معرفة جنس المولود؟

- هذا الأسبوع سمحت لهم بإخباري. إنها بنت.

في وقت لاحق، تحدثا عن كيف ستزاول عملها في ظل وجود المولودة الجديدة. أخبرته كيف أعدت نفسها للتأقلم مع ذلك؛ بدا أنها خططت لكل شيء سابقًا. اتفقت مع زملائها في العمل على أنها ستعمل بمرونة. ففي كل الأحوال كانت تعمل في أوقات غير منتظمة، غالبًا في تقديم النصائح والتصاميم في مواعيد حسب متطلبات العميل.

في مرحلة ما أخبرها، بما أن الأمور آلت إلى ما آلت إليه، بأنه كان من الأفضل لو احتفظت هي ومارجون بحصتهما في متجر والدتهما، وأنه لم يكن عليهما بيعها لابن عم والدتهما. قالت له بصرامة:

- لا، رونالد قدم لنا سعرًا معقولًا ولم أكن أنا ولا مارجون مهتمين بالعمل هناك.

أحد الأسباب التي كانت تقلقه هو أنه لا يعرف سبب هذا القلق. هناك شيء ما يقلقه ولكنه لا يستطيع فهمه. حاول التناسي عن طريق التركيز فيما يكتبه في الوقت الحالي. لفترة من الوقت تمكن من نسيان متاعب نينا، إن كانت متاعب، وركز على تعقيدات كتابه الجديد. أول كتاب سياسي -وهو الذي امتنع دائمًا عن كشف هُويته الحزبية. لا بد أنه قد غفا قليلًا من دون أن يدري.

أخيرًا استيقظ وفي برهة اكتشف سبب كل هذا القلق؛ لقد كان خائفًا على نينا ومستقبلها؛ لن تحظى بالسعادة والسلام. لكن من أين أتى بفكرة أنها تسعى إلى السعادة والاستقرار؟ لم يفكر في ذلك من قبل. كان قلقًا على مستقبل نينا لأنه أدرك فجأة أنها كانت وحيدة، وحيدة تمامًا، وهي التي كانت في صغرها دائمًا محاطة بالأصدقاء والمعجبين. خطر له فجأة أن المطاف انتهى بنينا وحيدة لأنها أرادت ذلك؛ أرادت أن تكون بمفردها. اختلطت هذه الأفكار في رأسه مع تلك التي حلم بها عندما اتصلت به نينا، وكما هي الحال دائمًا، كان قلقًا بشأن ما أراد كتابته ولم يستطع، حول امرأة وجد نفسه من دون أن يدري في علاقة معها ولا يستطيع التخلص منها، وحول متاعب العمل حيث يسعى رئيسه لتحميله بمهمات لا تهمه وهو غير مستعد لتحملها؛ مخاوف كثيرة كانت تعيش معه، لكنها تبددت بمجرد أن اتصلت به نينا.

بدأت أضواء أعمدة الطريق في الخارج تفقد سطوتها التي حافظت عليها طوال الليل. كان ضوء فجر جديد يتسلل عبر المصاريع ناسفًا كل أمل في أن المخاوف التي اعترته طوال الليل ستهدأ بسرعة.

سمع طرقًا خفيفًا على الباب. دخلت نينا مرتدية معطفًا طويلًا خفيفًا فوق بيجامة نومها. ملابسها تخفي تمامًا أنها على وشك الولادة.

سألها وهو ينهض عن الأريكة:

- كيف حالك؟

أجابت:

- ما زلت أنتظر. هل نمت جيدًا؟

- أجل، بما فيه الكفاية.

- كنت إذن أوفر حظًّا مني إذ لم أتمكن من النوم. في البداية شعرت بوخزات من الألم، ثم بدا وكأنها اختفت تمامًا.

ذهب لإعداد كوب من الشاي لكليهما. لم ترغب في أكل أي شيء. شعر فجأة بالبرد فارتدى سترته. حتى في ذلك الصباح كان متضايقًا لأنه لم يحلق ذقنه، مما جعل وجهه يبدو باهتًا وأكثر شيخوخة.

ذهبا لتناول الشاي على المائدة في المطبخ.

- كيف تشعرين؟

بدا وجهها متعبًا أكثر بكثير مما كان عليه بالأمس. داخله الشك في أنها لا تخبره بما تشعر حقًّا.

أجابته بابتسامة طفيفة:

- ها نحن نقترب ببطء.

- هل ما زلتِ مصرة على عدم إجراء عملية قيصرية؟

- لا أعتقد أنني سأحتاج إلى ذلك.

- يقال بأن الأمور تتم بشكل سريع. سمعت بعض النساء يقلن ذلك.

- صحيح، ولكنها عملية جراحية. لا أريد عملية أخرى.

- أخرى! ماذا تقصدين؟

- أليس كذلك؟ ولادة قيصرية تعني عملية مهما يقولون.

- تتكلمين كأنكِ أنجبتِ من قبل!

نظرت طويلًا في عينيه وبفتور قالت:

- ألم تخبرك؟

- تخبرني؟ من؟ وماذا كان عليها أن تخبرني؟

- أمي.

استغرب لأنها في السنوات الأخيرة كانت تدعو أمها بدينيس؛ بدا له الأمر غريبًا جدًّا. بعدها شعرت ببعض الألم.

- هل حانت اللحظة؟

- هكذا يبدو.

- نغادر عندما تخبريني.

نهض ليصنع المزيد من الشاي بالحليب.

- ماذا كان على دينيس أن تخبرني ولم تفعل؟

ضحكت.

- كنت أظن أنك كنت تعلم. اندهشتُ لأنك لم تذكر أي شيء عن الموضوع. كان عليَّ أن أسأل أمي عن ردة فعلك عندما علمت بالأمر، لكني لم أفعل. شيء غريب، لقد بذلت قصارى جهدي لنسيان كل ما حدث، ولكني بقيت قلقة لأنك لم تذكر أي شيء. لا لأنه انتابني الندم بسبب ما ينذر به الكهنة المنافقون من حولي! فقط لم أرغب في التفكير في العملية، هذا كل ما في الأمر.

صب الحليب من الإبريق وسكب فوقه الشاي الساخن من الغلاية. نينا أومأت برأسها أنها لا تريد. سألها:

- هل يمكنكِ الإفصاح عم تتحدثين؟

- هل تذكر تلك الأسابيع الستة التي أمضيتها في غلاسكو في دورة حول حماية البيئة؟ كنت في سنتي الأولى في الجامعة. كنت قد حملت وكان عليَّ إجراء عملية إجهاض.

نظر إليها متجمدًا.

- عملية إجهاض؟

خالط ضحكتها السعال.

- أرجو ألا تشعر بأي صدمة. أعلم أنك ستغضب لأن أحدًا لم يخبرك. حتى أنا شعرت أنه من الغريب أنك لم تخبرني بشيء. كنت صغيرة وطائشة، كما نكون في ذلك العمر. الشاب الذي كنت معه لم يكن يعلم ماذا يفعل أو ماذا يريد، ولم يكن قادرًا على تحمل أي نوع من المسؤولية. لم يكن ناضجًا، كنا قد ذهبنا في سفينة الصباح إلى صقلية.

- من؟

- أنا ودينيس.

- هل هي من قررت ذلك؟

- أرادتني أن أحتفظ به لكني رفضت بشدة. كنت سأذهب مع إحدى صديقاتي لكنها رضخت في نهاية الأمر وأخبرتني أنها ستُنهي المسألة.

رافقتني إلى فندق في كاتانيا، وبحلول الظهر كان كل شيء قد انتهى. مكثنا تلك الليلة هناك وعدنا في اليوم التالي.

- وماذا عن الأب؟

- أنتم الآباء مصابون بنفس الهوس! لقد كان مجرد طالب، مثلي تمامًا، كنا قد أفرطنا في الشراب وفقدنا... فقدنا السيطرة على أنفسنا. لا أدري ماذا حل به اليوم، ربما هو أحد أولئك الذين يجنون الكثير من المال في بروكسل أو لوكسمبورغ.

- وماذا عن مارجون؟

- بما أن أمي لم تخبرك، أعتقد أنها لم تخبره أيضًا. تحججت بأننا ذاهبتان إلى قوزو ليومين، وفي ذلك الوقت كان مارجون منشغلًا مع رفاق الكمبيوتر، لدرجة أنه لم يلاحظ أننا ذهبنا وعدنا رغم أنه ليس غافلًا، ولم يكن قَط كذلك. ربما علم ولم يقل شيئًا. لكن أنت، كيف لم يساورك أدنى شك على الإطلاق؟

أجابها:

- هل حقًّا لا ترغبين في بعض الشاي أو أي شيء آخر؟

- إن كان بإمكاني تجنب الولادة القيصرية فسأفعل ذلك.

نهضت من مكانها فيما يدها اليسرى تمسك بخفة على بطنها.

- سأستلقي قليلًا. لا أظن أننا سننتظر طويلًا. نسيت أن أخبرك أن هناك شفرات حلاقة في الحمام، في خزانة الألومنيوم بجانب المغسلة. لقد نسيت أن ذقنك ينمو بسرعة وأنه أصبح أبيض للغاية!

لم يستطع أن يتذمر لأن ابتسامتها كانت حتى نواجذها وهذا نادرًا ما تفعله.

- لا تستخدم الشفرة أسفل المرآة لأني أستخدمها لأغراض أخرى. استعمل واحدة جديدة.

ظل مذهولًا يكاد لا يصدق ما سمعه. تجرع الشاي ونهض ليفعل ما قالت له.

في نحو العاشرة، بينما كان يتصفح عددًا قديمًا من مجلة نيوزويك متظاهرًا بالقراءة، سمعها تصرخ، فهرع على وجه السرعة. غادرا من فورهما إلى

المستشفى. بعد بضع ساعات ومن دون اللجوء إلى عملية قيصرية، أنجبت نينا بنتًا جميلة أسمتها أورورا.

* * *

- 29 -

فناء الكنيسة

قال له باولو مجددًا وهما ينتظران خلف سور الكنيسة:

- كم أنت أنيق بالمعطف!

كان قد امتدح أناقته عندما حضر إلى منزله.

- يبدو أجمل مما بدا في المتجر!

كان باولو مبتسمًا، هو أيضًا كان يرتدي معطفًا وبدا أنه يعلم أنه يبدو أنيقًا. كان هذا يومه المنتظر مع فاليري: هذا ما تقوله كل خلجة في جسده. الجميع كانوا فرحين مثله ومبتهجين بجمال ذلك اليوم. كان يومًا مشرقًا من مايو، وكان حفل الزفاف يسير بسلاسة تحت إشراف شقيقه مارسيل.

- ابقَ معي حتى ندخل الكنيسة.

- أظن أن والدك...

- ابقَ معنا. هو أيضًا سيسر برؤيتك. خذ كأسًا أخرى من الويسكي.

قال لا. ويسكي آخر ما ينقصه الآن! كان قد أدرك أنه وصل مبكرًا وأنه لم يكن مضطرًّا للحضور في ذلك الوقت. كان بإمكانه الانتظار مع الآخرين في باحة الكنيسة، لكن صديقه أصر على حضوره وهو الآن مجبر لا بطل. والدا باولو كانا منهمكين في ارتداء ملابس الحفل والتأكد من أن أشقاء العريس الصغار جاهزون. تخبطوا لفترة من الوقت بسبب الورد المثبت في جيوب معاطفهم، وكل ذلك كان بلا داعٍ لأن الورد كان مثبت جيدًا على صدورهم، لا سيما على صدر أم باولو العريض. كانوا يختلقون التذمر من لا شيء، لأن كل شيء كان يسير على ما يرام، ولكن لا بد من اختلاق بعض المشكلات وإلا كيف سيكون زفافًا!

ومع ذلك، شعر أن وجوده يزيد في توتر المشهد. باولو لم يكن أكبر إخوته، لكنه كان أول من يتزوج، لقد كانوا أسرة كبيرة.

لكن الموقعة الفعلية كانت تجري في منزل العروس فاليري. وفقًا للمكالمات بين باولو وشقيقها، فقد تأخرت الاستعدادات قليلًا. فاليري وأمها منهمكتان في التقاط الصور لكل ما تقومان به، فيما المصور على وشك الانفجار. كانوا فرحين لدرجة لا توصف! في منزل باولو، حتى المصور، رغم الفوضى والارتباك والغضب، شعر بالنشوة بين كل أولئك الأقرباء والأصدقاء الفرحين.

حدق أنجلو إلى صديقه بتمعن، لماذا أصر على أن يكون شاهدًا على قرانه؟ كان هناك العديد من المرشحين من عائلته. كان بإمكانه أن يتصرف مثل فاليري التي اختارت خالتها لتكون الشاهد الثاني. لكن باولو في شغفه بالزواج الآن وليس لاحقًا -ربما أو بالتأكيد في البداية كانت هذه رغبة الأسرتين- ليس لأنه كان عليه وخطيبته الإسراع لسبب ما، حتى لو كان هناك من تَقَوَّل عليهما بشكل ضار، لكن لا، إسراع باولو في الزواج كان جزءًا من برنامج متكامل «لحبهما» هو وفاليري، وهو مشروع لن يفهمه أحد باستثنائهما. وفيه، أي البرنامج، رغب في أن يكون أحد الشهود أنجلو.

الآن هو هنا كأقرب مقربي أفراد أسرة العريس، وهو جزء من الجهود المبذولة كي يذهب الجميع في الموعد إلى الكنيسة. أمضيا بعض الوقت يتفقدان بعضهما مرة أخرى، ويتأكدان من أن ملابسهما لم تنكمش، وما إذا كانت الزهور الوردية التي وضعاها على البالطو لا تزال في مكانها. تظاهرا أنهما تعطلا قليلًا لكنهما في الواقع كانا جاهزين. كان بإمكانهما التوجه إلى الكنيسة لكن الوقت كان ما زال مبكرًا.

كان يومًا جميلًا! في النهاية، صعدوا في السيارة المستأجرة الفاخرة. أصر باولو على أنجلو أن يركب معه ووالده. لكن من يدري، فكر أنجلو، ربما كان الأب ينتظر هذه الدقائق الأخيرة ليكون بمفرده مع ابنه ليقدم له بعض الوصايا التي نسي أن يذكرها له لأنه خجول أو شعر بالإحراج، أم أن كل هذا لم يكن سوى محض خيال؛ لو شاء والد باولو -قصير ونحيف، هادئ، وشفتاه نحيفتان فوقهما شارب أسود خفيف- أن يكون بمفرده مع ابنه، فهذا لأنه كان يشعر

بالخواء لأنه سيغادر المنزل. لطالما كانت أسرة باولو ملتحمة جدًّا، وكي نقول الحقيقة، منذ أن كانا صديقين، شعر أنجلو أن هذه اللحمة -رعاية الأبوين لأبنائهم- غريبة بعض الشيء، لو كان له أن يسمي الأمور بأمانة فلن يجد كلمة أنسب من «الغيرة».

وصلوا أمام فناء الكنيسة الفسيح الذي كان مغمورًا بضوء باهت وشديد في نفس الوقت. بدأ المدعوون بالتوافد. كان في لقائهم أصدقاء العريس المقربين، وابن عم العروس الذي يعمل مع شقيق العريس مارسيل، وأصدقاء آخرون في العمل. خرج القندلفت بسؤال غبي حول أفضل مكان لوضع الزهور، وتحدث إلى والد العريس، وإلى أخوي العروس اللذين بدآ بالتوافد، وهما أكبر من فاليري. رجلان متزوجان جاءا يفرحان لشقيقتهما الصغرى والوحيدة. هي أيضًا وجدت «نصيبها» كما كانوا يقولون في تلك الأيام. أحاطوا بالعريس لتهنئته. هم أيضًا لم يتمكنوا من إعطاء إجابة مقنعة للقندلفت حول أين يضع الزهور. عاد بعناد وسأل والد باولو الذي لم يدرِ بماذا يجيب. مرر أصابعه على شاربه الأسود الخفيف ونظر محتارًا نحو الفناء. اقترب القندلفت من باولو الذي لم يُصغِ إليه لأنه كان منهمكًا في الحديث مع أخوي العروس، ثم سأل أنجلو بصفته شاهد باولو فقال له أن يضعها على درجات المذبح. وهنا ظهر غرض القندلفت وراء كل هذا الإلحاح. أدرك على الفور أن أنجلو أراد أن يتخلص منه فذهب إلى شقيقي العروس مرة أخرى. من المؤكد أنه كان يعتقد أنه من خلال ذلك سيشتري رضاهما للحصول على بعض البخشيش مقابل مساعيه الحمقاء.

حضر المزيد من المدعوين في فناء الكنيسة. بين الممرات، كانت الأرض مزدهرة بورد أصفر زاهٍ. يبدو أن أحدهم يعتني بها جيدًا لأن التربة كانت مخضلة والورد يطلق رائحة خفيفة. يبدو أنه سيكون هناك الكثير من الحضور، وهو أمر مفهوم لأن عائلة فاليري كانت نشطة في الكنيسة، ولا بد أن عددًا كبيرًا من المدعوين منخرطون في العمل الكنسي.

معظم الضيوف تابعوا طريقهم داخل الكنيسة لكن حشدًا صغيرًا تجمع في الفناء حول باولو ووالده، في انتظار دخولهما كي يرافقاهما.

أحد المقربين من العروس أخبرهم أنها قد غادرت المنزل الذي لم يكن بعيدًا وهي على وشك الوصول. جميع من كانوا في الباحة توجهوا إلى داخل الكنيسة. بقية الحفل مرت على ما يرام. منذ أن دخلت فاليري متأبطة ذراع والدها حتى اللحظة التي خرج فيها زوجان من الكنيسة، حيث كان في انتظارهما ثلاثة أولاد وثلاث بنات صغار، أخذوا برشهما بالأرز والزهور وسط الابتسامات والغناء مع مقاطع موسيقية مختارة بعناية، كل جزء من الحفل سار بشكل سلس وعادي، حتى خشوع المصلين، ليس كإجراء شكلي ولكن كامتداد حي لما يجري حول المذبح. حتى عظة الكاهن العجوز، وهو صديق لعائلة فاليري، رغم أنها كانت طويلة، فقد كانت ممتعة لدرجة أنها لم تتسبب في سعال أو ململة واحدة.

أجمل لحظة في الاحتفال كانت عندما وعد فيها العروسان بعضهما بأنهما سيخلصان لبعضهما. في هذه المرحلة، شعر أنجلو بسعادة غامرة لأن باولو اختاره ليكون شاهدًا على عقد قرانه.

صعد برفقة خالتها إلى المذبح ووقفا بالقرب من العروسين. في أثناء صعوده شاهد فاليري تنظر إليه. نظرتها مفعمة بالابتسام -لم تنظر إليه بهذه الطريقة من قبل. كان يعلم أنه لا يروق لها، ومن يدري كيف كانت تنظر إليه؟ كان مقتنعًا أنها تعتبره فاسقًا وكافرًا، وأنه يقلل من شأن الدين ويمضي حياته في الشراب والفواحش. كانت ترى فيه شخصًا قد يؤثر سلبًا على باولو: من يدري ماذا كانت تقصد حقًّا بكلمة على المرء أن يعيش حياة «صالحة»، والتي كانت ترددها كثيرًا على مسامعه. منذ أن التقى بها باولو لم يصدر عنه ما يوحي بأنه قد يكون شقيًّا، كيف وهو تحت إبطها طوال الوقت؟

من جانبه، كان أنجلو ينظر إليها على أنها متعصبة دينيًّا. رغم أنها كامرأة، كان لها قوام يعجبه -ليست طويلة ولا قصيرة، مكتنزة بصدر صلب وخصر نحيل، وفخذين جميلتين- لكنها لم تكن تثير انتباهه قَط. ربما لأنه شم فيها

رائحة القدسية منذ أن شاهدها لأول مرة في حفل طلابي. ربما كراهيتها له نابعة من هذا الشيء، لأنه لسبب غريب، لم يكن يعتبرها امرأة يمكن أن يشتهيها. قبل أن يرتبط بها باولو، كانا يتحدثان عنها بنفس الطريقة التي يتحدثان بها عن نساء أخريات. كان باولو يضحك عندما يشرح له صديقه مشكلة فاليري:

- كيف يمكن لامرئ أن يذوب عشقًا في القديسة ريتا من كاشا؟

في البداية، أخفى باولو أن الفتاة تعجبه، وربما حاول جر أنجلو كي يتعرف على شخصها بشكل أفضل من خلال ما يظنه الآخرون، ولماذا تعجبه إلى هذا الحد. جميع أصدقائه كانوا سيخبرونه بنفس الشيء.

أنجلو لم يلاحظ ماذا كان يحدث. ظل يتحدث بسلبية عن فاليري لفترة طويلة، حتى بعدما اكتشف أن صديقه كان يواعدها. لكن ما معنى «مواعدة»؟ عندما أخبره أن الفتاة تبدو كأنها كتلة من الجليد وباردة للغاية، ضحك باولو بهدوء وقال إنه واثق بأنها يمكن أن تكون بركانًا مثل أي امرأة أخرى. كان على أنجلو أن ينتبه على الفور، لا سيما أن صديقه استخدم تلك الكلمة «بركان»...»؛ في مثل هذه الحالات كان سيقول «شبقة مثل».

على الأقل بعد أيام قليلة، بدأ يفهم عمق العلاقة بين باولو وفاليري (الحب؟). توقف عن انتقاد فاليري ولم يتحدث عنها بسخرية. بل على العكس، بدأ يتحدث عنها بحذر وفائض من الاحترام؛ الأمر الذي قدَّره باولو على الفور.

سرعان ما بدأ باولو يسر لصديقه عن مدى إعجابه بفاليري، وكيف أنه لم يكن يفكر في الزواج من قبل، لكنه الآن يشعر أن الوقت قد حان. عندما تحدث إلى الآخرين بنفس الشأن سرعان ما بدأوا يسخرون منه؛ صحيح إنه لطيف ولامع ومجتهد، لكن كانت لديه سمعة بأنه «فاجر». علاقة باولو أصبحت فاترة مع كل من سخر من فكرة زواجه. ولأن أنجلو ظل يستمع إليه بجدية، فقد قويت أواصر الصداقة بينهما، رغم أن باولو لن يكون معه بعد الآن في ليالي السكر والمجون والعربدة برفقة الآخرين.

لكن فاليري لم تُغير وجهة نظرها نحو أنجلو. ربما ظلت تعتبره أحد أولئك الذين سيجرون زوجها إلى دروب الفساد والبحث عن الملذات، وهي كلمة كلما سمعت بها امتلأت بالحزن والمرارة، لأن الإنسان في بحثه عن الملذات، ينسى أنه إنسان ويجري خلف غرائزه، وبدلًا من استخدامها في المتع اللائقة، يسيء استخدامها. يبدو أنها تُثار وتستمتع بالمتعة اللائقة، أو هكذا كان أنجلو يترجم نظرتها إليه عندما يكون بصحبة باولو الذي لم ينتبه قَط لهذا، بل إنه كان يعتقد أن فاليري وأنجلو متفاهمان جيدًا، أو هذا ما كان يقوله.

ومع ذلك، أحيانًا كان يساوره الشك بأنه ليس صحيحًا أن باولو يعتقد ذلك. بل على العكس، فهو يعلم تمام المعرفة كيف تنظر فاليري إلى صديقه، ولكنه يُفضل أن يتصرف كأنه لا يعلم. لم يتفاجأ على الإطلاق عندما اكتشف أن أقوى معارضة على اقتراحه بأن يكون أنجلو شاهده على عقد القران لم تكن من أسرته، الذين توقعوا أنه من الطبيعي أن يختار أحد أعمامه لوالده. وعندما لم يحدث ذلك، أثيرت بعض الشائعات في الأسرة بأن والد باولو قد غضب. في الحقيقة الاعتراض بشدة جاء من فاليري. كان عليه أن يستخدم كل دبلوماسيته الناعمة لإقناعها، وهذا ما يفعله عادة عندما يختلفان حول مسألة ما كي لا تستمر في الممانعة، وحتى نقول كل شيء، لم تكن لتناكفه حتى النهاية حول شيء يرغب فيه حقًّا، لأنها أحبته كثيرًا ولا تقوى على حرمانه من شيء عزيز على قلبه -كانت تعلم كيف تجعله يبدو أكثر عنادًا منها. لو كان علينا قول الحقيقة كما تعرفها فاليري، فلا خلاف كان سيحدث بينهما، لأنها لم تكن ترفض له طلبًا.

من الصعب معرفة مدى إن كان هذا صحيحًا أم أنه من نسج خيال أنجلو خلال الأسابيع التي سبقت الزفاف. عندما كان يلتقي مع الزوجين، كان باولو يستقبله بابتسامة عريضة، فيما هي يكفهر وجهها، ثم سرعان ما تصطنع ابتسامة منافقة بمجرد أن تدرك أنه كان قادرًا على قراءة أفكارها حوله.

هل من الممكن أن هناك شيئًا آخر خفيًّا في أعماق أنجلو؛ كراهية غريبة تجاه فاليري؟ هل كان هو من يمقتها وليست هي؟ هل لأنها أخذت منه صديقه

مبكرًا؟ صديقه لم يعد رجلًا يعيش كرجل، بل أصبح زوجًا منصاعًا. إذن من كان يمقت الآخر؟

ولكن الآن، بينما هو وخالة العروس يقتربان من العريسين الجاثيين على ركبتيهما، نظرت فاليري نحوهما بابتسامة واسعة. لم تغادرها الابتسامة حتى عندما رأته يقترب منهما. يبدو أنه رغم علمه أنها لا تطيقه، فإنه في تلك اللحظة أصبح جزءًا من سعادتها. بل وباولو أيضًا. قرب نهاية اللحظة نظرت إليه ثم أدارت وجهها نحو العريس. نظر باولو إليه فشاهد في عينيه نفس شغف فاليري وسعادتها. يبدو أن أي أحقاد محتملة بينهما -إن كانت موجودة فعلًا- قد نُسيت في هذه اللحظة الساحرة؛ كانا حقًّا في لحظة توحد حيث يتمنى كل منهما للآخر ما يرجوه من الآخر. عندما تذوب الشكوك والأحزان والأحقاد في خليط من الابتسامات والموسيقى ورائحة الورد والطقوس الكنسية التي تُذكِّرك بطفولتك، تذوب، لا في داخلك فحسب، بل فيمن حولك، وفيمن يكن لك البغضاء، أو هذا ما تظنه. إن كل شيء يبشر بمستقبل واعد وجميل. لقد كانت لحظات من سحر لا مثيل له.

عندما كان باولو وفاليري يَعدان بعضهما بما كان عليهما أن يعدا بعضهما به، في حضور الشاهدين المبتسمين، وسط حشد المصلين من خلفهما في ظل صمت تام في الكنيسة، باستثنائهما يؤديان القسم، شعر أنجلو بسعادة عارمة لم يشعر بها من قبل، ولا بعد ذلك؛ كان سعيدًا جدًّا، كشاهد على هذا الزواج المفعم بهذه الطمأنينة والهناء.

تمت

من صيف 2005، حتى صيف 2011